كمال السيد

أطول يوم في التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: أطول يوم في التاريخ
تأليف: كمال السيّد
تصحيح وتدقيق: الشيخ الدكتور حسين اليوسف
الطبعة الثانية: يونيو ٢٠٢٢ - شوال ١٤٤٣ هـ
إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر
البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com
kamal.alsayeed

كلمات

الموقع الرسمي

الفهرس

مدخل ١٢

في البدء ٢٢

الإمام علي.. رمز الإسلام المضطهد ٣٥

راية حب ٣٦

اتحاد العقل والقلب ٤٦

أزمتنا ٤٨

محاولات تطبيقية ٥٢

هاجس الخطر الوهمي أو الوعي الاجتماعي ٥٧

نماذج من حوارات الإمام ٦١

الإمام الحسن.. الحرب من أجل السلام ٦٧

رياح الهزيمة ٧٥

الخيار رقم صفر ٨٤

وداعاً أرض السواد ٩٦

الإمام الحسين ميلاد الضمير الإنساني ١٠٠

الوعي.. الإرادة ١٠٨

التأسيس الصوفي ١٠٩

ساعة الصفر ١١٥

تحركات مسلم ١٢٨

المجد الأخلاقي ١٢٩

قائد بلا جنود ١٤٨

للطباعة والنشر
لنشر آثار السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

قرار المختار ١٥٥
أطول يوم في التاريخ ١٧٤
الليلة الطويلة ١٨٥
الحر يختار الخلود ٢١٢
المدينة المنورة ٢٧٨
كربلاء ٢٧٩
وداعاً أرض كربلاء ٢٨٢
السجود فوق أرض الحسين ٢٨٦
اسمع يا أخي! ٢٨٧
أخيراً أشرقت الروح ٢٩٣
فجر الضمير ٣٠٣
ابن تيمية وأهل البيت ٣٠٤
مع اليزيدية ٣٠٥
الانحرافات الكبرى ٣٠٨
الخدعة ٣٠٩
الخطط السياسية ٣٢٣
الخلافة المغتصبة ٣٢٤
السلفية ٣٢٤
السيف والسياسة ٣٣٥
الطريق إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام ٣٣٧
القطوف الدانية ٣٤٣

غير مخصص للبيع أو الطباعة

المواجهة مع رسول الله وآله ﷺ ٣٤٤
بنور فاطمة ٣٤٧
ثم اهتديت ٣٥١
خلاصة المواجهة ٣٥٤
فقهيات ٣٥٤
المسار الأموي ٣٥٥
معالم الفتن ٣٥٦
من الحوار اكتشفت ٣٥٧
لقد شيعني الحسين ٣٦١
الملحق ٣٦٣
الملحق (١): أسرار الحضرة العباسيّة المطهرة.. مرة أخرى. ٣٦٣
البداية.. كانت سؤالا ٣٦٤
في كربلاء.. مخاوف وكرامات ٣٦٦
حكاية النهر ٣٧٠
بناظير بوتو تمنع تصوير القبر ٣٧١
خزائن ونفائس ٣٧٧
تاريخ الضريح المطهر ٣٧٨
أصداء ٣٧٩
الملحق (٢): قصة نقل جثمان الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه ٣٨٢

غير مخصص للبيع أو الطباعة

الإهداء

إلى أخي الدكتور ضرغام الأجودي

اعتزازاً بمساندته ورعايته ومواقفه الأخوية

كمال السيد

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أنا الشجرة..

وفاطمة فرعها..

وعلي لقاحها..

والحسن والحسين ثمرتها..

وشيعتنا ورقها..

محمد رسول الله صلى الله عليه وآله [1]

أنا..

فرع من فروع الزيتونة..

وقنديل من قناديل النبوة..

ومصباح من مصابيح المشكاة..

التي فيها نور النور..

وصفوة الكلمة الباقية..

الإمام جعفر الصادق عليه السلام..

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

---

١. المستدرك، ج ٣، ص ١٦٠، ح ٤٧٥٥ - ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٣١٨..

ملحمة الحسين

ومُـذْ هويتَ أيها الحسـينُ في الرمـالْ تَفجّر الفراتُ واسـتحال خيطَ ملـحْ وغـارت العيـونْ وأضحـت الميـاهْ شـطآن مـن سـراب كالشـوك.. كالجراح أضحت الحياهْ..

ومذ هويت أيها الحسين ومرّت الخيولْ على ربىً من صدركَ الكبيرْ انهـارت السـدودْ واجتاحت السـيولْ فلا حـدودْ.. مدينةَ الرسـولْ وعربدَ الغزاةُ في المحاريبَ وأحرقوا الحقولْ شـراذمُ الأوغـادِ.. واليهودْ يصلبونْ في حضرة العذراءِ ابنها الوحيدْ ويطعنونْ.. بقسوة التتار والمغولْ مهجةَ البتولْ لينتشي بسكره يزيدْ..

يـا أيها الحسـينْ يا دمك المطلولِ في الرمالْ فـي التاريخْ.. في ذاكرة الأجيـالْ وفي بداية القرونْ «أوزريس»[1] هبّ من جديد يحطمّ القضبانَ والزمـانَ واللحـودْ فتكتـبُ الدمـاءْ دمـاءُ قلبـه الكبيـرْ فـي سورة القتالِ والحديدْ آية الخلودْ..

ما مات فالحسـينُ.. لم يزل يقاتل ولم يزل يحطّم الأغلالَ والسلاسـلْ و«ذو الجناح»[2] لم يزل يقاومُ الغزاة

مذ غاص في قرارة.. الفرات والمياه..

---

١. عـلى مـرسى بحيرة أبيدوس في مصر القديمة.. نشـبت المعركة بين الاله أوزريس حيث يقطع رأسه ويدفن.. ثم يعقب ذلك انتصاره بعد انبعاثه من القبر وعودته ليطرد الأعداء.

٢. فـرس الحسـين فـي عـاشوراء، ... تروي بعـض المدوّنـات التاريخيـة أنه غـاص في مياه الفرات.

ما مات من يزلزل اسمه الطغاة ولن يموت.. قاهر الفرات.. إذ يموج.. وهل يموت من تجلّى فوق أنفه الإباءْ فانفتحت له نوافذُ.. السماءْ والعروج؟!

يا فأس إبراهيمَ إذ تهشّم الأوثانَ والنمرودْ.. ويا دماء ابن آدم القتيلْ يا هابيل! يا يحيى وإسماعيل! يا بن مريم البتول! يا محمد الأمين! يا علي! يا حسين! ويا دماً يفورُ في العروقْ عروقِ كلّ ثائر كبيرْ ينتشلُ الشمسَ إذا هوت الى المغيب ويبدأ الشروقْ ويولدُ الحسين من جديد كالنبع... كالمياهْ كنفخة الالهْ إذ تعيدْ إلى المواتِ نسمة الحياهْ.. في كلِّ يوم يولدُ الحسينْ في كل أرض عندما يعيث في الثرى يزيدْ سيولدُ الحسينُ مِن جديدْ في صوتِ كلّ ثائر عنيدْ ترجيعةٌ من صرخةِ الشهيدْ في صدر كلِّ «صدر» نفحه الحياة وبسمة الوليد في الشفاه..

وكانَ في «العراق» موعدُ الالهْ وذو الجناح مِن قرارة الفرات والمياهْ قادمٌ.. يسابق الصهيلْ فتُقرعُ الطبولْ وتُسرجُ الخيولْ وتشهدُ السماءْ ملحمة الحسينِ في الفداءْ ويُهزم الموتُ أمام صرخة الشهيد.. ويُهزم الطغاة فتستعيد مجدها الدماء عندما تلوّنُ الحياة..

مدخل

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1].

استناداً إلى الأدبيات الدينية يمكن الإشارة إلى مكونات الشخصية الإنسانية التي تعّد العناصر المؤلفة والمحددّة لها وهي؛ الفطرة التي هي مستودع السرّ الإلهي بما يجسد آدمية الإنسان وهويته التكوينية وبما تنطوي عليه من أسرار القيم الإنسانية والرموز البشرية؛ والعقل الذي هو مركز التفكير المنطقي والمحاسبات والتمييز بين القبح والجمال والسراج الذي يلقي بالأضواء الكاشفة في كل ذلك؛ والإرادة التي تعبر عن حرّية الكائن البشري واختياره واستقلاله ومسؤوليته في نفس الوقت؟

والضمير الذي يمثل القانون الأخلاقي المودع في أعماق البشر! والقلب ذلك الجزء النابض الذي يتلقى الإشراق والوعي ومركز العاطفة والحنان؛ وأخيرا الأهواء النفسية التي تمثل مجموعة الطاقة الحياتية والقوى الغرائزية التي تدفع بالإنسان إلى الحركة والحياة من خلال الشعور بالظمأ والتطلع إلى الإشباع، وفي ضوء هذه العناصر يتحرك الإنسان ويمارس تجربته في الحياة.

ولأن الإنسان لا يولد ويحيا وحيداً وإنّما ينشأ في جوّ اجتماعي وبيئة ثقافية يتشرّبها الإنسان ويتنفسها وتدخل في تكوين شخصيته، مع الإشارة والتأكيد بأن الثقافة هي الفكر غير القابل للنسيان وأيضاً إلى اعتبارها نظرية في

---

١. الأحزاب: ٧٢

السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة.

ومن هنا يتوجب النظر إلى حركة مسلم بن عقيل في مهمته كسفير للإمام الحسين عليه السلام على أنها دعوة إلى الاستقامة والحرّية والكرامة الإنسانية. يخاطب الإمام علي عليه السلام الإنسان بما هو إنسان قائلاً:

لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً

ويقول حفيده علي بن الحسين زين العابدين:

لا يحل لمؤمن أن يكون ذليلاً.

ولهذا دعا الإمام علي إلى عبادة الأحرار بعيداً عن الرغبة التي هي عبادة التجار والرهبة التي هي عبادة العبيد.

وفي هذا يكمن إيمان عميق بالحرّية لأن مسيرة الوجود تتحرك نحو الخير!

والإرادة التي هي عنصر أساسي في تكوين الشخصية الإنسانية إنّما هي تعبير آخر عن الحرّية؛ فالإرادة الحرّة تعمل بموجب قوانين لا تفرض عليها من الخارج وإلّا سيّرتها الآليات التي تسيطر على الوجود بأسره؛ غير أنها في نفس الوقت تخضع لأصول تنبع من داخل الذات؛ هذه الأصول التي جبل عليها الإنسان بحكم طبيعته الآدمية، فالإرادة اذن هي العامل الفعال الحي الذي يجعل الإنسان بين عالمين؛ عالم المادة والحس وعالم الروح والمعاني؛ وهي بذلك المبدأ الحي الذي يسود الوجود.

وحرّية الإرادة اذن هي نبع الحياة الأخلاقية والحياة العقلية أيضاً [لأنه لا

يوجـد يقيـن بدونهـا] وكل قرار تتخذه الإرادة هو حكم فـي حد ذاته لأنه ينطوي على سبب مبرر ومسوّغ، فالحرّية هي من المبادئ التي تثبت ذاتها بذاتها.

ومن هنا فان حرّية الإرادة تؤكد مسؤولية الإنسـان وفاعليته في العالم وقدرته على الخلق والإبداع؛ وهي كذلك التعبير عن علاقة الذات بالفعل الذي تقوم به.

واعتقـد أن الإنسـان العراقـي فـي الوقـت الحاضـر هـو الأكثـر شـعوراً بقيمة الحرية، لأنه عاش فصولاً مريرة من الظلم والقهر وسلب الإرادة.

لأن الإنسان الحرّ الذي يقوم بمعظم أفعاله بحرّية سوف تتحول هذه العملية وهذه الممارسة لديه إلى أفعال آلية وعندما يكون الفعل حرّاً هنالك يشعر الأنا العميق بأن الفعل الذي تحقق هو فعله حقيقة.

وقـد شـهدنا أول انتخابات حقيقية مارسـها العراقيون لأول مـرّة، وكانت في الحقيقة لحظه ميلاد لشعب عاش حرماناً مريراً وطويلاً من الحرية.

وقد مارس نظام حزب البعث المنحط أسـاليب غاية في البشـاعة شوهت الشـخصية العراقيـة وزادتها تعقيداً؛ إذ بنى إسـتراتيجيته فـي البقاء، على قهر الشعب وتحطيم إرادته وعلى الخوف والإرهاب الممنهج.

ونعرف جيداً كيف يفعل الخوف فعله التخريبي في داخل النفس الإنسانية إنـه أولاً يحطم معظم مراكز التفكير المنطقي لديه، فيرى الواقع الخارجي على نحو يشلّ إرادته ومن ثم يحوله إلى كائن خاضع مع الإشارة إلى أن ذلك يرتبط

ارتباطاً وثيقاً جداً بحب الحياة والرغبة في البقاء حيّاً بأي ثمن حتى لو كان ذلك الثمن هو الكرامة، التي لا يحق للإنسان وفي أي ظرف كان أن يتنازل عنها، فكما أن الانتحار ليس من حق الإنسان لأن الحياة هبة الله له كذلك الكرامة والحرّية ليس من حقه أيضاً التنازل عنها لأنها هبة الله له كما الحياة!

ولقد مرّ شعبنا بتجربة مريرة في سنة ٦٠ هـ، ٦٧٩م عندما تنازل عن كرامته وحرّيته أمام الطاغية.

ولأننا نكتب عن إنسان رائد حاول إعادة صياغة القيم الاجتماعية والثقافية في عصره ومجتمعه وأعني سفير الحرّية مسلم بن عقيل نشير إلى تفاصيل ما حدث حقيقة في تلك الأيام العاصفة.

نعرف أن عبيد الله بن زياد كان يحكم البصرة ثم أسندت إليه حكومة الكوفة، فتحرك على الفور متجهاً إلى هذه المدينة ومعه عدد قليل من رجاله، أقل بكثير من الذين كانوا يرافقون الإمام الحسين الذي كان يقطع المسافات متجهاً إلى نفس هذه المدينة.

وكان سفير الإمام قد وصل منذ ثلاثة أشهر على الأقل وتمكن من تنظيم المعارضة التي بدأت تتسلح استعداداً ليوم المواجهة.

تشير المدوّنات إلى أن ثمانية عشر ألف بايعوا الإمام الحسين من خلال مبعوثه وسفيره مسلم بن عقيل، إلّا أن وصول عبيد الله بن زياد فيما بعد أربك المشهد العام تماماً فقد حول الكوفة إلى مسرح لعمليات دموية رهيبة كما شن حرباً نفسية من خلال بث الشائعات حول قرب وصول جيش جرّار من

سوريا.

وإثر حوادث نترك استعراض تفاصيلها للبحث، تبخرت تلك الألوف، ومن المؤسف جداً أن الحرب النفسية التي تستند إلى عقدين من الإرهاب الحكومي فعلت فعلها وأصبح الجيش القادم من الشام أصبح ذلك الجيش الخيالي حقيقة بحيث نجد أن مسلم يبقى مع اثنين أو ثلاثة فقط:

ثم بقي وحيداً مع بدء حلول الظلام وكان أحدهم قد اقترح عليه أن يهتف بشعار الثورة يا منصور أمت، قال له مسلم بمرارة: الذين يفرون في وضح النهار كيف يعودون في ظلمة الليل؟!

ثم تكررت هذه التجربة في عام ١٩٨٠ عندما ظهر يزيد العصر ليظهر في مواجهته حسين العصر.

ويجب أن نعترف إن شعبنا قد خضع للطاغية وأن الإنسان الذي وقف بوجه النمرود كان الشهيد محمّد باقر الصدر وإلى جانبه شقيقته بنت الهدى زينب هذا العصر.

وليس من الصدف أن تكون آخر محاضرة للسيد الشهيد الصدر حول المحنة وحب الدنيا وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وإذا كان الإمام الحسين الشهيد قد خاطب مجتمعه في يوم عاشوراء قائلاً: أيها الناس! إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال؛ متصرفة بأهلها حالاً بعد حال؛ فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته!

فلا تغرنكم هذه الدنيا، فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها.

فان الشهيد محمّد باقر الصدر تساءل بمرارة قائلاً: ما هي الدنيا؟! مجموعة من الأوهام؛ لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين!

من أجل هذا يتوجب أن نحتفي ونمجد كل شهداء العراق الذين تضرجوا بدمائهم الزكية واستشهدوا تحت التعذيب وعلى أعواد المشانق، منذ عام ١٩٦٨ وحتى عام ٢٠٠٣، وأشدد على ضرورة كتابة تاريخ هذه الفترة لأن تاريخ الشعوب هو تاريخ الثورات ولأن عقلية حزب البعث الصدامي شوهت هذا الفصل الدامي المرير من تاريخ شعبنا ولأن هذه العقلية ما تزال تعشعش في جماجم البعثيين الأوغاد الذين يحاولون التسلل والنفوذ إلى مفاصل نظام الحكم في عراقنا الحر الجديد ومن ثم الانقضاض على شعبنا مرّة أخرى.

لذلك يتطلّع الكثيرون إلى أن تفعّل أكثر فأكثر الأنشطة والفعاليات الثقافية، لأن العمل الثقافي هو الموسم الزراعي والعمل السياسي هو في حقيقته موسم حصاد؛ وأن أية عملية سياسية لا تستند إلى بنى تحتية ثقافية لا يمكن الركون إليها والتعويل عليها ولأن الحرية التي أكرمنا الله بها ينبغي أن تتحول إلى ثقافة تتشرّبها الأجيال ويتنفسها أبناؤنا حتى لا يتنازل شعبنا عنها بل ولا يستطيع العيش بدونها، إذا ما واجه ظروفاً كالتي حصلت في سنة ٦٠ هـ أو في سنة ١٩٨٠م ومن الطبيعي أن يتحمل المثقفون مسؤولية بلورة الوعي والتسريع في حركته في العمق الاجتماعي.

يقال إن الاستفهامات تدل على وعي المجتمع وعمق إدراكه لواقعه وطبيعة مشكلاته، وهي حالة تجلّي حواري بين العقل والواقع، وبداية تحرر من التفكير المجرد واقتراب من الواقع بغيه الإصلاح وترشيد حركة المجتمع باتجاه الهدف المنشود.

كما إن الثقافة ليست مجرّد إنتاج فكري وإنّما هي صيرورة عميقة أعمق بكثير من النظريات التي غالباً ما تبقى طافية في السطح إلى أن تتسنى لها فرصة الغوص في روح المجتمع وتفاعلاته.

والوعي إنّما هو حصيلة الثقافة وهو القوّة الفاعلة في تطورها وتقدّمها، كما إن الوعي الثقافي ليس حكراً على ذوي الإنتاج الثقافي والعطاء الفكري ولكنه يمتدّ ليشمل المتلقي من خلال إدراكه لذلك العطاء، ولهذا هناك حاجة مستمرة للإبداع.

كما إن الحوار هو الخيار الوحيد حتى لو لم يسفر عن نتائج، ذلك انه يحرك المناخ الثقافي بما يوفر أسباب استمرار الحياة في الحركة الحضارية، لهذا الجيل والأجيال القادمة.

والمثقفون بما يمتلكونه من رصيد معرفي وبما يتمتعون به من ارتباط وثيق بالواقع هم المؤهلون أكثر من غيرهم إلى إجراء عملية الحوار هذه؛ ولذا يتوجب حمايتهم والاعتراف بدورهم المؤثر والمصيري؛ ولأن ما يحصل من امتهان للشعوب إنّما مهد له امتهان للمثقف سواء من قبل السلطة أو حتى من قبل المجتمع.

ومـن أجـل هذا يكـون من الـضروري الحديث عـن أمن ثقافي ذلـك أن كل التوجهات السياسـية هي في الحقيقة انعكاس لتيارات فكرية وثقافية حيث دور المثقـف دور حيـوي لأنـه يقـوم بعملية الترشـيد وهو الـذي يحدد ملامح الوعـي الـذي يبـلور بـدوره المسـار الاجتماعـي والوجهة التي سـوف يسـلكها المجتمع والطريق الذي سيسير فيه.

وفـي المقابـل عـلى المثقـف الـذي هـو حلقـة التواصـل بيـن المجتمـع والمؤسسـة الحاكمـة ألا يـتورط ويصبح جزءً من السـلطة، والمثقف الحقيقي هو من يحافظ على استقلاله التام.

وقـد آن الأوان لأن نتحـدث عن وجود أزمـة أخلاقية حادّة هي من وراء ظهور الأزمات السياسية وحتى الأمنية.

ولهـذا مـا نـزال حـتى الآن نبحث عـن تعريف للمثقـف الحقيقـي وهذا هو هاجس النخبة الصالحة أو الطليعة في حركة الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

فمـن الناحيـة النظريـة يمتلـك المثقـف أدوات كافيـة لكـي ينجـز عملية الارتبـاط بالواقـع ومحاولـة قراءته قـراءة موضوعية بعيداً عن الأحكام المسـبقة والمصـادرات، ومـن ثم الانـدكاك والاندمـاج والانتماء للواقع عـلى نحو يجعله يعيش هموم المسؤولية في عملية التغيير.

إن فشـل المثقـف سـوف ينعكـس بالتأكيد على فشـل الأمة، حيـث يفقد المثقف «وزنه النوعي» في دولة لا تعيش الحالة المؤسساتية خاصة أمام سعي السـلطة التنفيذيـة الحثيث في إخضاع القوى التشريعيـة والرقابية والقضائية

وأحياناً العكس أيضاً.

والخطر الحقيقي، يكمن في انحياز المثقف للسلطة وجنوحه إلى التسلّح بها أو قيام السلطة بشرائه عندما يتهاوى المثقف أمام أول اختبار أخلاقي له؛ هنالك تتحول سكين «المطبخ الثقافي» إلى أداة للجريمة وقتل الوعي في نفوس وعقول الجماهير.

لهذا مطلوب الآن فسح المجال أمام المثقف الذي يحمل هموم رسالته في التغيير والإبداع ليؤدي دوره في استلهام القيم الإنسانية والانطلاق نحو المستقبل وذلك من خلال الانفتاح على جميع أدوات ووسائل العمل الثقافي. وبما أنه لا يوجد إنسان يعيش من دون قيم سلبيه أو إيجابية فإننا اليوم في أمس الحاجة إلى فهم ووعي عميق للإسلام بعيداً عن التجارب الماضية ذلك إنها تجارب على كل حال و «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون»، مع التأكيد على ضرورة عدم انتقادها بظروف الحاضر لأن جزءً كبيراً من الحاضر قد تمت صياغته ضمن إنتاج الماضي.

ليس المعيار في رفع الشعار إنّما يكمن في الممارسة والواقع العملي والسلوكي، وينبغي ألا ننخدع بالمظاهر والشعارات البراقة واللافتات العريضة؛ فهؤلاء الذين يتحدثون باسم القيم الإسلامية مثلاً ثم نراهم يتهافتون على المناصب والثروات إنّما يتبنون قيماً اجتماعية نابعة من ثقافة لأتمت بأدنى صلة إلى الثقافة الإسلامية التي تركّز على الزهد الإيجابي.

ولهذا ليس من الصواب أن يتبوأ المثقف موقعاً حكومياً لأنه سيتحول إلى جزء من السلطة مع التأكيد مرّة أخرى على أن الثقافة تختلف عن العلم فالثقافة هي الفكر الذي لا ينسى والدماء التي تسري في عروق الفرد والمجتمع بينما العلم يطرح أسئلة «كيف» ويهمل تماماً أسئلة «لماذا».

وإذا ما أردنا العودة للتأكيد على مسألة الحوار فإننا نشير إلى أهمية التوصل إلى لغة مشتركة ومفردات لها معان مشتركه لدى المتحاورين؛ وقد ورد في الأساطير العراقية القديمة إن الله لما غضب على أهل بابل بسبب عزمهم على بناء البرج تحدّياً انزل عليهم تعددية الألسن فتنازعوا فيما بينهم وتشتتوا لأنهم افتقدوا لغة التفاهم والحوار.. برج بابل في الحقيقة رمز يشير إلى الفوضى ومعاناة الضياع التي تعتور المجتمعات خلال فصول من التاريخ.

إن مشاعر الكراهية للآخر مهما يكن لا تنبع من صميم الفكر الإسلامي؛ إنها قادمة من منظومة تفكير أموية الجذور تتسم باللاإنسانية والعنصرية اخترقت في الصميم بعض مدارس الفكر الإسلامي على حين غفلة وأدت في وقت مبكر إلى مصرع مسلم بن عقيل على ذلك النحو المؤسف ومن ثم إلى فاجعة عاشوراء في كربلاء التي تمخض عنها في نفس الوقت ميلاد الضمير الإسلامي المفعم بالإنسانية والنبل والمنصهر في بوتقة القانون الأخلاقي.

في البدء

الكوفة أحد العراقيين.

وقد عرفت مبكراً جداً مهداً للتشيع وقاعدة لابن الزبير إضافة إلى وجود طبقة تؤيد الأمويين.

والكوفة التي حسمت مسألة الناكثين في حرب الجمل سنة ٣٦ هـ هي نفسها التي أوجدت كارثة التحكيم من خلال تمرّد قطاع واسع من الجيش العراقي ثم نجد أسوأ من ذلك في صراع الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ودخول الأخير الكوفة فاتحاً وتصل المأساة ذروتها في فاجعة كربلاء.

وأعقب ذلك ظهور التوابين في ثورة استشهادية فريدة.

ثم ثورة المختار فيما بعد، وبعد نصف قرن تندلع ثورة زيد الشهيد!

وهذه المواقف المتناقضة تعود في الواقع إلى طبيعة النسيج العام الذي يكوّن المدينة التاريخية فالكوفة تتألف من نسيج قبلي إضافة إلى تنوع في الاتجاهات السياسية والمذهبية: الخوارج، الأشراف (وهم محسوبون على بني أمية) والشيعة من أتباع أهل البيت عليهم السلام أو مجرّد أنصار سياسيين.

ولذا نجد انطلاق صوتين قويين أحدهما يمجد أهل البيت وآخر يتحمس لقتلهم والنسيج القبلي المتباين المواقف التي تأخذ بنظر الاعتبار المصالح القبلية قبل كلّ شيء أثر سلباً على حالة الانسجام والتضامن في المدينة ونجد هذا التحليل في الإرشاد للمفيد عندما يتطرّق إلى ظروف الإمام

الحسين عليه السلام.

وتجب الإشارة إلى أولئك الذين كانوا لا هم لهم سوى الغنائم فهؤلاء كانوا يؤلفون شبه أغلبية وقد حصلوا أثناء موجة الفتوح على غنائم وفيرة وفرت لهم عيشة رغيدة بدأت تنحسر مع وصول الإمام علي عليه السلام الكوفة وخوض ثلاثة حروب داخلية ولذا كانوا ينظرون إليه باستياء وهذه الحقيقة صرّح بها الإمام الحسن عليه السلام في إحدى خطبه.

ولذا تبلور قرار السلام والصلح مع معاوية في أذهانهم بعد حرب النهروان وقد استغل معاوية هذا التوجه على أحسن وجه.

وهناك ما ينبغي الإشارة إليه وهو أن مدينة الكوفة اكتسبت ثقلاً سياسياً من خلال ما أفرزته حركة الفتوحات والانتصارات الباهرة والقضاء على أكبر إمبراطورية في الشرق، ولذا نجد هذه المدينة تمارس حالة من الهيمنة في القرار السياسي وتفرضه على المدينة المنورة.

وقد طبعت السذاجة في التفكير مواقف هذه المدينة التي ظهرت في بعض الأحيان مغلوبة على أمرها فكانت حركتها السياسية منفعلة تتخذ القرار بسرعة بسبب حساسيتها، ولكنها سرعان ما تتراجع وتقنع بما يقال لها، وتستسلم ثم سرعان ما تثور.

ونجد هذا واضحاً في الفترة التي يصل فيها مسلم بن عقيل وحتى تصفيته. فعمار بن ياسر لم ينجح في إدارة الكوفة بسبب نقائه وأخلاقه وسعد بن أبي وقاص وهو شخصية غير سياسية أخفق هو الآخر لكننا سنجد المغيرة بن

شعبة الفاجر على حد تعبير عمر بن الخطاب يستمر في حكم المدينة مدّة طويلة نسبياً.

وسنجد الإمام علي عليه السلام يواجه صعوبات في حكم الكوفة مركز الخلافة ثم يصرّح بأنّه يعرف الطريق لكنه لا يريد إصلاح الكوفة بفساد نفسه.

«أيتها الفرقة التي إذا أمرتُ لم تطع وإذا دعوتُ لم تجب.. لله أنتم أما دين يجمعكم أما حميّة تشحذكم؟» ولذا يمكن القول إن محنة الإمام الحسن عليه السلام إنّما هي استمرار لمحنة والده العظيم وأن مجده عليه السلام يكمن في صيانته لوحدة الأمة الإسلامية ومنحها فرصة لتختبر نفسها تجربة الخط الأموي وتناول ثماره المرّة القاتلة ومن ثم العودة إلى الذات التي صاغها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله في ظلال عترته الطاهرة.

ولذا فأن خطوة الإمام الحسن عليه السلام في ظروفه لا تقل تضحية عن خطوة شقيقه بعد عشرين سنة كما إن كلا الخطوتين تتكاملان في طريق إنقاذ الحضارة الإسلامية من الأفول الأبدي.

ميلاد مدينة:

في عام ١٧ هـ كانت الجيوش الإسلامية في الشرق قد استكملت فتح المدائن عاصمة الساسانيين مدة ألف عام على شواطئ دجلة بل واستكملت فتح العراق الذي يقع في الإقليم الثالث بحسب التقسيم الجغرافي القديم.

وأملت الضرورات العسكرية وأسباب أخرى بناء قاعدة حربية تكون منطلقاً

لإدامة حركة الفتح الإسلامي ترتبط مباشرة بالمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية وبناء على شكوى من القائد العام للقوات الإسلامية في الجبهة من وخومة البلاد وأثرها السلبي على الاستعداد القتالي للجنود العرب بسبب طبيعتهم الصحراوية فبرزت الحاجة إلى انتخاب مكان آخر.

وجاء جواب الخليفة الثاني: «إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان رائداً وحذيفة وكانا رائدي الجيش فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»[1].

وقد كان سعد بن أبي وقاص القائد العام قد فكر في اتخاذ المدائن قاعدة لقواته ثم تراجع عن ذلك بعد أن رأى وخمتها ووخمة دجلة التي لم تكن تناسب الجنود العرب إضافة إلى كثرة زوابعها التي تثير الغبار وانتشار الذباب[2].

وعندما انطلق سلمان وحذيفة كلا في جهة بحثاً عن مكان مناسب التقيا فيما بعد في منطقة الكوفة ولم تكن آنذاك سوى فلاة متاخمة للصحراء وبها ثلاثة أديرة فقط[3].

ولكن المصادر التاريخية أيضاً لا تكتفي بحصر الهدف من بناء الكوفة أن تكون مجرّد قاعدة عسكرية ومنطلقاً للفتوح بل واتخاذها داراً للهجرة يقطنها

---

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

المسلمون برغبتهم.

وهكذا بدأ البناء في مسجد أولاً ليكون مركزاً للمدينة الجديدة ومن المركز انطلقت أربعة سهام من أحد الرماة المشهورين لتكون الجهات الأربع حدوداً للمسجد وقد حددت منابت السهام بخندق حتى لا يقتحمه أحد ببناء.

وقد بنيت منازل المدينة ابتداءً بالقصب ولكن الحريق الذي التهم ٨٠ كوخاً دفع السكان إلى بناء منازل جديدة من الطين وجاءت موافقة العاصمة على ذلك.

أما الطرق الكبرى في المدينة فكانت بعضها بعرض أربعين ذراعاً وبعضها ثلاثين ذراعاً وعشرين ذراعاً فيما كانت الأزقة على نسق واحد وبعرض سبعة أذرع.

وكانت الطرق بمثابة حدود للمناطق السكنية التي توزعها القبائل العربية التي تشكل مجموع الجيش الإسلامي آنذاك.

وفي غضون فترة وجيزة ظهر قصر سعد إلى جانب المسجد وقد نقلت صخوره من الحيرة من بقايا وإطلال قصور الأكاسرة والآثار الباقية.

وعدد الطرق الكبرى خمسة عشر طريقاً تنتهي جميعاً إلى المسجد ما بين الطرق الكبرى هذه استوطنت القبائل العربية كما يلي:

المنطقة المتاخمة لصحن المسجد سكنت قبيلتا سليم وثقيف ثم همدان وبجيلة وتيم اللات وتغلب.

وما يلي القبلة استقر بنو أسد والنخع ثم كندة والأزد في شرق الصحن الأنصار، ومزينة وتميم ومحارب.

وعلى غربي الصحن بجالة وبجلة وجديلة من القبائل ثم جهينة ولم يكن لصحن المسجد سور أما الأسواق فكانت مجرد ميادين خالية من البناء وكان القانون الذي سنة الخليفة الثاني يقضي بأن تكون «الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه»[1].

وهكذا ولدت مدينة الكوفة وظهرت في الخارطة متاخمة للصحراء وعلى مقربة من نهر الفرات ترتفع عن سطح البحر ٢٢ متراً فهي مشرفة على النجف ذلك الوادي المالح، كما أنها ترتفع على المسطحات المائية في الجنوب العراقي أو ما عرف باسم بطائح العراق التي تنتهي في البصرة.

وأرض الكوفة حصباء رمالها حمراء خاصة في الجهة التي يقع فيها مسجد السهلة الذي يقع بدوره في الشمال الغربي من المدينة أما الجهة الغربية فقد تجمعت فيها رسوبات المياه الغرينية أو ما عرف باسم الملطاط[2].

وقد توفرت الكوفة على تضاريس متنوعة فهي على حدود الصحراء من جهة والمسطحات المائية ووفرة منابع المياه وارتفاعها عن سطح البحر فالتقت هذه المظاهر الطبيعية لتخلق لها مناخاً طيباً جعل الكوفيين يتفاخرون به

١. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٤، ٤٩٠ طبعة إحياء التراب العربي لبنان ١٣٩٩ هـ؛ تاريخ الطبري ج ٤، ٤١-٤٥.

٢. تاريخ الطبري حوادث سنة ١٧ هـ؛ البلاذري فتوح البلدان طبعة القاهرة ١٩٣٢، ٢٢٧.

أمام البصريين خاصة بعد الصراع السياسي الذي أفرزته حرب الجمل الأهلية بل أننا سنجد مدرستين في اللغة تتصارعان مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة، سيبويه والكسائي.

وليس هذا مدعاة للفخر بقدر ما أفرزته المعارك الكبرى والانتصارات الساحقة التي حققتها الجيوش الإسلامية المتقدمة فمعارك مثل الجسر والقادسية واحتلال المدائن ومعارك نهاوند وجلولاء جعلت من الكوفة رقماً صعباً يحسب له ألف حساب وسنجد الكوفيين فيما بعد يتدخلون في كل الشؤون السياسية ويتحكمون بقرارات العاصمة أو يؤثرون فيها بشكل قوي خاصة في حقبة عثمان الخليفة الثالث.

النسيج الاجتماعي.. شيء من التفصيل:

من خلال السياق السابق نعرف أن الشريحة الهامّة والرئيسية لسكان الكوفة هي القبائل العربية المجاهدة والتي خرجت ظافرة من معركة القادسية الحاسمة في معارك الفتح الإسلامي إذ استكملت فتح الأرض العراقية. ولذا فأننا سنشاهد سبع مجاميع قبلية تقتسم جغرافية الكوفة وهو تقسيم عسكري سيبقى معتمداً في توزيع العطاء والغنائم..

ولأسباب كثيرة حدثت تغييرات في نفوذ القبائل فبينما يتنامى نفوذ بعضها يتراجع نفوذ البعض الآخر ويذوب ثم يتلاشى.

حتى إذا تسنم الإمام علي عليه السلام الخلافة واتخذ من هذه المدينة عاصمة كبرى للبلاد حاول دمج القبائل وإلغاء كل ما يفرّق بينها وصهرها في بوتقة

المجتمع الإسلامي المتجانس في الحقوق والواجبات والحدّ من التعصب القبلي والقضاء على عادات من قبيل الثأر والتفاخر القبلي ولكن سيف الخوارج المسموم أوقف السعي الحثيث والمخلص لذلك الإنسان العظيم.

ويأتي بعد العرب الإيرانيون بتشكيلاتهم المتنوعة واليهم يعود الفضل في إضفاء الطابع المدني على الكوفة ومن دونهم تستحيل الكوفة إلى مجرّد قاعدة عسكرية أو ثكنة كبرى للجيوش المقاتلة في الجبهة الشرقية.

والنسيج الإيراني يتألف مما يلي:

الموالي وهم مجموع الشعب الإيراني الذي لم يواجه التقدم الإسلامي بالسلاح ولم يشترك في أية مواجهة أو معركة واعتنق الإسلام بإخلاص.

والموالي سوف يتوزعون ضمن شرائح المجتمع الإسلامي، كما يلي:

أ أسرى الحرب: هؤلاء كانوا عبيداً للفاتحين بحسب قوانين الحرب السائدة آنذاك ولكنهم سوف يستعيدون حريتهم بعد اعتناقهم الإسلام مع بقائهم ملزمين بالولاء للقبائل التي أسرتهم وهذه الشريحة هي التي تنطبق عليها مفردة الموالي بشكلها الحقوقي والقانوني.

ب الفلاحون والقرويون من الذين تهدمت قراهم أثناء الحرب فنزحوا إلى الكوفة للبحث عن عمل في هذه المدينة الناشئة.

ج الحرفيون والصناعيون ويشكلون مجموعة كبيرة جاءت إلى الكوفة وهي تعلم حاجات المدينة التي بدأت تتشكل إلى مختلف الصناعات الحرفية.

ثانياً: الأساورة وهم فرق عسكرية ليست إيرانية شكلها «يزدجرد» وجاء بها من السند أو الباكستان ومعظمهم من الفرسان وقد انضمت إلى هذه الفرق مجاميع من الإيرانيين حتى لم تعد مسألة العرق والقومية ذات بال لديهم.

ويمكن القول انه إلى عقود عديدة ظل العرب سادة الكوفة بالرغم من تنامي عدد السكان من غير العرب ولذا قد يُرى العربي يخرج من بيته وحوله عشرة إلى عشرين رجل من مواليه وأتباعه ولا ننسى ونحن نتحدث عن النسيج الاجتماعي الكوفة إن نشير إلى الهنود النازحين من سومطرا أو الذين اجبروا في زمن الدولة الساسانية على أداء وظائف عسكرية واستخدامهم دروعا بشرية ضد هجمات القراصنة على سواحل إيران الجنوبية. وهؤلاء عوملوا في زمن الفتح نفس معاملة الأساورة وأسندت إليهم مهمات أمنية وقد عرفوا في تاريخ الإسلام بالزط و «السيابجة» وقد قطن بعضهم الكوفة وآخرون اختاروا «ذي قار» وانضم بعضهم إلى الحشود العسكرية التي قادها الإمام علي عليه السلام إلى البصرة لمواجهة التمرد في البصرة سنة ٣٦ هـ فيما عرف بالتاريخ بمعركة الجمل.

وقد اختار الزط التحالف مع بني حنظله ومنهم من استوطن الكوفة واسند إليهم الوالي عثمان بن حنيف حراسة خزائن الدولة وتعرضوا لمذبحة مروعة على يد عبد الله بن الزبير الذي نفذ غارة ليلية غادرة تم فيها قتل أربعين مع قائدهم وكان رجلاً معروفاً بالصلاح [1].

١. فتوح البلدان: ٥٢٣.

وبالرغم من تحالف بعض الهنود هؤلاء مع قبائل تميم التي عادت الإمام علي ولكنهم اختاروا جبهة الإمام في الصراع[1]. ولعل هذا دفع معاوية إلى ترحيل مجاميع منهم إلى سواحل الشام ليصد بهم الغارات الرومية ويكوّن منهم درعاً بشرياً.

دور الكوفة السياسي:

يمكن تشبيه العمل العسكري في عالم النفوذ والقوة بالعمل الزراعي الذي سيفرز فيما بعد أو في الإثناء عملاً سياسياً وموسم الحصاد والامتيازات والأدوار الفاعلة في مسار العمل السياسي.

وقد تألقت الكوفة في زمن الفتوحات الإسلامية وبلغت ذروة المجد، ليس في التقدم في الجبهة الشرقية وإنّما في إغاثة وإمداد الجبهة الشمالية الغربية في معارك الروم.

ويحق للكوفة إذن وقد قضت على دولة الساسانيين في الشرق وأمدت القوات الإسلامية التي تقاتل في الغرب برجالها الأشداء لتحقيق انتصار ساحق في تحرير مناطق شاسعة سيطرة الروم اليزنطيين يحق لها أن تزهو بنفسها ويكون لها في نفوس الجميع هيبة وشأناً كبيرين.

وقد أدت الفتوحات الواسعة وانفتاح القبائل العربية على كنوز إيران الأسطورية وتدفق سيل الغنائم إلى خلق طبقة مترفة عرفت باسم «الأشراف» الذين ارتبطوا مصلحياً باستمرار حركة الفتوح ووجود نظام يحمي مصالحهم

١. تاريخ الطبري حوادث سنة ٣٦ هـ.

بالرغم من أنها منحتهم ثقلاً سياسياً جعلت للكوفة حقاً كما تتصور في التدخل في شؤون العاصمة كما تجلى ذلك في الثورة على الخليفة الثالث. ومن مظاهر هذا الثقل العسكري والسياسي إنها حسمت تمرد الناكثين في البصرة كفعل إيجابي لكنها هي نفسها خلقت كارثة التحكيم، بعد أن وجهت كل ضغطها على الأمام علي في حرب صفين واضطرته إلى وقف العمليات الحربية بينما كانت قوات الشرعية تتقدم نحو النصر النهائي بخطى واسعة.

وبالرغم من أن الكوفة عرفت في زمن مبكر بأنها مركز للتشيع لكنها انطوت على مجموعة من التناقضات التي تصعد بها إلى ذروة المجد وتهبط بها إلى حضيض الانحطاط.

فقد قضت كما ذكرنا على تمرد الناكثين في البصرة ولكنها خلقت كارثة التحكيم في صفين، ثم اضطرت الإمام الحسن فيها بعد إلى التنازل عن الخلافة وأعقب ذلك مأساة عاشوراء ومصرع الإمام الحسين، ثم نجد صحوة للضمير وعودة للإرادة في واقعة عين الوردة فيما عرف في التاريخ بثورة التوابين ثم جاءت ثورة المختار.

وهذه المواقف المتناقضة تعود في الحقيقة إلى طبيعة النسيج العام الذي يؤلف مجتمع الكوفة.

فهي بشكل عام نسيج قبلي وبسبب بعض الحوادث ظهرت تيارات سياسية ومذهبية فإذا كانت البصرة عثمانية الولاء فإنّ الكوفة عرفت بولائها لأهل البيت خاصة بعد قدوم الإمام علي خليفة واتخاذها عاصمة للدولة

الإسلامية ثم ظهر تيار الخوارج في مقابل كتلة الأشراف الذي ارتبطوا بسبب مصالحهم بالاتجاه الأموي فيما تألقت شريحة قوية في مجتمع الكوفة بسبب ولائها لأهل البيت.

وسنجد أن صوتين قويين يرتفعان في الكوفة بنفس الوقت صوت يمجد أهل البيت وآخر يتحمس لقتلهم وبسبب هذا التناقض في الاتجاه والتفكير، تمزق النسيج العام للكوفة.

وهذه التشكيلة اللامتجانسة هي التي جعلت مواقف الكوفة تتذبذب بين السلبية والإيجابية إذ تبرز في بعض المقاطع التاريخية أبية شامخة وفي بعض منعطفات التاريخ خائفة ذليلة فهي ليست راهبة قديسة ولا غانية لعوب وإنّما جعلتها الأقدار مرآة يتجلى فيها سمو الإنسان وتسافله.. عروجه إلى ذرى المجد وسقوطه في هاوية الذل والخنوع. مع أن الظروف التاريخية مثلاً أثرت في تغيير ولاء جارتها البصرة التي تتقاسم معها العراق.

اذن فقد عرفت الكوفة مركزاً من مراكز التشيع، بالرغم من عصف الظروف المريرة، مع التأكيد على نقطة حيوية وهي أن التشيع الذي طبع الكوفة كان سياسياً إلى حد كبير وفي هذا اختلاف عن التشيع الذي ينظر إلى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام أئمة ارتضاهم الله قادة للناس بعد النبي صلى الله عليه وآله.

نتوقف عند هذا القدر لنسجل إن الكوفة مدينة ولدت في مثل هذه الظروف التاريخية وسوف نكتشفها أكثر فأكثر لدى البدء بفصول الحوادث المزلزلة التي وصلت ذروتها في الثورة على عثمان؛ سننطلق إلى المدينة

المنورة ونحاول من هناك متابعة ما يمكن متابعته لرسم صورة واضحة لقصة الحرب والسلام مع الالتفات إلى ضرورة تكوين ملامح عن شخصية إنسان ولد مع موعد مع القدر سيقف فيه وحيداً مقهوراً في ليالٍ دامسة من تاريخ الإسلام.. ليالي شهدت عواصف شديدة من الأطماع والخنوع والانشداد إلى دنيا تافهة لا تساوي حذاءً متهرئاً في نظر الأحرار[1].

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. الإمام علي: ما قيمة هذه الفعل؟ عبد الله بن عباس: لا قيمة لها!
الإمام علي عليه السلام: والله لهي أحب الي من إمرتكم (السلطة) إلّا أن أقيم حقاً، أو ادفع باطلاً، نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

الإمام علي.. رمز الإسلام المضطهد[1]

أنّه من الصعوبة بمكان أن يحاول القلم أيُّ قلم أن يتحرك مستكشفاً علياً بأبعاده الواسعة وتجربته الإنسانية الخالدة التي فجّرتها ظروف متغيرة لكنّها أفرزت تجربة مطلقة وملهمة.

وتبقى الكتابة في حياة هذا الكبير رحلةً في ضفاف بحر لانهائي لأنّ عليّاً التحم بالمطلق التحام النهر بالبحر والنور بمصدر النور.. وعلي الذي خرج من جوف الكعبة في مشهد لا يقل برقياً عن مشهد مريم ابنة عمران يوم جاءت تحمل عيسى وقد اشتد بها المخاض عند جذع النخلة.

ومن الكعبة صدفة مكة خرجت لؤلؤة المجد الإنساني لتستقر بين كفي محمد الذي كان يومها في الثلاثين من عمره المضيء.

وكان محمد أحلى الأسماء التي تطرق أُذن علي وهو يتفتح على الحياة ويبدأ تجربته الإنسانية الخالدة.

وقدّر لعلي الذي كان يترسّم خطى محمد أن يكون صورة مصغرة للمثال الأسمى للإنسانية عبر تاريخها الطويل..

وقد وصف عليّ نفسه وهو يتحدث عن ذكرياته مع معلّمه بالفصيل الذي يتّبع أثر أمّه..

وكان يرافقه حتى في تأملاته في جبل حراء.. وكان يتشرّب خلقاً سماوياً

---

١. قال النبي ﷺ: يا علي أنت المظلوم والمضطهد بعدي.

يشعّ من حركات محمد وسكناته، ما جعله يرى بوضوح حقائق العالم. فوعى علي كل التحوّلات الروحية لابن عمه العظيم وأضحى مرآة صافية تنعكس فيها أخلاق مربّيه العظيم.

وعندما هتف الملاك:

يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل..

سمع علي رنّة يأس تشبه فحيح الأفاعي فتساءل:

يا رسول الله ما هذه الرنّة؟

وجاء الجواب:

هذا الشيطان قد أيس من عبادته.

وألقى نظرة حب على أخيه الصغير قائلاً:

إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى..

ومن هنا فإن الحديث عن محمد يكون حديثاً عن علي، والحديث عن علي سيكون منطبقاً على معلّمه، فكلاهما من نفس واحدة مندمجة في بعضها اندماج الهواء بالهواء والشعاع بالضياء[1].

راية حب

لنتصفح أوراق التاريخ ولنتوقف أمام قلاع خيبر وحصونها .. هناك ارتفعت

١. «أنا وعلي من شجرة واحدة وسائر الناس من شجر شتى» حديث شريف.

للحب الإلهي راية خالدة خفقت في كف علي.

فقد ظلت خيبر تمثل تهديداً خطيراً للوجود الإسلامي، وكان سيدنا محمد ﷺ يراقب عن كثب التحركات اليهودية المشبوهة لتحريض القبائل العربية ضد الإسلام وكيانه الجديد، سيما قبائل غطفان التي عادة ما كانت تستجيب بسبب الأطماع في السلب والنهب.

وتنامى الخطر اليهودي بعد توقيع معاهدة سلام بين المسلمين وقريش بما عرف في التاريخ ب «صلح الحديبية»، وقد فسّرت تلك المعاهدة على أنها شكل من أشكال التراجع والضعف للإسلام.

وفي صفر من السنة السابعة للهجرة تحرّك جيش الإسلام المؤلف من (١٤٠٠) مقاتل صوب الحصون اليهودية المنيعة، واندفع الجيش الإسلامي من خلال قرار قيادته إلى الطريق المؤدية من خيبر إلى مضارب غطفان للحؤول دون أي تنسيق بينهما أو وصول إمدادات عسكرية.

وبالرغم من عنصر المفاجأة الذي وفّره النبي ﷺ إلا أنّ مناعة الحصون والقلاع اليهودية حالت دون سقوطها رغم تشديد حلقة الحصار.

وكانت الجزيرة العربية تراقب باهتمام الصراع المصيري، خاصة قريش التي كانت تتمنى أن تدور الدائرة على المسلمين.

وقد أخفقت الحملات الإسلامية المتكررة في تحقيق تقدم يذكر، وطالت مدّة الحصار، وقاربت المؤن على النفاد، وراح اليهود يسخرون من المسلمين!

هنالك هتف النبي صلى الله عليه وآله بلهجة يشوبها غضب مقدس:

لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله.

وتلك هي راية الحب الأزلي التي يصرّح بها آخر الأنبياء لإنسان تفتحت روحه على ينابيع السماء فتشرّب منها وظهر إلى الوجود إنسان كامل هو علي.

فشخصية علي هي نتاج الانصهار الكامل في تجربة الإسلام التي تقود الإنسان إلى أن يكون الهيّاً سماوياً.

فإذا كانت التجارب الأُخرى تسحق الإنسان وتهبط به إلى ما هو أدنى من الذباب، أو تحاول الارتفاع به لتجعل منه إلهاً يرتكب الخطايا دون وازع بعد أن فسّرت كل المتألقات في أعماقه تفسيرات مادية مثقلة بالطين والأدران، فإنّ مجد الإسلام ينهض على معرفة الإنسان معرفة دقيقة أو من خلال هذه المعرفة يتحقق مشروع الإنسان الإلهي وليس مشروع الإنسان الإله.

ومن لطف السماء أن قدمت لنا تجربة رائعة أخاذة تمثلت في علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولكن من أين يتأتى لنا أن نفهم عليّاً؟! إنّ شخصية الإمام علي ترسو فوق ثلاثة دعائم أو تشتمل على ثلاثة أبعاد:

الأول: البعد الروحي بما ينطوي عليه من مخزون هائل يرتفع به إلى مقولته الشهيرة: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

الثاني: البعد العقلي الذي وصل به القول أن يخاطب الإنسانية ولأول مرة

في التاريخ بل ولآخر مرة أيضاً قائلاً: سلوني قبل أن تفقدوني؟!

والبعد الأخلاقي: الذي جعل منه إنساناً مثالياً حيّر بعض العقول التي غفلت عن مصدر النور فقال له بعضهم:

أنت أنت..

فعلي هو من بلغت إنسانيته أن يصنّف الناس جميعاً إلى صنفين: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.

والمخزون الروحي الذي انطوى عليه علي عليه السلام يستحيل سبر أغواره وسوف تضيع العقول ويكلّ الخيال البشري الوثاب من الإحاطة به ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا.

وهذا المخزون اللانهائي هو ما جعل عليّاً يهتف يوم هوى شهيداً: فزت ورب الكعبة.

في اللحظة التي هوى فيها السيف الشيطاني المسموم ليغتال ذو الفقار بدأت ملحمة التجلي لعلي التي عبر عنها بنفسه قائلاً: «غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفوني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي».

فتلك القدرات الروحية التي اشتمل عليها الإمام، هي التي أهلته فيما بعد إلى صياغة بعديه الآخرين العقلي والأخلاقي، وبعده العقلي يكاد ينطوي على الوجود بأسره: «سلوني عن طرق السماء أعرف بها من طرق الأرض».

فالتشيع لعلي أو التشيع العلوي يأتي في الدرجة الأولى في الكشف عن

آثار علي وخطاه في بعده الأخلاقي وهو وحده الضمان في المسير على الطريق المستقيم، فالاستقامة هي من أصعب المسارات في عالم يعيش في مهب العواصف والأعاصير.. عواصف الزمن وأعاصير الفتن.

فما هي أدوات اكتشاف البعد الأخلاقي في تجربة علي وهي تجربة أدت إلى نتائج مطلقة وخالدة؟

فإذا كانت معجزة القرآن بقاؤه غضّاً طرياً كما عبر عن ذلك الإمام الهادي عليه السلام فالقرآن لا يبلى والقرآن يخاطب كل العصور، وفي كل عصر يشعر الإنسان أنه قد نزل توّاً فلا الأيام والأجيال وتعاقب أعمدة القرون يمكنها أن تؤثر ولو يسيراً على جدّة القرآن وطراوته وتدفقه بالحياة.

فكذلك تجربة علي التي تألقت في حوادث تاريخية لها ظروفها لكنها كشفت عن حقائق خالدة تشعّ بالإلهام والتأثير الإنساني الخالد، فإذا نحن أمام مثال أخلاقي رفيع خلب الإنسانية على مرّ العصور.

وما أروع ما عبر عنه الكاتب جرداق: بصوت العدالة والإنسانية، ولأننا عندما نحاول الحديث في هذا الميدان سنجد أنفسنا في رحلة وتطواف في عالم النفس الفسيح وهو عالم لا يضاهي عالم الوجود فحسب بل ويتجاوزه، وقد أشار الإمام نفسه إلى هذه الحقيقة في قوله عليه السلام: «وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر»، إننا أمام معالم تؤلف عالم الإنسان النفسي، وسنجد أنفسنا معترفين بها اعترافاً لا يشوبه تردد، فالإنسان ينطوي على ما يلي:

الفطرة: التي هي مستودع السرّ الإلهي بما يجسّد الآدمية والهوية والبشرية.

العقل: كمركز للتفكير المنطقي ودائرة المحاسبات ومخزون المسلّمات والبديهيات.

القلب: كمركز للعاطفة والجزء النابض الذي يتلقى الإشراق والوعي.

الضمير: الذي يمثل القانون الأخلاقي المودع في ذات البشر.

الأهواء النفسية: التي تمثل الطاقة الكامنة في الإنسان وهي خاضعة لمعادلة أخلاقية ترشّدها سلباً أو إيجاباً، فهي أشبه بالطاقة الذرية الكامنة في كتلة المادة حيث يمكن توجيهها في أطار مفاعل نووي لإنتاج الكهرباء أو في صناعة قنبلة ذرية للتدمير والفناء.

الطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

والمشكلة تكمن في التعامل الواعي مع هذه الطاقة فقد عدّها بعضهم بلاءً على الإنسان فجنحوا إلى التصوّف إلغاءً لها وقضاء عليها، فيما نراها الأهواء لدى آخرين تتسلل إلى مركز القيادة واحتلاله، ومن ثم قيادة الإنسان وفق ميولها وجموحها.. يقول الإمام علي عليه السلام: «كم من عقل أسير تحت هوىً أمير».

وهنا نرى علياً عليه السلام يضع هذه الطاقات في مكانها الحقيقي في تجربة فريدة من الحب الإلهي العميق، حيث تأخذ حركة الإنسان إلى المطلق اتساقاً وهدفية وانتظاماً يحقق الطمأنينة والسلام؛ فالأهواء النفسية من خصائص الإنسان بشرط الاعتراف بها كطاقات خاضعة لمعادلة أخلاقية.

وفي هذه المنطقة نجد التأرجح في فهم الزهد: فهناك ابتعاد عن الحياة

وجنوح إلى الانزواء، وهناك في الطرف المقابل امتلاك للحياة وتحرّر من العبودية للمادة والدنيا.

يقول الإمام الشهيد محمد باقر الصدر: «المسلمون الذين يمارسون أعمار الأرض بوصفها جزءً من السماء يتطلّعون إليها ويسهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن الزهد السلبي الذي يبعد الإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى الزهد الإيجابي الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيداً، ويحصّنهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين»[1].

ولهذا نصاب بالدهشة لأننا نتصور علياً وهو يجمع الأضداد في شخصيته «جمعت في صفاتك الأضداد» فبينا هو محارب باسل يخترق خطوط الجيوش المعادية ويبدو ذو الفقار في كفه صواعق وسط غبار المعارك، إذا به يكاد يذوب رقة وصوته الحزين يدور بين باسقات النخيل في قلب الليل البهيم مناجياً:

مولاي يا مولاي! أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلا المولى؟!

مولاي يا مولاي: أنت الدائم وأنا الزائل وهل يرحم الزائل إلا الدائم؟!

مولاي يا مولاي أنت الدليل وأنا المتحيّر، وهل يرحم المتحيّر إلا الدليل؟!

وهذه كلمات منقوعة بالحب الإلهي لإنسان عاش في قلب الأحداث،

---

١. الإسلام يقود الحياة.

حمل السلاح وقد ناهز العشرين وأمضى عمره في حروب متتالية دفاعاً عن كلمة الإسلام وكرامة الإنسان، إلى أن هوى شهيداً فيما كان يستعد لخوض حرب مصيرية لتصحيح المسار التاريخي لحضارة الإسلام.

وقد تعيننا فلسفة ملا صدرا وأسفاره الروحية الكبرى[1] في فهم وإدراك جانب من المنهج الأخلاقي ومنابعه في شخصية إمامنا وسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأهم ما حققه الفيلسوف الكبير هو تجربته الرائدة في إعادة تنظيم نظرية الوجود انطلاقاً من رؤية شاملة وبنائه الفلسفي المتكامل، إذ نجد معالجة مبتكرة لهذه النظرية وإرساء لدعائم التوازن في المعرفة، فلا هو إشراقي يسدّ منافذ المعرفة المشائية، ولا هو مشائي يعرض عن الإشراق في كسبها، فهو مشائي في إشراقيته، وإشراقي في مشائيته.. ذلك انه يرى المعرفة تحصل بطريقين:

غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. الأسفار الأربعة هي مجموعة آثار الفيلسوف الإسلامي الكبير محمد بن إبراهيم المعروف بـ«صدر المتألهين»، ولد في شيراز سنة ٩٧٩ ه وتوفي في مدينة البصرة وهو في طريقه إلى الحج سنة ١٠٥٠ ه تلقى علوم الدين على يد أستاذه الشيخ بهاء الدين العاملي في أصفهان وأخذ دروسه الفلسفية من أحد ابرز فلاسفة الإشراق في عصره: السيد محمد باقر ميرداماد، ظهرت لديه ميول عرفانية سببت له مضايقات كثيرة، فقرر العزلة وهاجر إلى قرية «كهك» في ضواحي مدينة قم ليسكن في ذروة جبل. وهناك ألف كتابه الخالد: الأسفار العقلية الأربعة والتي يقول فيها: «واعلم ان للسلاّك (السالكين) من العرفاء والأولياء أسفاراً أربعة: أحدها السفر من الخلق إلى الحق، وثانيها السفر بالحق في الحق، والسفر الثالث يقابل الأول لأنه من الحق إلى الخلق بالحق، والرابع يقابل الثاني من وجه لأنه بالحق في الخلق فرتبت كتابي هذا طبق حركاتهم في الأنوار والآثار على أربعة اسفار».

الأول: البحث والتعلم الذي يستند على المقدمات المنطقية.

الثاني: العلم اللدني الذي يحصل بعد ترويض النفس وضبطها، والخلاص من أدران الدنيا فتتجلى مرآتها وتنعكس عليها صور حقائق الأشياء كما هي.

وبهذا يكون انتهج طريقاً ثالثاً ورائداً ابتعد به عن شطحات الصوفية وجمود المتفلسفين.

ومن المؤكد أنّ التعرّف على مبادئ هذه الأسفار سوف يعيننا على تفهم ووعي المثال الإنساني الفريد في تجربة إمامنا علي عليه السلام.

فالإمام علي تربى في ظلال النبي صلى الله عليه وآله آخر الأنبياء في تاريخ الإنسانية، ولهذا نراه يعي بدقة متناهية فاجعة رحيله صلى الله عليه وآله فقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك». لأن انقطاع منابع الروح من معينها السماوي المتدفق سوف يؤدي إلى ظهور أزمة أخلاقية.

ولهذا فان القرآن رسالة الله خالدة وهو الكتاب الخالد الغضّ الطري المتجدد والذي لا يمسه إلا المطهرون أي لا يسبر معانيه سوى أفراد منتخبين من قبل الله هم أوصياء الرسول.

من هنا نفهم كلمات الإمام علي عليه السلام الذي قاتل بعد النبي صلى الله عليه وآله ليس على تنزيل القرآن بل على تأويله.

فالمشكلة الأخلاقية تكاد تؤلف جوهر الرسالات الإلهية وقد قال نبينا صلى الله عليه وآله: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

فالديـن لا يصنـع قيمـة أخلاقية إنّمـا ينمّيهـا ويجذّرها ويرشّـدها لأن منبع الدين مستقل عن منبع الأخلاق.

فقد نجد إنساناً ملتزماً دينياً ويؤدي طقوس العبادة لكننا نجد لديه صفات أخلاقية فيها خلل ما، وقد نجد العكس تماماً. وقد جاء في الأثر: أنّ الإيمان قد يجتمع مع الجُبن ومع البخل ولكن من المستحيل جمعه مع الكذب.

والإنسـان الإلهي هو من يندمج لديه منبعا الدين والأخلاق فيؤلّفان نهراً من الحـب الإلهـي يتدفق رحمة في مواطـن الرحمة والرقة، ويتفجر غضباً مقدسـاً فـي مواقـع تتطلب الثورة والحرب. وسـنجد ذلك متجليّاً في مشـهد من حياة نجل الإمام علي الحسين الشهيد.

فبينا هو يقف خاشعاً فوق سفوح عرفات ويمدّ يده باتجاه الكعبة الشريفة، كمـا يمـد المسـاكين أيديهم وهذا مـا أثبته التاريـخ، نراه يقطـع حجّه وينطلق صوب مدينة الكوفة لأن أهلها يستغيثون به من أجل الخلاص، وفي رمال تلك الصحـراء عـلى شـطان الفـرات يهتـف: «هيهات منـا الذلّة يـأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون».

أليسـت هـذه الصرخة امتـداد لصرخـة والده العظيـم على شـاطئ الفرات أيضاً ولكن بصفين، عندما يخاطب جنوده وقد حوصر جيشه ليموت عطشا: «روّوا السيوف من الدماء تروا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين».

ونعـود إلى مشـهد الحسـين فـوق جبل عرفـات متجهـاً ببصره إلى السـماء

قائلاً: «كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟»

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك».

ثم تصل به ذروة الحب فيهتف:

ماذا فقد من وجدك؟!

وماذا وجد من فقدك؟!

وسنجد الحسين في عاشوراء يقطع الخطوة الأخيرة في الرحيل إلى الله وبلوغ الدرجة التي يبشره بها جدّه قائلاً: إنّ لك درجة مغشّاةً بنور الله لا تبلغها إلا بالشهادة.

وبأدوات الفلسفة الصدرية أنها آخر خطوة في السفر الرابع والأخير؛ وهو السفر بالحق في الخلق ولعلنا ندرك كلمات سيد شهداء التاريخ والإنسانية:

«تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا»..

وهي كذلك أصداء لكلمات والده العظيم: «فزت ورب الكعبة» وكلاهما تستقيان من كلمات معلّم الإنسانية سيدنا محمد ﷺ في أنفاس ما قبل الرحيل: «بل الرفيق الأعلى!».

اتحاد العقل والقلب

لـم يكتسـب كلام علـي عليه السلام بلاغتـه لمجـرّد الإيقـاع السـاحر الـذي يرسـم لوحـات فنية أخاذة بل أنّ معينها الحقيقي يأتي من وعي كامل لحركة الوجود وغائية الخلق، واكتشاف هدفية الحياة.

فاندفاع علي الهجومي واستبسـاله واستخفافه بالموت وشجاعته الفريدة، تنبـع من نفس المعيـن الذي يفجّر دموعه في قلب الليـل، ومن نفس المعين الذي صنع من قبضته الفولاذية لتطيح بأقوى القلاع، وهي ذاتها القبضة التي تستحيل إلى كف دافئة تمسح على رؤوس اليتامى وتطعمهم العسل.

وهـو ذات المعيـن الإلهـي الذي صنـع من حركة علـي اسـتقامة بالرغم من هبوب الأعاصير فنسمعه يقول: «ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا هنت»..

هـذا المعيـن الذي جعـل حتى من كلامه فـوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالـق، فنهـج البلاغـة ما كان ليتخذ مكانـه في درجة أقل مـن القرآن إلّا لأن علياً كان يتشرّب كلام الله آية آية بل كلمة كلمة وحرفاً حرفاً.. فتشتعل المعاني في أعماقه المضطرمة بالحب الإلهي وتتألق الحقائق.

وانطلاقاً من هنا تكون فكرة التفكيك في استكشـاف شـخصية الإمام علي ناقصـة دوماً لان علياً عليه السلام يمثل وحدة مندكة في كل أبعادها حتى ليسـتحيل التفكيك بين الأخلاقي والسياسي والعسكري والفكري في شخصيته.

فعلـي بن أبي طالب عليه السلام ليس فيلسـوفاً أو حكيماً يتأمّل موكب الحياة عن بعد ثم يصوغ كلماته وحكمه وأمثاله.. إنّما هو إنسـان اندك في تجربة إنسـانية مثيرة وكان مركز الإعصار، وما يزال تاريخه مشعّاً ملهماً وزاخراً بالعطاء الخالد.

أزمتنا[1]

ليس هناك من ينكر في أن الوجود العراقي في المنافي وخاصة في جمهورية إيران الإسلامية يواجه صوراً متعددة لمشكلات معقدة، وقد يراها الذين يهتمون بالشأن السياسي سياسية فينطلقون إلى التحليل والتنظير سواء في دوائر دولية أو إقليمية أو أضيق بكثير، فيما يراها ذو الحس الاقتصادي بأنها مشكلات ناجمة عن الفقر والبطالة وقد ينصحون بأن يساعد الأغنياء الفقراء، ويراها الحوزويون مشكلة في التبليغ ولهذا تنبع الحاجة إلى تكثيف العمل التبليغي وإرسال المزيد من المبلغين هنا وهناك؛ ويراها المثقفون جهلاً وتخلفاً عن مسيرة الفكر العالمي، فنراهم يلهثون وراء التعرّف على الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة والكوننة..

ثم تطالعنا مشاهد المخيمات مخيمات اللاجئين فتحرج الجميع وتفجّر الدموع.. فما هي أزمتنا الحقيقية؟!

إنّ الإجابة قد لا تكون يسيرة وقد نوفق في معرفة الداء، ولكن من يضمن لنا اكتشاف الدواء ومن يكفل لنا الإيمان والثقة فيه؟!

وحتى لا نبتعد من جوهر السؤال الأول في استكشاف جوهر الأزمة وهويتها نتساءل: هل نحن فعلاً في قبال أزمة سياسية أم أننا نواجه أزمة فكرية؟ إنّ استقصاءً للتنظير الفكري والسياسي يقود إلى نفي وجود مثل هذه الأزمة، بل

---

١. يعود تاريخ هذه المقالة إلى التسعينات من القرن الماضي ورأيت عدم اجراء تعديلات لتحتفظ بزخمها التاريخي.

إن التحليل سيثبت إن مشكلات السياسة والفكر ناجمة جميعاً عن مشكلة أعقد وأبعدكما هي حالة المريض الذي يعاني الحمى فالحمى ليست هي مرضة، وإنّما هي ناجمة نزلة برد مثلاً وعن فيروس ساعدته الظروف على التسلل والانتشار وخلق حالة مرضية.

إنّ أزمتنا الحقيقية هي أزمة أخلاقية، فنحن تشرّبنا ثقافة لا تنسجم مع القرآن ونهج البلاغة وقد تتناقض معه أحياناً.

هناك فاصلة خطيرة تفصلنا حكاماً ومحكومين عن ثقافة النهج العلوي، وهذا يعني أنّنا بحاجة إلى محاولة شجاعة لنقد الذات.

فالإمام علي عليه السلام لم يكن يجامل أحداً عندما طالب بالخلافة سنة ١١ هـ ثم إذا به يرفضها سنة ٣٥ هـ.

فإلى جانب استيائه من أداء الحكام في عصره وابتعادهم عن النظريات المؤسسة التي أرست دعائم المجتمع الإسلامي كان متحفظاً أيضاً على أداء الجماهير ومقولته في مسألة عثمان تؤكد ذلك بجلاء:

«إنّ عثمان استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع» وتحفظه على الأداء الشعبي هو الذي جعله يرفض في البداية تصدّيه لمسألة الحكم إلا بعد إصرار لا نظير له.

وعندما تصدّى لمسؤوليته أعلن انه سوف لن يصغي لصوت سوى صوت الحق والعدالة.

ولكن صوت الجهل كان قوياً بحيث اضطرّ الإمام في صفين إلى أن يسكت مع إعلان تحفظه الشديد، ولكن المجتمع الإسلامي كان يعيش حالة مؤسفة من السطحية جعلت منه على استعداد كامل للخداع بالذئب الذي يرتدي زيّ الراعي.

والإمام لم يفاجأ بهذه النتائج الكارثية التي أدّت فيما بعد إلى وصول معاوية إلى مركز الخلافة، لأنه كان يتطلع إلى الغد:

غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفوني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي.

فالإمام الذي خاطب الجماهير يوم تهافتت على بيعته قائلاً:

دعوني والتمسوا غيري؟!

ليس على أساس منح الشرعية للانتخاب البشري إنّما هو إقرار بأنها تملك من المخزون النفسي والإرادة ما يمكنها من تحقيق أهدافها حتى لو كانت مخدوعة وخاطئة ومستغفلة.

ولأن ما يهم الإمام هو التغيّرات الجوهرية في قناعات الناس وعقائدها الحقيقية ومنحها فرصة الاحتراق بالتجارب المريرة لزيادة الوعي وترشيد الإرادة.

ومن هنا نؤكد على الوعي، إنّ مشكلتنا ليست في إطار سياسي ولا في إطار فكري و إنّما يجب بحثها في مجموع المنظومة الأخلاقية الراسخة في طريقة

تفكيرنا ورؤيتنا ومعاييرنا فالتغيرات الداخلية ستؤدي بالضرورة إلى تغيرات خارجية.

والإمام علي يؤكد بأن العالم الأكبر ينطوي داخل عالم النفس:

«وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر».

ما من أحد يشك في خطأ سياسة عثمان التي ابتعدت به عن روح الإسلام ورسالته فسادت قيم غريبة خلقت حالة من الاحتقان السياسي والتوتر لم يستطع الإمام بحكم ظروفه من فعل شيء يحول دون الانفجار القادم.

فسياسة عثمان حولت مؤسسات الحكم الإسلامية إلى أجهزة تعزز من قدراته ونفوذه وثرائه، ولكن طريقة معالجة الوضع الشاذ لم تكن هي الأخرى تنطوي على برنامج يعي التغيرات الداخلية، ولهذا نرى ظهور تيار سطحي جداً سيطر على طريقة التفكير وظهر دوره الكارثي في صفين بينما قوّات الشرعية تتقدم نحو النصر النهائي بخطى واثقة.

ولا نجد وقفة واعية للتاريخ بمستوى وقفة المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي الذي اعتبر فيها نتائج صفين بداية السقوط الحضاري والذي قاد المجتمع الإسلامي فيما بعد إلى الخضوع للهيمنة الاستعمارية[1].

كما عدّها الشهيد الصدر أعظم مأساة في تاريخ الإسلام، ويمكن أن نفيد من تجربتنا المعاصرة في انتخاب الإمام الشهيد الصدر للاستشهاد طريقاً

١. راجع الفكرة الافريقية الآسيوية، مالك بن نبي.

للتحرير، والذين يستمعون إلى محاضرته الأخيرة في حبّ الدنيا يدركون أن الشهيد يؤكد أنّ حب الحياة وإيثار الدنيا سوف يدمر مسار التحرر.

ربما نحمل في أعماقنا قناعة فلسفية عن الإيمان بالله سبحانه لكن الإيمان الفلسفي لا يعد كافياً ما لم يندمج بالضمير والوجدان. لأن حركتنا يرسمها الوجدان، فنحن نعيش حالة من الاستلاب في قناعات فلسفية لا تفرز مساراً ينسجم معها، لأن قوّة الأفكار المضادّة تغطي عليها وتحول دون تجذرها في القلب.

وقد تحدثنا في مطلع المقال عن الأهواء التي تتعدى حدودها كطاقة كامنة خاضعة لمعادلة أخلاقية في اتجاه إيجابي أو سلبي ومحاولاتها لاغتصاب قيادة الإنسان وتجربته.

محاولات تطبيقية

لنجرب هنا إجراء تطبيق على تصنيفنا الاجتماعي من خلال هذا النص.

إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود يُعدّ فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم عتوّاً، ولا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عمّا جهلنا، ولا نتخوف قارعة تحلّ بنا فالناس على أربعة أصناف:

منهم من لا يمنعهم الفساد إلا مهانة نفسه وكلالة حدّه، ونضيض وفره[1]. ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشرّه.. قد اشرط نفسه وأوبق دينه لحطام

١. افتقاد وسائل وأدوات تحقيق الهدف كالمال والسلاح.

ينتهزه ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً.. ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا: قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.

ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله فتحلّى باسم القناعة وتزيّن بلباس أهل الزهادة!

وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نادّ وخائف مقموع وساكت مكعوم وداع مخلص وثكلان موجع، قد أخملتهم التقيّة وشملتهم الذلة، وقد وَعَظوا حتى مُلّوا وقُهروا حتى ذلّوا وقُتلوا حتى قلّوا.

فاتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يُتّعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم[1].

ونرى التساوق في هذا النص يتجه في تحليل موضوع بصورة غير مباشرة من خلال تصنيف سلوكي للناس، لأن السلوك ينطلق من درجات معرفية مستقرة في الوجدان سواء كان مصدرها أهواء متسللة إلى مركز القيادة أو بقاء العقل قلعة تحافظ على استقلالها يعززها القانون الأخلاقي المودع في الضمير الحرّ، ومن هنا يوجه الإمام ضربته قائلاً: ارفضوها ذميمة..

دون أن يصرّح باسمها. لكنها لا تخفى على المخاطب الواعي.

١. روائع نهج البلاغة: ١٨٦.

وسنرى إن هذا التصنيف العميق يمكن تطبيقه بشكل مذهل على توزيعنا الاجتماعي في الوقت الحاضر.

فهناك قسم منا طموح إلى النفوذ لكنه لا يجد الوسائل والأدوات فيما نرى قسماً آخر يمتلك هذه الوسائل وقد تربع على وسائل السلطة يبيع نفسه من أجل الدنيا: «وما جدوى أن يربح الإنسان العالم كله ويخسر نفسه».

وما أعمقها من دلالة في ملاحظة الإمام وقوله: ولبئس المتجر أن ترى الدنيا ثمناً لنفسك.

ثم يحدد الإمام الصنف الثالث في الذين يطلبون الدنيا بوسائل دينية بينما الإنسان مطالب بعكس تلك المعادلة المقلوبة، فتراه متحلياً باسم القناعة متزيناً بلباس الزهادة!!

وما يهمنا هو الصنف الرابع الذي أشار إليه الإمام وكشف عن محنته ومعاناته.

وقراءة اجتماعية واعية ستقودنا إلى اكتشاف نماذج متألقة يُعوّل عليها في أي مشروع إنقاذي مما نحن فيه من وضع كارثي.

فالإمام علي كثيراً ما يؤكد على التحذير من حب الدنيا بل ويصل به الأمر إلى تمجيد تجربة السيد المسيح: وإن شئت قلت في عيسى بن مريم فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامة الجوع وسراجه بالليل القمر.

وهذه التأكيدات تأتي لإدانة التهافت على حطام الدنيا والانحراف بمسيرة

الإنسان، فإذا كان المسار الإنساني لحالتنا يتخذ ظاهرياً مساراً جهادياً فيما هو مثقل بحب الدنيا، فإنّ هذا يؤكد حالة مقلقة من الازدواجية.

ويحدد لنا الإمام منهجاً لاكتشاف مؤهلات ومقدمات القيادة المنقذة لنجدها مركزة في حديثه مع همام قائلاً:

فمن علامة أحدهم أنك ترى له حزماً في لين، وإيماناً في يقين، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمّلاً في فاقة وصبراً في شدة ونشاطاً في هدى، وتحرّجاً عن طمع. يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، الخير منه مأمول والشر منه مأمون..

يعفو عمّن ظلمه ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه ليّناً قوله، حاضراً معروفه..

لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه. لا ينابز بالألقاب، ولا يُضارّ بالجار، ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق.

نفسه منه في عناء والناس منه في راحة.

بعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوّه ممّن دنا منه لين ورحمة.

«ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوّه بمكر وخدعة».

إنّ من أصعب الأمور هو استكشاف الحقائق الاجتماعية، والمعايير التي يمكن الاستناد إليها في التطبيق.

ولأن أديباتنا تؤكد بأن أئمتنا جميعاً ليسوا تجارب تاريخية لها ظروفها الخاصة وإنّما هم تجارب متنوعة ومطلقة ليس لأنهم أئمة افترض الله طاعتهم فحسب بل إن تجاربهم من العمق والقوّة والشمول ما يجعلها حقائق اجتماعية تنطوي على زخم كبير من الإشعاع والإضاءة، فمتى ما أردنا اختبار هذا النص في تطبيق على مثال عشناه أو عايشنا تجربته وجدناه ينطبق بشكل مدهش على شخصية مثل الشهيد الصدر والإمام الخميني، وعلى إخواننا ممن رحلوا إلى الله فلم تنكشف ثلمة فقدهم إلا بعد الرحيل.

ويمكننا تعزيز هذا المنهج من خلال منهج آخر في اكتشاف مواصفات شريحة خطيرة في المجتمع تلك التي تعيش على النفاق بكل أشكاله، وهؤلاء «يتلوّنون ألواناً» ويفتنّون افتناناً، لهم بكل طريق صريع وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع، يتقارضون الثناء، يتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا وإنّ عذلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا.

«قد اعدّوا لكل حق باطلاً، ولكل قائم مائلاً، ولكل حيّ قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً».

«يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم».

إنّ عشرين سنة عشناها هنا تمدّنا بشواهد تثبت وجود عدد لا بأس به ممن يتصفون بهذه الصفات وينتهجون مثل هذه السلوكيات.

ولكأن الإمام يعيش في زماننا وهو يقول: يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، ما أكثر ما سمعنا ورأينا وشهدنا ولائم يقيمها أناس تمخضت لهم عن جواز

سفر أو موقع، وما أكثر ما رأينا من أفراد ما إن ينطق أحدهم بكلمة حق حتى نراه ينبري إلى تفنيدها فيذري عليها الشبهات تلو الشبهات.

إننا لا ندهش من هذه الحقائق المذهلة التي يسجلها الإمام لأنه يعيش حالة من الاضطرام الروحي جعلته في طليعة القوافل الإنسانية المسافرة، فتأتي كلماته لتحدث ثورة وجدانية داخل ذواتنا من خلال تأوهات في محراب مسجد الكوفة.

«آه من قلّة الزاد وطول الطريق».

وهذه ليست كلمات إنسان زاهد بالمعنى المتبادر للذهن من خلال انزواء عن الدنيا وانسحاب من الحياة.. إنها كلمات إنسان كان يحكم الشرق الأوسط بكل ثرواته ومقدراته.

فعلي له شخصية واحدة ثابتة ولدت يوم اندمج عقله وقلبه وروحه في تفاعل أحدثته شرارة الرسالة المحمدية الخالدة.

هاجس الخطر الوهمي أو الوعي الاجتماعي

لنتوقف هنا عند هذه الحكاية الفريدة التي يسوقها الإمام بأسلوب قصصي رائع مفلسفاً الوسائل المنحطة التي يتسلل منها الخبثاء:

أثوار ثلاثة كن في أجمة، أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهنّ عليه. فقال للثور الأسود والثور الأحمر:

لا يدلّ علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فان لونه مشهور ولوني على

لونكما، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة!

فقالا له:

دونك فكله.

فأكله فلما مضت أيام قال للأحمر:

لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة؟!

فقال:

دونك كله!

ثم قال للأحمر:

إني آكلك لا محالة!

فقال:

دعني أنادي ثلاثاً؟

فقال:

افعل.

فنادي:

ألا إني أُكلتُ يوم أكل الثور الأبيض!

هذه حكاية على إمتاعها الأدبي نراها تحلل بدقة وتفضح مشاريع

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

استعمارية خطيرة ما تزال حتى اليوم تفعل فعلها الهدّام فنرى ثيران الأجنحة السياسية يصغون إلى أفكار (الأسد) المتربّص بهم جميعاً، ولكن وفق مخطط يضرب اتحادهم وتضامنهم.

يمكننا أيضاً إجراء تطبيق آخر من سيرة الإمام الخالدة في موقفه من الخلافة، وما نجم من السقيفة من مؤشرات سوف تقود إلى نتائج كارثية؛ تلك النتائج التي أرّقت السيدة الزهراء وعصفت بشبابها.

لقد أدّى الإمام ما عليه.. احتج وناشد وطالب وجادل، ولكنه فيما بعد انطوى على صبر مرير تاركاً للأمة خوض تجربتها فتحصد ما زرعت الأيدي.

وسكت الإمام ٢٥ سنة ولم يكن صمته سلبياً إنّما كان يرعى المسيرة عن بعد وكان يتدخل كلما ظهرت أزمة خطيرة.

ووعي مثل هذه التجربة وتطبيقها في واقع حياتنا يكشف للجميع المقاصد السامية لأي إنسان يملك مشروعاً اجتماعياً وسياسياً قد لا تدركه الجماهير.

إنّه يمنحها فرصة الاكتشاف حتى لو أدّى ذلك إلى الاحتراق في التجربة، لأن الوعي ومن ثم حصول الإرادة لا يأتي دون ثمن.

ولعلّنا نفيد من رمزية المشهد الذي بدأت به مسيرة الإنسانية يوم مدّ أبونا آدم يده إلى الشجرة المحرّمة.

لقد أعقب ذلك احتراق وندم وأيضاً عزم على التوبة والخلوص والعودة إلى الله.

محطات أخلاقية

ربما يأتيك إنسان يظن أنك ستساعده تقدّم له عوناً ما.. ربما كان مقهوراً.. أو كان حائراً أو كان فقيراً ف «من ظن بك خيراً فصدّق ظنه».

إنها دعوة علي لمن يصغي إلى كلمات علي ويترسّم خطاه في أن لا نخيب من يظن بنا خيراً.

الثقة درجة الإيمان التي تساوي نسبة مئوية هي ١٠٠٪ فيما الظن في أفضل حالاته لا يتجاوز الـ٨٠٪ فـ«ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة» فأي محاولة لاستخدام الظن للقضاء على حالة الثقة يعني طعن العلاقات الأخوية طعنة غادرة.. يعني اغتيال الأخوة التي بدونها يتحول المجتمع إلى غابة موحشة تعوي فيها الغرائز المجنونة كذئاب الليل.

الكذب نقيض الصدق فإذا كان الصدق إيمان فالكذب كفر وإذا كان الكذب أسوأ سوءة فان الصدق في طليعة الحسنات، وعلى صعيد الأمن الداخلي أي الشعور بالطمأنينة فان الكذب بداية العاصفة التي ستطيح بالاستقرار النفسي فـ«الكذاب والميت سواء» لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته.

من هو الإنسان الشريف؟ هل هناك وسائل لمعرفة الشرفاء؟

هم أولئك الذين يستيقظون صباحاً وعيونهم تتألق بنور ما .. تزخر ذواتهم بالخير.. الخير للجميع، يتطلعون إلى عمل الخير الكثير، فينجزون منه

قدراً، ويأسفون لما فاتهم منه كيف فاتهم؟ فالإنسان الشريف: «ينوي كثيراً من الخير، ويعمل بطاقة منه، ويتلهف على ما فاته كيف لم يعمل به؟».

هل هناك من وسيلة لاكتشاف خلل ما في الصداقة؟

وهل إن صداقتي مع إنسان ما تنمو أم تخبو، تشتد أم تضعف؟ هل هي علاقة معافاة أم يعتريها مرض ما؟

أجل هناك وسيلة ف «حسد الصديق من سقم المودّة».

من منّا لم يسمع ولم يحفظ حديث سيدنا محمد ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وسنجد أيضاً «إذا كان الراعي ذئباً، فالشاة من يحفظها؟!».

الطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

وسنجد كلمات متألقة بالنور تقول:

«ينبغي لمن ولي أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته، وإلّا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود».

غير مخصص للبيع أو الطباعة

نماذج من حوارات الإمام

عندما نحلل جميع حواراته مع أعدائه وخصومه وأصدقائه فإنّنا سنجد وراء ذلك جميعاً مجده الأخلاقي، فالأخلاق في مسيرة الإمام ليست فعلاً متكلّفاً أو عملاً يصدر بعد معاناة بل نبعاً متدفقاً يستقي عطاءه من الحب.. الحب الإلهي.

الحوار الأول: سهل بن حنيف «صديق»..

سهل (بدهشة): يا أمير المؤمنين هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم.

الإمام: نعطيه كما نعطيك.

سهل: صمت وعلامات تعجب بالعشرات.

الحوار الثاني: الوليد بن عقبة ومعه بعض الزعماء «أعداء ألّداء وخصوم».

الوليد: يا أبا الحسن إنك قد وترتنا جميعاً.. أما أنا فقد قتلت أبي يوم بدر، وخذلت أخي (عثمان) يوم الدار بالأمس وأما سعيد (ابن العاص) فقتلت أباه يوم بدر وكان ثور قريش وأما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه ونحن إخوانك ونظراؤك .. ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في عهد عثمان. وأن تقتل قتله عثمان .. وإنا إن خفناك تركناك والتحقنا بالشام؟

الإمام: أما ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحق وتركم.

وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم.

وأما قتلة عثمان فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلهم أمس، ولكن لكم علي حق إن خفتموني أن أؤمنكم، وان خفتكم أن أسيرّكم.

الحوار الثالث: طلحة والزبير وعبد الله بن عمر (بعد رفضهم السياسة المالية الجديدة في التوزيع).. المكان خارج المدينة لأن الإمام كان يعمل مع أجير في حفر نبع للمياه وبسبب حرارة الجو طلب طلحة من الإمام أن يكون الحوار في ظلال الشجرة واستجاب الإمام.

طلحة: لنا قرابة من نبي الله وسابقة جهاد وأنك أعطيتنا بالسويّة ولم يكن عمر ولا عثمان يفعلان ذلك.. كانوا يفضلوننا على غيرنا.

الإمام: فهذا قسم أبي بكر.. وهذا كتاب الله فانظر مالكم من حق فخذوه.

الزبير: فسابقتنا؟!

الإمام (يخاطبهما معاً): أنتما أسبق مني؟

طلحة والزبير: لا.. فقرابتنا؟

الإمام: أقرب من قرابتي؟

طلحة والزبير: لا.. فجهادنا؟

الإمام: أعظم من جهادي؟

طلحة والزبير: لا..

الإمام: (ينهي الحوار): والله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا منزلة سواء.
طلحة والزبير (استياء).

وينفجر الوضع في اليوم التالي، الإمام يوجه خطاباً غاضباً:

يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

أنا أبو الحسن.. ألا أنّ هذه الدنيا التي تتمنونها وترغبون فيها.. وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له فلا تغرّنّكم.. وأمّا

هذا الفيء فليس لأحد إثرة، فقد فرغ الله من قسمته، وهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله، به أقررنا وله أسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا.

(يصلي الإمام ركعتين بعد الخطاب ويأمر باستدعاء الزبير وطلحة للحوار (يحضران).

الإمام: نشدتكما هل جئتماني طائعين للبيعة ودعوتماني إليها وإنّي كاره؟

طلحة والزبير: نعم.

الإمام: غير مجبورين؟

طلحة والزبير: نعم.

الإمام: فما دعاكما إلى ما أرى؟

طلحة والزبير: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضي في الأمور دوننا (شراكة في الحكم).

ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت (امتيازات مالية على أساس السابقة في الانتماء إلى الإسلام).

الإمام (في حزن وألم من طريقة تفكيرهما): لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً.. فاستغفرا الله يغفر لكما.. ألا تخبراني أدفعتكما عن حق واجب لكما فظلمتكما إياه؟

طلحة والزبير: معاذ الله.

الإمام (يفجّر مظلوميته): فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟

طلحة والزبير: خلافك عمر في القسمة.. إنك جعلت حقّنا في القسم كحق غيرنا وسوّيت بيننا وبين غيرنا.

الإمام (يبين لهما خطأ المعايير التي يستندان إليها): أما قولكما

جعلت فيئنا وأسيافنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق الإسلام

قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلا فضّلهم رسول الله بالقسم ولا آثرهم بالسبق، والله موف السابق المجاهد يوم القيامة.

طلحة والزبير: (صمت وحقد)

وقد سجّل التاريخ كيف أدت المعايير الخاطئة والأطماع إلى اندلاع حرب الجمل استخدمت فيها شعارات برّاقة، فطلحة والزبير لم يقصّا على الناس حوارهما مع الإمام، ولم يذكرا أطماعهما في الامتيازات المالية والشراكة في الحكم والسيطرة على مقدرات الدولة والحصول على المزيد من الأسلاب..

فمعركة الجمل رفعت هي الأخرى قميص عثمان (الخليفة المظلوم) و (الخليفة الشهيد) الذي قتل بعد (توبته).

وانتهت المعركة بعد مصرع عشرات الشهداء وسقوط آلاف الحمقى والأغبياء ممن خدعوا وراحوا ضحية أطماع السياسة.

وسنرى مشهدا مؤثراً للإمام يقف في قلب المكان، ينظر إلى قتلى أول حرب أهلية فتمتلئ عيناه بغيوم ممطرة.. يبكي من أجل عدوّه اللدود طلحة..

يبكي لنهايته.. لقد سقط طلحة يوم اغتال عقَله الطمعُ فما أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

ثم يقلّب سيف الزبير قائلاً بأسف:

سيف أعرفه.. طالماً جلا الكرب عن وجه رسول الله.

ولم تمنعه الظروف في أن يقول كلمة الحق.

والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً، ولكنّه الحين ومصارع السوء.

الحوار الرابع: عثمان بن عفان الخليفة الثالث (يتحدث بأسلوب فيه عتاب ولوم).

الإمام: صمت حزين.

عثمان: مالك لا تقول (شيئاً).

الإمام (بأسى): إن قلت لم أقل إلّا ما تكره، وليس لك عندي إلّا ما تحب.

الحوار الخامس: ماذا اختار يا سيدي في الصراع؟

اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف، ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

الإمام الحسن.. الحرب من أجل السلام

ربما من السابق لأوانه أن نقول إن الإمام الحسن عليه السلام وجد نفسه بعد مصرع والده مسؤولاً أمام الشيعة ومصيرهم فيما كان الخوارج يشحذون سيوفهم للحرب مع معاوية وهم لم يبايعوا الإمام الحسن عليه السلام خليفة وإنّما قائداً عسكرياً فقط يحارب معاوية.

فيما كان فريق من أهل الكوفة لا همّ له سوى جمع الغنائم إضافة إلى قطاعات واسعة من السكان كانت تعيش في حيرة من أمرها ولا تدري ماذا تفعل إضافة إلى وجود أفراد كثيرين يتلقون الأوامر من زعماء قبائلهم فقط[1].

صفير العاصفة: نحن الآن في أواخر سنة ٤٠ هـ وقد تأكد معاوية بأنه جبهة العراق تعاني من التمزق الشديد ووصلت أخبار كثيرة في هذا المضمار، حتى إن المرء يكاد يسمع دوي الانهيارات، لهذا أرسل على وجه السرعة رسالة تتضمن إنذاراً نهائياً[2].

ومع تدهور الظروف فقد ردّ الإمام الحسن بحزم ما جعل معاوية يعيد ترتيب بعض الحسابات[3] فقد أعلن معاوية الحرب وحشد جيشاً جراراً جاوز الستين ألف جندي مجهز بمختلف أنواع السلاح إضافة إلى انضباطه التام، ثم قام بإجراء ذكي وهو إعلانه أيضاً رغبته في السلام ويبدو أن معاوية كان

---

١. حياة الإمام الحسن، باقر شريف القرشي ٢ / ٦٣.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر نفسه.

عـلى يقين من تمزّق الجبهـة العراقية فتقدم بقواته نحو الحـدود العراقية واثقاً كل الثقة من كسب المعركة[1].

ووصلت أنباء الزحف إلى الكوفة فأمر الإمام بحشد الجماهير في المسجد لإلقـاء خطـاب هـام. ومـن عـلى أعـواد منبـر علـي انطلقـت صيحـة الجهـاد والمقاومة:

«أما بعد.. فان الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً».

«ثـم قـال لأهـل الجهـاد: اصـبروا إن الله مـع الصابريـن، فلسـتم أيهـا النـاس نائليـن مـا تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، انه بلغنـي إن معاوية بلغه إنا كنا أزمعنا على المسـير إليه فتحرك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسـكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون، ونرى وترون»[2].

والنخيلة هو المكان الذي تتجمع فيه الحشود العسكرية ويقع على طريق الشام ولا يبعد عن الكوفة كثيراً[3].

وخيـم صمـت ثقيل عـلى الجالسـين ينظر بعضهـم إلى عيون بعـض. وقد ألقى الخوف بظلاله على الوجوه وانعكس في انطفاء العيون.

الشـائعات قد فعلت فعلها في النفوس وقد نجح معاوية في إلحاق هزيمة

---

١. شرح نهج البلاغة، ابن حديد المعتزلي ٤ / ٨٣.

٢. معجم البلدان ٨ / ٢٧٦.

٣. شرح النهج ٤ / ١٤.

نفسية ساحقة قبل أن يقرر الزحف صوب العراق، إن طوابير من جيش معاوية موجودة في داخل الكوفة في تلك البيوت المذعورة أو البيوت التي تعصف بها الأطماع: إن الكوفة مهددة من داخلها.

وعندما رأى عدي بن حاتم الطائي هذا المشهد القاتل انبرى أمام الجماهير وهتف بحماس وبسالة: أنا عدي بن حاتم! سبحان الله! ما أقبح هذا المقام!! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجدّ راوغوا كالثعالب. أما تخافون مقت الله؟

ثم التفت إلى القائد العام يعلن امتثاله للأوامر، وأعلن استجابته الفورية وامتطى حصانه متجهاً نحو النخيلة بعد أن أوصى غلامه بما يحتاج وكان هذا الصحابي البطل أول من عسكر في النخيلة[1].

وقد بعث هذا الموقف ومواقف رجال آخرين الحماس في نفوس الكثيرين كما أمر الإمام بعض الخطباء الحماسيين بالقيام بحملة تعبوية لتعبئة الرأي العام من أجل مقاومة العدوان القادم.

أما هو عليه السلام فقد قرر التحرك نحو النخيلة بنفسه لنقل المعركة بعيداً عن الكوفة في ظروف تتطلب التحام عسكري سياسي لخوض حرب مصيرية. وخلال عشرة أيام بلياليها لم يلتحق بالإمام سوى أربعة آلاف فعاد إلى الكوفة لتدارك الأوضاع ثم عاد سريعاً إلى النخيلة فغادرها إلى دير عبد الرحمن وأنتظر بها ثلاثة أيام ريثما يلتحق به المتخلفون من الجنود.

---

١. باقر شريف، المصدر نفسه ٢ / ٧٤.

وكانت الأحداث تتلاحق بسرعة وجيوش الشام تتقدم صوب الأراضي العراقية، وكإجراء فوري رأى سيدنا الحسن عليه السلام إرسال نخبة من قواته لوقف الزحف الشامي وحماية الأراضي الخصبة والزراعية من السقوط في قبضة معاوية.

وفي تلك الليلة الدامسة اجتمع الإمام الحسن عليه السلام بهيئة أركان حربه ومنهم عبيد الله بن العباس حاكم اليمن وقيس بن سعد وسعيد بن قيس.

وبعد حديث طويل قال الإمام الحسن عليه السلام: «يا بن العم! إني باعث معك أثني عشر ألفا من فرسان العرب وقراء المصر. الرجل منهم يزيد الكتيبة، فسر بهم وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وأدنهم من مجلسك، فانهم بقية ثقات أمير المؤمنين، وسر بهم على شط الفرات، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية، فإن لقيته فاحتبسه حتى آتيك فإني على أثرك وشيكا، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين[1].

وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن أصبت فقيس بن سعد على الناس، فأن أصيب فسعيد على الناس»[2].

وفي فجر اليوم التالي تحركت طلائع جيش الإمام بقيادة عبيد الله والتي بلغ قوامها اثني عشر ألف مقاتل.

ولزمت القوات الزاحفة شطان الفرات وهي تواصل تقدمها فتوقفت في

١. قيس بن سعد وسعيد بن قيس.

٢. باقر شريف، المصدر نفسه ٢ / ٧٤.

«سينور» ثم في «شاهي» ثم «الفلوجة» وبعد إن وصلت «مسكن» فاستقرت في «القرية الجنوبية» إزاء مسكن وهناك أصبح الجيشان وجهاً لوجه.

وكانت الليالي التي مرّت على الجيش الطليعة مترعة بالحذر والترقب وهواجس الخوف فقد مرت أيام وأيام وليس هناك من خبر ينبئ بوصول الإمدادات العسكرية أنهم يواجهون جيشاً جرّاراً يتمتع بالانضباط الكامل ونظر عبيد الله إلى معسكره فرأى نماذج من الفوضى والتمزّق بل رأى بعض الخوارج ممن لا يرى وقاراً للخليفة ولا يرى احتراماً لإخوانه من الجنود.. وانبعث سؤال رهيب في أعماقه كيف يتسنّى له أن يواجه معاوية بهذه الحفنة..

وما زاد في غيظ القائد العسكري قيام بعض الجنود بالتسلل ليلاً نحو معاوية تحمل معسول الوعود وتحمل جرار الذهب فالضمائر تجارة إذن.. بيع وشراء.

آه إن معاوية يستخدم بريق الذهب ليعمي البصائر والأبصار!!

وفي المعسكر الآخر حيث تجثم قوات الشام كان الجنود يصغون بدهشة إلى قهقهات معاوية تشق صمت الليل إلى ساعة متأخرة. قليلون يعرفون سرّ تلك الضحكات الرنانّة أكوام من الرسائل القادمة من الكوفة ومن معسكر النخيلة.. رسائل شخصيات قبلية معروفة كلها تساوم معاوية وتعلن استعدادها الكامل في اغتيال الحسن أو خطفه وتسليمه أسيراً. رسائل من شبعث بن ربعي، شمر بن ذي الجوشن، حجار بن أبجر، قيس بن الأشعث وآخرين وكان ما يثير دهشته أن كثيراً من الرسائل قد وصل من أشخاص

مغموريـن لا يعرفهـم أحد.. إن حمى هذه التجارة قـد وصلت إلى درجة رهيبة لا تصدّق!

وبـدأت شـائعات لا يعرف مصدرها أحد تأخذ طريقها إلى خيام المعسـكر العراقـي تتحـدث عـن رسـائل متبادلـة بيـن معاويـة والحسـن حـول الصلـح والسلام[1].

وكانت خيمة القيادة على رابية تتيح للقائد عبيد الله أن يشـرف على قواته وأن يـرى عـن بعـد معسـكر العـدو المتربّـص، واختـلى القائـد إلى نفسـه بعد منتصـف الليـل وقد جثـم صمت رهيب فوق المكان وحاول أن يخدع نفسـه حول صحة الشائعات، ولكنه يعرف جيداً أن الحسن ليس من الرجال الذين يسـاومون، ولكن فشل التعبئة العسـكرية في الكوفة وتراجع حماس الجماهير ورغبتهـم فـي السـلام بـأي ثمن قد جعلـه يتميّـز غيظاً مـن القدر الذي سـاقه ليكون على رأس جيش ممزّق نفسياً.

وهناك على مرمى البصر كانت مشاعل الفرق الشامية، تومض من بعيد ولم يكـن عبيـد الله يدري أن معاوية قد خلا الآخر في خيمته يخطط.. كان معاوية يسـطر رسـالة خطيرة ولم تمض سـوى سـاعات حتى كانت الرسالة تسقط في حضن القائد الذي أمضى ليلته ساهراً.

وفـض عبيـد الله الرسـالة التـي لم يشـك فـي أنهـا مـن معاويـة وراح يغمغم بكلماتها: «إن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلّم الأمر إليّ فان دخلت

١. شرح النهج ٤ / ١٥.

في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك أن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر»[1].

صرّ القائد على أسنانه: اللعنة انه يعرف مآزق أعدائه ويعرف كيف يستغلها.. ويعرف أيضاً إن سفالة الإنسان لا حضيض لها وان أقوم الناس خلقا وأنقاهم سلوكاً قد تجرّه الأطماع ويذله الحرص في واحدة من لحظات الضعف البشري.

آه إن معاوية خبير في النفس الإنسانية ويعرف الكثير مما يموج في ذات البشر.

واشتعلت في أعماقه مشاهد كثيرة لكنها كانت جميعاً تخبو أمام وهج الذهب الذي سيقدمه له معاوية.. حتى مشهد ابنيه الصغيرين اللذين ذبحهما بسر بن أرطاة في غارته على اليمن وحتى مشهد زوجته التي جنّت بسبب تلك الجريمة فهامت على نفسها في الأزقة والشوارع تندب ولديها.

حتى مجده العسكري وكرامته كقائد تضاءلا أمام إغراء معاوية!!

تصاعدت حدّة الوساوس في صدره ليته قدّم استقالته قبل وصول الرسالة انه يجد نفسه في شباك معاوية لا يستطيع إن مئات الآلاف من الدراهم ليست بالأمر الذي يمكن تجاوزه بسهولة.

---

١. المصدر السابق ٤ / ٢٨.

وتمرّ ساعات الليل وكانت خيمة القائد الذي اختلى بنفسه تشهد صراعاً فريداً.

وفي مطلع الفجر كان عبيد الله قد استحال إلى كائن أخر لقد صُرع في داخله الإنسان.. استحال إلى جثّة تتحرك.. انه يرنو ببصره إلى معسكر العدو ويخطط لفكرة الهروب.. إن من يتأمل عينيه في تلك اللحظات لا بد وأن يرى في عمقهما بريق الخيانة ووهج الأطماع والغدر وسيجد أيضاً انطفاء الإنسانية بكل معانيها النبيلة.

وما أن حلّ المساء حتى سرت همسات لها مدلول واحد إن القائد يفكر باللجوء إلى معاوية.

وكان عبيد الله قد أبلغ المقرّبين إليه ممن يشاركونه في طريقة تفكيره ونظراته إلى الحياة قد ابلغهم بقراره الخطير.

وتحت جنح الظلام شهدت قرية «الجنوبية» أكبر خيانة في التاريخ العسكري فقد تخلى عبيد الله عن كلّ قيم الفروسية والشهامة والشرف الإنساني والعسكري.

وقبل مطلع الفجر وصل عدد الفارّين من المعسكر إلى ثمانية آلاف جندي.

وهكذا فضل القائد الدخول في معسكر معاوية مجللاً بالعار فاحتقرته الأجيال والتاريخ فلم يعد يذكر ألا في قائمة الخونة. فمات قبل إن يموت وقد

كان في موقع يؤهله للخلود والمجد.

وكانت الخطوة التي قام بها القائد المتخاذل الذي باع مجده العسكري وكرامته بحفنه من الدراهم، بداية النهاية في الجبهة العراقية بعد إن استيقظ الجنود الذين تناقص عددهم إلى أربعة ألاف جندي فلم يجدوا قائدهم كما لم يجدوا الآلاف من إخوانهم وعندما اكتشفوا حقيقة ما جرى اسقط في أيديهم وشعروا بمرارة الهزيمة قبل خوض المعركة.

وفي هذه الأجواء التي تنذر بالخطر والانهيار بادر الصحابي البطل قيس بن سعد إلى تحمل مسؤوليته التاريخية في ظروف عاصفة فألقى خطاباً ملتهباً في جنوده لإيقاف حالة التصدّع والانهيار[1].

رياح الهزيمة

كان الإمام الحسن عليه السلام قد وصل المدائن عندما وصلته أنباء الكارثة في رسالة قيس بن سعد وقد جاء فيها: «إنهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها: «الجنوبية» بإزاء «مسكن» وان معاوية أرسل إلى عبيد الله بن العباس يرغبه في المصير إليه، وضمن له ألف ألف درهم. يعجل له منها النصف، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة. فانسل عبيد الله في الليل، إلى معسكر معاوية في خاصتّه وأصبح الناس قد فقدوا أميرهم، فصلّى بهم قيس بن سعد ونظر في أمورهم».

---

١. مقاتل الطالبيين: ٣٥.

وهكذا وصلت هزّات الزلزال إلى المدائن، وبكى بعضهم لوقع هذه الخيانة العظمى فيما راح آخرون يتندرون بان عبيد الله عندما هرب إلى معسكر معاوية حمل معه راية الجيش[1].

واستمر معاوية يرسل سهام الإغراء فيصيب بها من يشاء ووصل به الأمر إن عرض بناته على بعض الشخصيات التي لا تصغي لوعود الذهب والفضة أو وعود المناصب العسكرية، كما لم ينس إن يهدد بعضهم بالانتقام إذا لم يتحالف معه الآن قبل اقتحام الكوفة بجنود لا قبل لهم بها.

وقام معاوية بخطوة تنضح نذالة عندما زوّر رسالة باسم قيس بن سعد تفيد بأنه على استعداد لمصالحة معاوية[2].

ولم يعد أحد يكذّب الشائعات والأخبار بعدما تحقق الجميع من فعلة عبيد الله المشينة.

وقد فتكت تلك الأخبار والشائعات ومزقت صفوف القوات المرابطة في مسكن والمدائن وأصبحت الجبهة والعراقية ألعوبة بيد معاوية فتارة يبث خبراً في المدائن حول مقتل قيس بن سعد ويحثهم على الاشتباك الفوري[3].

وآخر ينشر خبراً كاذباً في «مسكن» حول مصالحة الحسن لمعاوية[4].

---

١. الشيخ المفيد، الإرشاد: ١٧٠.

٢. بحار الأنوار ١٠ / ١١٤.

٣. تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١.

٤. المصدر السابق.

ولأوّل مرّة شعر الإمام الحسن بالخطر على الكوفة من عملية اجتياح يقوم بها معاوية في هذه الظروف العاصفة، إن وحدة الأمة الإسلامية في خطر كبير إذا ما استمرت الأوضاع سائرة في هذا الاتجاه ذلك إن إصرار بضع مئات على مواجهة معاوية حتى النفس الأخير يعني تدفق عشرات الآلاف من جنود الشام الذين يضمرون أحقادا دفينة منذ صفين ضد العراقيين وإذا ما قدر لهم اقتحام الكوفة فن يتورعوا عن انتهاك الحرمات وقتل العشرات من صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

إن معاوية قد أعمته شهوة الحكم والسلطان والملك ولم يعد يرى شيئاً في طريقه .. سوف يدوس على كل المقدسات في سبيل تحقيق أهدافه وطموحاته وأطماعه.

وكان على الحسن أن يفكر في عواقب الأمر.. أنه يرى في الأفق نذراً لا تبشر إلا بوقوع مجزرة كبرى يعقبها شرخ هائل في نسيج الأمة وقد تسفر الأحداث عن ردّة عنيفة عن الإسلام الحنيف وعودة الناس إلى عصور الجاهلية المظلمة.

فإذا كانت الكوفة ترغب في السلام بأي ثمن بعد كل هذه الحروب الطاحنة كما إن الأخطار الأجنبية تهدد الدولة الإسلامية والعدو الكافر يتربص بالمسلمين الدوائر وينتظر الفرصة السانحة فلماذا هذا التقاتل من أجل حكم دنيوي وسلطان زائل؟!

وأضاءت في ذاكرة السبط كلمات جدّه الراحل يوم قال أمام الملأ من

أصحابه: إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين[1].

وفيما كانت الشائعات تمزق الجبهة العراقية في مسكن والمدائن قام معاوية بخطوة ذكية عندما أرسل وفداً يتألف من الداهية المعروف المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن الحكم، وكان عبد الله بن عامر قد قام بحركة يهدف من ورائها إلى تحطيم معنويات العراقيين فقاد مجموعة من فرسانه وأطلق تحذيراً يستبطن التهديد ويظهر حرصه على السلام.

عندما صاح: يا أهل العراق! إني لم أر القتال، وإنّما مقدمة معاوية وقد وافى الأنبار في جموع أهل الشام، فاقرؤا أبا محمد عني السلام وقولوا له: «أنشدك الله في نفسك وأنفس هذه الجماعة التي معك».

وها هو الآن يأتي ضمن وفد للتفاوض، ويجتمع الرجال الثلاثة بالإمام ولم يذكر التاريخ عما دار في خيمة الخليفة الشرعي، ولكن أعضاء الوفد وهم يغادرون يقومون بحركة ذكية وهي بثهم بين صفوف الجيش العراقي كلمات اشد من وقع السهام المسمومة والخناجر الغادرة قائلين: «أن الله قد حقن الدماء بابن بنت رسول الله ﷺ وقد أجابنا إلى الصلح».

ويبدو أن الأجواء كانت تشجع على تصديق أية شائعة خاصة حول فكرة الصلح والسلام ذلك إن قطاعات واسعة كانت ترغب في السلام ولكل مبرّراته فقطاع من الناس قد ملّ من الحروب وكوارثها الاجتماعية بعدما نتج عنها حتى الآن آلاف اليتامى والأرامل والقتلى والمعوقين، لقد كانت الحرب

١. تاريخ الطبري ٦ / ٩٢.

بالأمس مصدر للغنائم والرخاء الاقتصادي أما اليوم فقد أصبحت مصدراً للبؤس والشقاء كما إن جراح الحرب الأهلية أشد ألماً من جراح الحروب في حركة الفتوح!

وتلقف العراقيون هذه الشائعة كما لو أنها حقيقة وبدأ بعضهم يتميز غيظاً فيصرّ على أسنانه وهو: «لقد كفر الحسن كما كفر أبوه».

وصاح أحدهم بوقاحة: أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل.

وكانت عيون بعض الخوارج تبرق بالحقد والكراهية وصمم بعضهم على اغتياله في أول فرصة ممكنة.

وأراد الإمام الحسن عليه السلام اختبار ولاء الجيش وتماسكه فأمر بحشد الجميع للصلاة، ووقف القائد فانسابت كلماته معبّرة:

«الحمد لله كلما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلّا الله كلما شهد له شاهد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق وائتمنه على وحيه. أما بعد فإني والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد لله ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت متحملا على مسلم ضغينة ولا مريداً له بسوء، ولا غائلة وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ألا واني ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ولا تردّوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم وأرشدني وإياكم لما فيه المحبّة والرضا».

وتصاعدت كلمات مسمومة من جنبات المكان:

ماذا يعني بقوله؟

انه يريد مصالحة معاوية وتسليم الخلافة إليه.

لقد كفر إذن.

انه يستحق الموت.

وعندما وقف الإمام للصلاة إذا بسهم غادر ينطلق من مكان ما ولكن السهم يسقط لأن الإمام الحسن عليه السلام قد احتاط بارتداء درع تحت ثيابه.. لقد كان الإمام يدري بأن هناك من يخطط لاغتياله بعدما وعد معاوية الكثيرين بجوائز مغرية..

وحاول أحدهم فيما بعد طعنه بخنجر أثناء الصلاة[1].

وبعد أن، تعددت محاولات الاغتيال استدعى الإمام بعض الزعامات التي يعرف طريقة تفكيرها وقال لهم بعد أن اتضح لديه غباؤهم:

ويلكم، والله إن معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي وإني أظنّ إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين بدين جدّي، واني اقدر أن أعبد الله عزّ وجل وحدي..

ثم أردف وكأنه يقرأ صفحات الغد القادم: «ولكن كأني أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعل الله لهم فلا يسقون ولا يطعمون، فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديهم وسيعلم الذين ظلموا

١. ينابيع المودة: ٢٩٢.

أي منقلب ينقلبون».

أن سرعة الانهيار والتمزّق لم تبق لأحد أذناً صاغية وأصبح العراقيون أمة مبعثرة ممزقة تعصف بهم الريح من كل مكان.

وحزّ في قلب الحسن أن يرى الباطل جبهة متماسكة قوية ثم يلتفت إلى جبهته فيراها خاوية على عروشها، ولم تكن هذه المحنة وليدة اليوم إنّما تعود إلى مهزلة التحكيم وربما أبعد من ذلك بكثير إلى تلك السقيفة التي أفرزت ثقافة جديدة في الحكم غير ثقافة يوم الغدير الخالد.

ورأى الإمام الحسن أن خيار الحرب في هذه الفترة سيكون مغامرة عسكرية متهورة وستفضي إلى نتائج وخيمة لا يعرف مداها التخريبي إلا الله عز وجل.

ورأى الكوفة في مهب إعصار فيه نار.. إعصار مجنون مترع بأحقاد قديمة ربما تعود إلى بدر وأحد وحنين، لقد ظهر أعداء الإسلام القدامى من الطلقاء وأبناء الطلقاء ليثأروا من رسالة الإسلام التي قضت على امتيازاتهم.

وحاول الإمام أن يبين لكل من يتساءل عن سياسته وفلسفة مواقفه إزاء الحرب والسلام فأمر مرّة أخرى بالاجتماع للصلاة فوقف خطيباً في الجموع قائلاً:

والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنّما كنّا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، إلا وقد

أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل.

أن أمرّ محنة تواجه القائد عندما يرى الطابور الخامس يتضخم حتى لم يعد بمقدور أحد أن يعرف حدوده انه موجود في كل مكان من الكوفة بل وفي العراق بأسره..

لقد أطلعه الوفد على رسائل خطيرة من زعماء الكوفة ورؤساء بعض القبائل وكلها تعرض على معاوية «السمع والطاعة ويتبرعون له بالمواعيد، ويتخذون عنده الأيادي، ويستحثونه على المسير نحوهم، ويضمنون له تسليم الحسن عند دنوهم من عسكره أو الفتك به»[1].

لقد تمعن في خطوط الرسائل وتأكد من تواقيع أصحابها، أن الظروف لا تسمح له بفضح هذه المؤامرات الدنيئة ولذا اعرض عن كل ذلك ليخاطب شعبه بكل ما فيه من عناصر الانحطاط ويضعهم أما الحقيقة وجهاً لوجه؛ أن العراق يقف أمام امتحان صعب كالذي وقفه بصفين قبل أعوام فقال لهم بكل أمانة وإخلاص:

«ألا وأن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفه فأن أردتم الموت، رددناه عليه وحاكمناه بظبات السيوف، وإن أردتم الحياة قبلنا وأخذناه بالرضا».

وتمرّ اللحظات مصيرية وانعكست في عيون الحاضرين الرغبة في الحياة بأي ثمن ولذا ارتفعت الأصوات من كل مكان:

١. تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١.

«البقية.. البقية»[1].

وهكذا اتضح للكثيرين بالرغم من وجود بعض المتحمسين للحرب انه لا يمكن مواجهة جيش الشام المنظم بقوّات مهزومة نفسياً وانه لا أمل بالنصر أبداً بل لا أمل بالدفاع عن الكوفة.

وأحدث الخوارج الفوضى في المعسكر خاصّة وأنهم يرون استباحة كل من يخالفهم في أفكارهم وحصلت حوادث نهب بل وصلت الفوضى درجة مهدت للبعض الهجوم على الإمام، فاستنجد الإمام بقبيلة «همدان» و«ربيعة» وأحدق به رجال من القبيلتين لحمايته من أية عملية اغتيال.

ورأى الإمام أن يغادر المكان خاصة وأن هناك من يخطط لاغتياله أو خطفه وتسلميه إلى معاوية ليقتله أسيراً أو يطلق سراحه وفي كل هذا العار الذي ليس فوقه عار والهزيمة المرة.

وفي منعطف تكثر فيه الأشجار انطلقت صيحة غادرة وإذا أحد الخوارج يهاجم الإمام لاغتياله[2].

وجرح الإمام جرحاً بليغا فنقل الإمام إلى المقصورة البيضاء للمعالجة.

هل أصاب الكوفة مسّ من الجنون بالأمس اغتالوا أباه واليوم تريد اغتياله أن المعايير قد تغيرت ولا شك، إن الكوفة تنسلخ عن هويتها أنها تبيع دينها

---

١. باقر شريف القرشي، المصدر نفسه ٢ / ١٠٦ ١٠٧.

٢. الإرشاد: ١٧٠.

مـن اجـل دنياهـا هي لا تـدري أنهـا تفعل ذلك من اجـل دنيا الآخرين وسـوف تكتشف هذه الحقيقة المرة بعد فوات الأوان.

وغمـرت الحيرة الجموع في المدائـن، لا يعرف فيها المرء عدوه من صديقه وسادت حالة اللاحرب واللاسلم.

ودخل رجل جهني على الإمام وهو يعاني من آلام الطعنة الغادرة قال له:

يا بن رسول الله! أن الناس متحيرون.

فقال الإمام بمرارة قائد يحارب بلا جنود:

والله أرى معاوية خيراً لي.. هؤلاء يزعمون أنهم لي شيعة ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقلي وأخذوا مالي، والله لئن آخذ من معاوية عهداً احقن به دمي وآمن به على أهلي وشيعتي خير لي من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي..

لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعونني إليه سلماً..

والله لئن أسالمه وأنا عزيز أحب من أن يقتلني وأنا أسير أو يمن علي فتكون سبة على بني هاشم إلى آخر الدهر..

وأدرك الجهني معاناة الإمام الذي وجد نفسه وحيداً كربان في سفينة سكر ملاحوها أو غرقوا في سبات عميق فيما الأمواج المجنونة تهاجمها بعنف.

الخيار رقم صفر

وأرسـل الإمام سـفيرين لاسـتماع عروض معاوية في السلام ويبدو أنّ سـبط

النبي صلى الله عليه وآله اختار رجلين احدهما يمثله وهو عمرو بن سلمه الهمداني فهذه القبيلة وقفت إلى جانب الشرعية عن ولاء للمبادئ أما الآخر فكان يمثل بشكل عام الروح العامّة للكوفة في تلك الأيام وهو محمد بن الأشعث الكندي؛ جنوح نحو الحياة المادية، والمنافع السطحية، وبعد مفاوضات قام بها وفود متبادلة وقع الطرفان على وثيقة السلام التي تضمنت بنوداً أساسية.

١- يقوم الإمام الحسن بن علي بالتنازل عن الحكم لصالح معاوية بن أبي سفيان على أن يلتزم الأخير بالعمل بالقرآن الكريم وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢- ليس من حق معاوية أن يعهد بالخلافة إلى احد بعده بل يكون الأمر شورى بين المسلمين.

٣- الأمن والعفو العام وعدم ملاحقة الأفراد بسبب مواقف سابقة.

٤- يتعهد معاوية بعدم التآمر على الإمام الحسن وأخيه الحسين وألا يخيف أحداً من أهل البيت عليهم السلام[1].

وبعد توقيع اتفاقية السلام بدأ الإمام يستعد للعودة إلى النخيلة ومنها إلى الكوفة، وكان معاوية الذي أصبح خليفة عاما بقوة الحديد والنار هو الآخر يستعد لدخول الكوفة دخول الفاتحين.

وتفجرت أزمة جديدة عندما وصلت الأنباء المدمرة إلى قيس بن سعد

١. الفصول المهمة: ١٢٥ (المحلق رقم ٣).

الذي ظل ساهراً حتى الصباح يفكر فيما عساه أن يفعل؟

إنّ من أصعب الأمور في حياة الأحرار رؤيتهم انتصار الباطل وغلبته وتراجع الحق، ولهذا خطب في جنوده في ذلك الصباح الكئيب يحيطهم علماً بالكارثة فهتف بحزن مرير:

اختاروا إحدى اثنتين: إما قتال بغير إمام، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال؟!.

وفي فورة الحماس الذي غمر الجنود علت هتافات ملتهبة:

«بل نقاتل».

وكان على معاوية أن يعالج الموقف المتفجّر قبل أن يتحرك نحو النخيلة ومن ثم الاستعداد لدخول الكوفة رسمياً.

ولذا أرسل إلى قيس على وجه السرعة رسالة تضمنت سؤالاً وحيداً؟

«على طاعة من تقاتل؟ وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك» وأرفق بالرسالة ورقة بيضاء لشروطه..

وواجه قيس لحظات مزلزلة أن روحة تأبى الاستسلام ولكن عقله الآن يضعه أمام حقيقة مرّة أن مواجهة معاوية تعني الانتحار وأدرك حينئذٍ مرارة الإمام الحسن وهو يضطر إلى الصلح.

وبعد معركة داخل الأعماق المضطرمة بالثورة انتصر العقل المضيء وامسك قيس بريشته ليسطر شرطاً وحيداً: الأمن لجنوده.

وعندما طالبه معاوية بالبيعة رفض قيس قائلاً: لقد عاهدت الله ألا ألقى معاوية إلا وبيننا الرمح والسيف.

ولم يتأخر معاوية في التحرك صوب النخيلة فتحرك وقد حفّت به كتائب من جيشه تضم مسلمين ومسيحيين، وانسحبت القوات المرابطة في المدائن ومسكن، وفي النخيلة حيث اللقاء التاريخي بين الإمام الحسن ومعاوية تقابلا وجها لوجه وانتهز معاوية الفرصة وطالب قيس باللقاء والبيعة ولكن قيس كرر رفضه معلنا: لا والله لا تلقاني إلا وبيني وبينك السيف والرمح، وابتسم معاوية ابتسامة مكر وأمر بإحضار سيف ورمح ثم وجه إليه من يدعوه ويخبره.

وأدرك قيس إن معاوية لن يتركه حتى يبايع، فوافق على الحضور.

وكانت لحظات عصيبة عندما كان قيس يتجه صوب خيمة معاوية الوضيع الذي أصبح بين ليلة وضحاها حاكماً على الأمة الإسلامية، واصطف العراقيون ينظرون إلى قائد الطليعة مقهوراً فسمعوه يردد كلمات الأسى والتأنيب: استبدلتم الذل من العز والكفر من الإيمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين تحت حكم الطليق بن الطليق!!

واتخذ قيس مجلسه قرب الإمام الحسن، وقد هيمن صمت ثقيل كسره معاوية عندما هتف بصفاقة:

أتبايع يا قيس؟

والتفت قيس صوب سيده وقائده بالأمس وقال بصوت خافت يقطر حزناً:

أفي حل أنا من بيعتك؟

فأجاب سبط آخر الأنبياء:

نعم.

وأطرق قيس بعد أن بسط كفه فوق فخذه فقفز معاوية من على سريره يمسح بيده فيما اعتصم قيس بالصمت، وقد دهش الحرس الشامي لإباء وشجاعة أنصار الحسن.

الكوفة تنتظر وأن كان لكل أسبابه الخاصّة به فهذه امرأة تترقب عودة زوجها وتلك أم تنتظر عودة أبنها وأطفال خرجوا إلى أطراف المدينة يتطلعون إلى عودة آبائهم، وقد خيم حزن غامض منذ أن وصلت أنباء التوقيع على اتفاق السلام حتى أولئك الذين ناصروا معاوية في فترة الصراع عجزوا عن إضفاء مسحة الفرح على المدينة بالرغم من الضوضاء التي أحدثوها لاستقبال معاوية الظافر والمنتصر!

أجل الكوفة في حالة من الحزن وقد يرى المرء فيها ابتسامة الشامت فالخوارج وإن كانوا يمقتون معاوية لكنهم لم يخفوا شماتتهم بأهل البيت بعد انتصار عدوهم اللدود، ولذا نرى بعضهم يحاول إظهار نقمته على الحسن ويحمله مسؤولية ما حصل، وفي غمرة كل ذلك لا يعدم أن يرى تفاؤلاً من الناس البسطاء بعودة السلام إلى البلاد التي أرهقتها حروب أهلية مدمرة، والسلام يتبعه رخاء والرخاء هدف أنساني وحلم جميل.

ولـذا هبّـت الكوفـة بأسـره لتسـتمع إلى خطـاب معاويـة التاريخـي الـذي سيلقيه من فوق منبر علي!

ودخلـت كتائب الشـام ورأى الأطفـال لأول مرّة الوجوه الشـقر التي تختلف عن وجوه آبائهم السمراء. وافتتح معاوية عهده بأن جلس على المنبر ليسجل أول مخالفة لسنة النبي ﷺ وثقافة الإسلام التي تلزم الخطيب بالوقوف[1].

وقد أهمل التاريخ فيما يبدو خطابة فسجل الفقرات الهامّة فيه:

أمـا بعـد فانه لم تختلف أمة بعد نبيها إلا غلب باطلها حقها، وانتبه معاوية إلى فلتته فأردف على الفور:

«إلا هذه الأمة، فان حقها غلب باطلها».

وكشر معاوية عن أنيابه ليظهر على حقيقته وهتف:

يـا أهـل الكوفـة أترونني قاتلتكم عـلى الصلاة والـزكاة والحـج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون! لكني قاتلتكم لأتآمر عليكم وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون.

ألا وان كل دم أصيـب فـي هـذه الفتنـة مطلول، وكل شـرط شـرطته فتحت قدمي هاتين! وقد رآني الحسـن أهلاً للخلافة ولم ير نفسـه فسـلّم الأمر إلي!! ولا يصلـح النـاس إلا ثلاث إخراج العطاء عند محلّه، وإقفـال الجنود لوقتها وغزو العدو في داره، فان لم تغزوهم غزوكم.

---

١. آل ياسين، صلح الحسن ٢٨٠ الهامش.

ولم يترك معاوية هذه الفرصة فنال من علي ونجله الحسن[1].

وتحلى الإمام الحسن بالصبر واعتصم بالصمت تاركاً أهل الكوفة يكتشفون حقيقة الإنسان الذي خُدعوا به.. أجل سوف يكتشفون ذلك ولو بعد حين..

وكان عمرو بن العاص يراقب وفسر صمت الإمام بأنه ضعف بسبب ما يعانيه من مرارة الهزيمة فأقترح على معاوية أن يطلب من الحسن إلقاء خطابه بهذه المناسبة ليتخذ الصلح صفة رسمية لدى الأمة، وكان يتوجس خيفة من خطاب الإمام البليغ ولكن عمرو أقنعه بأن الهزيمة التي حلّت به سوف تعقد لسانه وانه ليس لديه ما يقوله في هكذا مناسبة!

ونهض الإمام باتجاه منبره والده بالأمس فأعتلى درجاته ليقف شامخاً وسط الجموع وقد شع وجهه بنور سماوي ونطق فإذا كلماته ترن في سمع التاريخ وذاكرة الأجيال.

«أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدّة. والدنيا دول».

قال الله عز وجل لنبيه محمّد ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2].

---

١. شرح النهج: ٤/ ١٦.

٢. الأنبياء: ١٠٩-١١١.

وانفجر البركان بركان الحقيقة فوق المنبر المقهور:

وأن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي أهلاً فكذب معاوية.

نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجل وعلى لسان نبيه.

ولم نزل أهل البيت مظلومين منذ قبض الله نبيه، فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء، ومنع أمنا ما جعل لها رسول الله.

وأُقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله، لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها ولما طمعت فيها يا معاوية.. فلما خرجتْ من معدنها، تنازعتها قريش بينها فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك. وقد قال رسول الله: ما ولت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه، لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا.

فقد ترك بنو إسرائيل هارون وهم يعلمون انه خليفة موسى فيهم، واتبعوا السامري، وتركت هذه الأمة أبي وبايعوا غيره وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة، وقد رأوا رسول الله نصب أبي يوم غدير خم، وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهد الغائب.

وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله، حتى دخل الغار، ولو وجد أعواناً لما هرب.

كف أبي يده حين ناشدهم واستغاث فلم يغث، فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، وجعل الله النبي في سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً. وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة، وإنّما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً.

ما يزال الصمت مهيمناً.. أي إنسان هو الحسن أي قائد وحيد يعلن بصوت هادر إدانة لعصره الذي خذله في قضيته العادلة.

وقف التاريخ مشدوهاً يسجل كلماته الخالدة التي تعبر عن حقيقة مقهورة محاصرة:

«فوالذي بعث محمداً بالحق، لا ينتقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ولتعلمن نبأه بعد حين».

البركان ما يزال يواصل ثورته وقد بدأت حممه تتساقط فوق معاوية الذي تضاءل حتى أصبح جرذاً مذعوراً انه الآن وجهاً لوجه أمام نجل سيد البلاغة في تاريخ العرب:

أيها الذاكر علياً! أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عتبه بن ربيعة، وجدتي خديجة وجدّتك فتيلة؛ فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرّنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً.

وحدث ما لم يتوقعه أحد عندما علت هتافات مجلجلة:

آمين.. آمين.. آمين.

وخيل لبعض الحاضرين انه سمع أصوات آمين ترددها الملائكة والناس أجمعون بل وقوافل الأجيال عبر التاريخ.

أجل، آمين أيها القائد المقهور؛ إنّ تنازلك عن حقك ومن أجل الحفاظ على وحدة أمة جدك ومن اجل حماية الناس الطيبين في المدينة التي خذلتك يعد إدانة صارخة لعصرك.. وإدانة لكل الذين خذلوك والذين باعوك بثمن بخس دراهم معدودة..

أجل آمين يا سيدي يا سبط آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان سوف تعض الكوفة أصابع الندم حين تكتشفك وحين تكتشف حقيقة عدوك.. وستدفع ثمن ذلك ندما طويلاً.

وقفل الإمام عائداً إلى منزلة يستعد للرحيل والعودة إلى مدينة جده النبي صلى الله عليه وآله.

وبدأت مشاعر الذل تخامر الكثيرين من سكان الكوفة عندما رأوا مدينتهم أشبه بالمدن المحتلة وهي التي كانت بطلة الفتوح أكثر من ثلاثين سنة ثم أصبحت عاصمة الإسلام خمس سنين وما تزال خطب علي تملأ فضاء الكوفة وقد يمتد صداها عبر الزمان إلى ما شاء الله.

لماذا يا سبط النبي؟

تركت خطوة الإمام الحسن مرارة في قلوب المؤمنين صحابة وتابعين خاصة لدى الذين يعرفون حقيقة معاوية ويستشرفون سياسته المعادية لمبادئ الدين والإنسانية، وقد سجل التاريخ النزر القليل من حوار الإمام مع أولئك الزعماء الإبطال الذين كانوا يرفضون الظلم ويأبون حياة الذل، وكان من الطبيعي أن تبقى حواراتهم جزء من الأسرار الخطيرة التي كانت تكلفهم ثمناً غالياً أقلّه حياتهم الشخصية، فكان حجر بن عدي مثالاً في وعي الكارثة التي حلت بالعالم الإسلامي، ولذا نراه يقول للإمام بمرارة ولوعة: «أما والله لوددت أنك مت في ذلك اليوم ومتنا ولم نر هذا اليوم».

فقال له السبط: ليس كل إنسان يحب ما تحب، ولا رأيه كرأيك واني لم افعل ذلك إلا إبقاءً عليكم والله تعالى كل يوم هو في شأن[1].

ويقول السبط في جوابه لعدي بن حاتم الطائي:

«يا عدي إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما فان الله كل يوم في شأن».

ويقول لآخر: إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناعي.

ويقول لأحد زعماء الشيعة في الكوفة (بشير الهمداني):

---

١. مناقب ابن شهراشوب ٢ / ٦٩.

«ما أردت بمصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل»[1].

ويبدو أن بعضهم وقد رأى الحسين حزيناً يعتصره الألم لهذه النهاية الفجيعة التي ألمت بالإسلام فرأى فيها اعتراضاً على خطوة أخيه في إمضاء السلام وربما عرض بعضهم عليه فكرة قيادة الشيعة ضد معاوية ولكنه رفضها على الفور لنفس المبررات التي دفعت أخاه وشقيقه إلى السلام الذي يبدو للوهلة الأولى هزيمة ولكنه في لغة الصراع مجرد انسحاب وتراجع أملته ظروف قاهرة.

وقبل الرحيل بأيام دخل على الإمام الحسن اثنان من رجالات علي ومن الذين وقفوا إلى جانبه في محنته فقال الإمام بعد حديث:

«الحمد لله الغالب على أمره، لو أجمع الخلق جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا».

أجل لقد كان ما حصل قدراً من أقدار هذه الأمة التي وقفت في صفين مترددة في الاختيار الحتم بين علي ومعاوية بين مبادئ الإسلام، والانتهازية، ولكنها ارتكبت خطأً فادحاً ومصيرياً في مأساة التحكيم.

وأعرب أحدهما وهو المسيب بن نجبة الفزاري عن عميق حبه لأهل البيت فقال الحسين عليه السلام:

يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا.

---

١. الدينوري الاخبار الطوال: ٢٠٣.

وقال الحسن مبشراً إيّاه:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب قوماً كان معهم».

وطلب المسيب من الإمام البقاء في الكوفة فاعتذر له الإمام قائلاً:

«ليس إلى ذلك من سبيل»!!

وداعاً أرض السواد

وفي صبيحة يوم كئيب انتظمت قافلة أهل البيت تودع الكوفة.

وخرجت شرائح واسعة من سكان المدينة التي خلعت زي العواصم تودّع خليفة الأمس والرجل ضحى بمجده الذاتي من أجل السلام والأمن.

فلقد كان بإمكانه وهو يملك خزائن الدولة أن يرشي هذا ويشتري ذاك وينفق من أجل الحرب كما فعل خصمه وعدوّه ولكنه آثر السلام وأن يسلّم الزعامة السياسية إلى من تكالبوا عليها ونجحوا في إغواء أمّة بأسرها، فسلّم الحكم ليبني عرشه في قلوب الأحرار وأصحاب المبادئ.. عرفوا ذلك عندما سمعوا معاوية على منبر علي يقول: قاتلتكم لأتآمر عليكم وعرفوا ذلك عندما سمعوه يعلن بوقاحة أنه سيضع كل شروط السلام تحت قدميه. وها هو الآن يغدر، فيطلب من أهل الكوفة الاستعداد لخوض الحروب مع الخوارج وشهدت الكوفة منذ ذلك التاريخ أول تمزّق في النسيج الأخلاقي بعد أن ظهر للعيان التمزق في المشارب الفكرية بين صفوف القوّات التي تحشدت في مسكن وفي المدائن فبينما نجد مجاميع تعشق آل النبي ﷺ وتدين بالولاء لهم نجد

آخريـن ينـظرون إليهم كما لو كانوا كفرة مشـركين، وقد شـجع الانتهازيون وذوو الطمـوح التيـار الثاني من أجل تحقيق المزيد من أهوائهم وأطماعهم، وسـوف نجد إن هذا النسيج يستمر في التمزق إلى أن ظهر بصورته البشعة في عاشورا سنة ٦١ هـ عندما نرى الانتهازيين بالأمس وقد أصبحوا قادة عسكريين لتنفيذ مجزرة ما عرف التاريخ لها نظيراً.

ودفـع سـكان الكوفـة بعد عشرين سـنة ثمـن أخطائهـم الإسـتراتيجية التي ارتكبوها بحق أهل البيت عليهم السلام.

ومـا لنـا نسـتبق الأحداث قبل وقوعهـا ونحن الآن في مطلع ربيـع الثاني من سنة ٤١ هـ حيث يستعد الإمام الحسن عليه السلام للعودة إلى المدينة جدّه الراحل.

ووسـط آهـات الناس الطيبيـن ودموع المخلصيـن انسـابت القافلة لتغادر عاصمـة علـي، وفكـر بعضهم بالهجـرة إلى المدينـة المنورة إن الكوفـة لم تعد وطناً لهم بعد أن غادرها القلب النابض بالحب والسلام.

ومضـت القافلـة تطوي الفلاة حـتى إذا وصلت ديـراً[1] بدا مـن بعيد التفت الإمـام صوب الكوفة ولم يذكر غدرها وتخاذلها إنّما ذكر أصدقاءه المخلصين مـن الذين وقفوا إلى جانبه في كل فصول الصراع فجاشـت العاطفة الإنسـانية في أعماقه وقال بأسى:

ولا عن قلىً فارقت دار معاشري هم المانعون حوزتي وذماري

١. ديـر هنديقـع قريبـاً من الحيـرة عاصمة المناذرة وهند هـي بنت النعمان بن المنـذر اختارت ان تكون راهبة.

وداعاً أرض السواد.. وداعاً أصدقاء المحنة وداعاً يا عاصمة الثورة والتحدي.

يوماً ما سيولد جيل جديد.. جيل يكتشف الحقيقة، وسيبحث عن علي من أجل العودة إلى صفين واستئناف الصراع من أجل تصحيح المسار.. مسار الحضارة الإسلامية.

وأنت أيها السيد. ستبحث عنك المدن الخائفة.. المدن الوحيدة كلما تهددها طوفان الحرب والدمار.. وكلما لاحت في الأفق حمامات الدم.. وداعاً أيها السيد يا صوت السلام الذي همدت له طبول الحرب..

ربما تهيمن أصوات المدافع حيناً من الزمن ولكن البقاء لخرير الجداول.. لذلك الصوت الهادئ الرقيق.

وداعاً سوف تكتشفك الأجيال وستدرك مجدك..

يوماً ما يعرف العالم حجم تضحيتك.. إن ثروات الشرق الأوسط كلها لا تغتال توازنك.. روحك أسمى لأنها جذوة من روح محمد.. محمد الذي تجلّى من خلاله ناموس الوجود.

إن جيلك الذي اختار معاوية هو الذي يتحمل مسؤوليته أمام التاريخ والحضارة.

دعهم أيها السيد يمدّون أيديهم إلى الشجرة الملعونة.. شجرة ظلالها ضلال وظلمات وطلعها كأنه رؤوس الشياطين..

دعهم يجنون ثمارها المرّة..

سوف تشهد الأجيال القادمة من رحم الأيام على مجدك.. لأنه مجد الإنسان الذي صاغه جدك محمد.. وخلده أبوك وداعاً يا سيدي..

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

الإمام الحسين ميلاد الضمير الإنساني

ربما لم يفاجأ سكان المدينة المنورة في منتصف العام الرابع الهجري عندما سمعوا بنبأ ميلاد الصبي الثاني لفاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب‘.. أعني لم يفاجأوا بالاسم الذي لم يطرق أسماعهم من قبل.. فالعرب آنذاك لم تكن تسمّي أبناءها بأسماء مثل «الحسن» أو «الحسين».. وان كان النبي ﷺ مارس منذ الأيام الأولى من بناء المجتمع المدني حركة تغيير ثقافي ضمن مسيرته في إجراء التحولات الكبرى وأصبح المجتمع الإسلامي مستعداً منذ ذلك الوقت لأي خطوة في التغيير.

وقد ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ما أخرجه في طبقاته «الحسن والحسين اسمان من أسماء الجنة ما سمعت العرب بهما في الجاهلية».

أجرى جدّه النبي ﷺ المراسم والطقوس الخاصّة بالمواليد والتي تعدّ في تلك الفترة تأسيسية من ذبح كبش عقيقة عن المولود وحلق شعر وتقديم صدقات للفقراء، فتكون ظاهرة ميلاد الأطفال ابتهاجاً بالنمو والازدهار وتحسيناً للأحوال المعيشية للمجتمع.

وربما سنوجز في هذه المقالة ونقتصر على ذكر أشياء تنتمي إلى التفاصيل الحياتية وهي أُمور عادة ما تهملها المدوّنات التي تنتهج طريقاً لا يلتفت إلّا إلى الكلّيات الشاخصة.

يمكن القول ابتداءً إن ميلاد الإمام الحسين قد بلور بشكل نهائي مفهوم أهل البيت أي أن القرآن لم يتحدث عن طهر أهل البيت ولم يبدأ النبي

التأسيس لمكانتهم الأخلاقية ودورهم الاجتماعي إلّا بعد ميلاد الحسين في ٣ شعبان عام ٤ هـ حيث بدأ النبي من خلال أحاديث متواترة وكثيرة التركيز على شخوص أهل البيت الذين يتمثلون بهذه الأسرة الكريمة.

فعندما يفتح المرء سجل التاريخ الإسلامي من خلال مدوّناته الكبرى يطالعه مثلاً زواج علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء عام ٢ هـ وهو زواج تم وفقاً لثقافة الإسلام الجديدة وعُدّ من أهم الأحداث في ذلك العام من تاريخ الإسلام.

وفي العام الرابع الهجري لم تذكر المدونات التاريخية حادثاً واحداً سوى ميلاد الإمام الحسين[1] إذا أهملنا الوقائع العسكرية بطبيعة الحال ومن المفيد هنا دراسة هذه الرواية التي وردت في كتاب «الإصابة في معرفة الصحابة» لابن حجر في روايته عن أسماء بنت عميس زوجة الشهيد جعفر الطيار قالت: «فجاءني النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا أسماء هاتي ابني فرفعته إليه في خرقة بيضاء فاستبشر به وأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ثم وضعه في حجره وبكى، قالت أسماء فقلت: فداك أبي وأمي مم بكاؤك، قال: على ابني هذا، قلت انه ولد الساعة، قال: يا أسماء تقتله الفئة الباغية لا أنالهم الله شفاعتي ثم قال: يا أسماء لا تخبري فاطمة بهذا فإنها قريبة عهد بولادته»[2][3].

---

١. راجع موسوعة احداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، د. عبد السلام الترمانيني.

٢. الإصابة في معرفة الصحابة.

٣. والحقيقة ان أسماء هذه هي أسماء السكونية الأنصارية أما أسماء بنت عميس فما تزال في الحبشة ولم تصل إلى المدينة إلّا في أواخر سنة ٦ هـ.

وفي حياة النبي صلى الله عليه وآله كان سيدنا الحسين عليه السلام إذا خاطب أباه قال: يا أبا الحسين وكان الحسين إذا خاطب أباه قال: يا أبا الحسن، فلما انتقل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى كانا يخاطبان أباهما: يا أبت. أمّا الإمام علي عليه السلام فقد ظل يعاملهما باعتبارهما ولدي رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومنذ فترة مبكرة كان النبي صلى الله عليه وآله ما انفك يؤكد على أمته بالتمسك بركنين أساسيين يكفلان حالة الاستقامة في المسيرة؛ الأول: كتاب الله العزيز والثاني أهل البيت، ونحن لا نريد القول بان النص القرآني صامت ولكن عندما تتعدد القراءات تكون القراءة الأصوب هي قراءة أهل البيت عليهم السلام.

وما يجدر الانتباه إليه أيضاً إن الإمام الحسين وقد كان في التاسعة من عمره أي في عام ١٣ هـ يمارس دوراً نقدياً عندما يقوم بخطوة مدهشة في تصديه إلى الخليفة الثاني وكان يخطب من فوق منبر النبي صلى الله عليه وآله قائلاً له: انزل من منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك!

ويحاول الخليفة الثاني تحرّي الموضوع بدقة فيصطحب معه الفتى إلى منزله وهناك يسأله عمن علمه ذلك الكلام فيجيب سبط النبي بشجاعة وصراحة:

والله ما علمني أحد.

ويطلب الخليفة منه بعد ذلك أن يزوره في منزله، ويلبي الفتى هذه الدعوة ليروي فيما بعد هذه الحادثة عن تلك الفترة قائلاً: «أتيته يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر فرجعت مع ابن عمر، فقال: أنت

أحق من ابن عمر فإنما أنبت ما ترى في رؤوسنا الله، ثم أنتم»[1].

وهذه من الوقائع التي ينبغي دراستها لأنها تشع بعدّة دلالات إذا قرئت بتأنٍ وإمعان.

ولعل من أبرزها إن الإمام الحسين قد واكب التغيرات بوعي وقد سجل بعض الحوادث ليرويها فيما بعد وتصبح جزءً من وثائق التاريخ.

ولا نعيد تكرار اشتراك الإمام الحسين شاباً في معارك الفتح الإسلامي في الشرق والشمال الأفريقي فقد أثبتته المدونات الكبرى.

من هنا يكون من الضروري رسم المشهد العام لزمن الإمام الحسين واستعراض التحولات الهامّة والوقائع التي واكبت ولادته إلى الحادية والعشرين أو حتى الرابعة والعشرين من عمره الشريف على أساس إن الشخصية النهائية للفرد قد استكملت تبلورها تماماً في هذه السن.

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل علم الوراثة ومعطيات التربية فأمّه السيدة فاطمة الزهراء وعلى معرفتها دارت القرون وأبوه علي بطل الإسلام وسيفه الذي لا يقهر وجدّه محمد آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان وذروة ما وصل إليه البشر في التكامل الإنساني، بهذا الزخم الأخلاقي دخل الحسين أبواب الحياة والتاريخ.

وإذا أردنا أن نؤشر على المحطات الهامّة في حياة السبط فستكون

---

١. د. بيومي مهران/ الإمام الحسين: ٤٩.

حادثة رحيل النبي صلى الله عليه وآله أولى الحوادث التي هزّت بقوّة روح الصبي فقد شهد انعكاس هذه الحادثة على والدته السيدة الزهراء التي تعرضت بعد أيام إلى محنة اقسى بعد صدمة السقيفة التي أحدثت انقساماً حقيقياً في الرأي العام الإسلامي وحادثة السقيفة مهما كانت من القوة فلا يمكن أن تلغي حادثة الغدير التي سبقتها بسبعين يوماً فقط.

وخلال الفترة المريرة التي تلت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وقعت بعض الحوادث المؤسفة كالهجوم على الدار وربما سمع التهديدات بإضرام النار لإرغام والده على البيعة للخليفة الأول بل أن «مالك بن نبي»[1] اعتبر سقوط المجتمع الإسلامي تحت نير الاستعمار كان نتيجة لما حصل في صفين: إن المجتمع الإسلامي عاش التردد في الاختيار.. الاختيار الحتم بين علي ومعاوية.. بين المدينة ودمشق بين الحكم الديمقراطي والحكم الدكتاتوري الفردي ولكن المجتمع الإسلامي ومع بالغ الأسف اختار الطريق الذي يؤدي به إلى القابلية للاستعمار ثم الاستعمار.

ونستطيع في هذه المناسبة أن نجري تعديلاً حول المخطط العام الذي قدمه المفكر الجزائري الراحل ليعكس وجهة نظر أخرى في المنحنى التاريخي للحضارة الإسلامية:

وسوف ندخل مساحة ما من الجدل حول مبررات التعديل لا مجال لها الآن فالمخطط الجديد على الأقل يعكس وجهة نظر يشترك فيها كثيرون من

١. المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي ولد في قسنطينة عام ١٩٠٥ وتوفي عام ١٩٧٣.

الذين يأخذون بنظر الاعتبار مسار أئمة أهل البيت ودورهم الحضاري الذي امتد حتى سنة ٣٢٩ بشكل متواصل.

ومن أبرز المبررات أن ثورة الحسين لا يمكن القفز عليها أبداً فقد أحدثت هزة في الضمير كما أحدثت زلزالاً فكرياً وأسست للمشروع الثوري في الحضارة الإسلامية، بحيث نجد بالرغم من انحطاط المؤسسة الحاكمة استمرار الحركات الثورية بل إن إحدى الثورات الكبرى قضت على الحكم الأموي نفسه وكان الحسين يمثل المخزون الأخلاقي في نفوس الكثيرين، واستمرت الحركات الثورية إلى أن وصل المجتمع الإسلامي حالة من الركود والجنوح العام للنوم، حيث نجد انحساراً ملفتاً للنظر للحركات الثورية في عصر الغيبة؛ إذ اتجهت الحضارة الإسلامية نحو المغيب وكان سقوط بغداد تحت سنابك الغزو المغولي غروباً لشمس الحضارة ليجثم الظلام الدامس على بلاد الإسلام.

وفي رأي الكثيرين إن ملحمة عاشوراء إنّما دخلت التاريخ الإسلامي لتبلور بشكل نقي جداً الضمير المسلم وتصبح حادثة ألطف بكل ثقلها الأخلاقي والإنساني شمساً خالدة تمدّ الأجيال بالحرارة والنور، ومصدر الهام مستمر؛ وليس هناك ما هو أوضح من الثورة الإسلامية حيث يصرح قائدها الإمام الراحل بأن كل ما عندنا هو من عاشوراء.

اذن فعاشوراء ملحمة إنسانية دخلت بزخم حضاري هائل لتصبح حدثاً كبيراً ليس في التاريخ الإسلامي فحسب بل والتاريخ العالمي ومن هنا ينبغي

أن ننظر إلى الحديث النبوي الشريف «حسين مني وأنا من حسين».

لقد بلورت عاشوراء الضمير الإسلامي الإنساني وعبأته بقوة روحية كان جوهرها الحب الإلهي؛ وقد اشتهرت مقولات المهاتما غاندي:

«استقيت صبري من صبر الحسين»، أو «علّمني الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر».

إن التحليل وفق المنهج الرياضي لن ينهض في تفسير خطوة الحسين عليه السلام ولن يستطيع وفقاً لأدواته أن يحيط بأسرار وعمق هذه الخطوة الإنسانية المدهشة والتي تعدّ إذا حللت وفق المعطيات المادّية حركة بعيدة عن (العقلانية) وغير محسوبة النتائج.

ولكن الحسين كان يتحرك بزخم الرسالات الإلهية ومن يتأمل في خطابة يوم ١٠ محرم سنة ٦١ هـ سيجد كل ملامح الأنبياء وأصداء كلماتهم كما نقلها القرآن الكريم.

بعبارة واحدة كان الحسين مسكوناً بالحب الإلهي هذا الحب الذي دفعه لافتداء الإنسانية وتحريرها من أسر الغرائزية وسلاسل الطين والأدران.

ومن المؤكد أن الأسفار الأربعة لصدر المتألهين ستكون أداة هامة في تحليل شخصيات من قبيل الإمام الخميني الراحل والسيد الشهيد محمد الصدر ومن قبل وبوضوح أكثر ألقاً شخصية السيد الشهيد محمد باقر الصدر حيث يشكل سيدنا وإمامنا الحسين مساحة كبرى من شخصيته.

غير مخصص للبيع او الطباعة
لنشر آثار كمال السيد

وقد عبر الإمام الحسين عليه السلام عن هذا الحب في ظهيرة عاشوراء عندما هتف: وهو يقاتل وحيداً جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف ذئب أغبر وما تزال الأجيال عبر التاريخ تردد بأعجاب الكلمات الخالدة:

أنا الحسين بن علي آليت ألا انثني

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

وهذا دعاؤه في عرفات قبل أن يتجه إلى العراق شاهداً خالداً على ما وصل الحب الإلهي في أعماقه.

يقول وهو يرنو ببصره إلى الكعبة العظمى:

كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟!

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!

عميت عين لا تراك!!

ويتساءل بلهجة الواله الذي لا يرى في العالم سوى محبوبة:

«ماذا فقد من وجدك؟! وماذا وجد من فقدك؟!»[1]

يقول الروائي همينغواي في روايته الشيخ والبحر: «من الممكن تدمير

١. دعاء الإمام الحسين يوم عرفة / مفاتيح الجنان.

الإنسان ولكن من المستحيل هزيمته».

وقد تجلّت هذه المقولة بأروع صورها في ظهيرة عاشوراء العظمى عندما رضت عشرة من الخيول بسنابكها صدر الحسين ومزقت جسده الطاهر، ولكن الحسين الإنسان والثورة والمقاومة ما يزال يقاتل ببسالة ويحقق الانتصارات عبر فصول التاريخ.

الوعي.. الإرادة

هناك مسألة أخرى هي مسألة الوعي والإرادة ونحن ندرك إن مشكلة الظلم تحتاج إلى بحث فليس كل الأقوام تستشعر وقع الظلم بحجمه الحقيقي وفي كل مقاطع التاريخ بنفس النسبة.. والشواهد في هذا الباب أكثر من أن تحصى من التاريخ القديم والحديث.. بعض الشعوب وفي مراحل تاريخية كانت تستسيغ الظلم لأنها لا تشعر به يعني أنّ هناك منظومة فكرية وفلسفية تملك من المبررات ما تجعل المؤمنين بها يستمرؤون الظلم.. يمكن أن نقول هناك ثقافة سائدة تمتص وخزات الظلم وقد عاش المسلمون في بعض الحقب التاريخية مقولات قوية من قبيل إنها مشيئة الله، إرادة الله، وهذا قضاؤه سبحانه!

اذن وجود الظلم وحده لا يكفي كمبرر وحيد للثورة، وإنّما الشعور بالظلم ثم تأتي مسألة الإرادة.. ربما يحصل وعي للظلم وفداحته ويتبلور إحساس كاف به، في مقابل تراجع وانحسار للإرادة لأسباب منها الخوف الذي ينجم بدوره عن ثقافة أخرى ليست نابعة من جوهر الرسالة الإسلامية فثقافة حب الدنيا

ثقافة تتناقض في الصميم مع ثقافة الحب الإلهي هذه الثقافة التي أسس لها الإمام الحسين وجدانياً فالتأسيس الفكري لها إنّما حصل في زمن النبي صلى الله عليه وآله وفي تجربة الإمام علي ونجله الحسن عليه السلام عندما عكس جانباً منها بطريقة نادرة تجسدت في استهانته بثروات الشرق الأوسط كلّها في سبيل الدفاع عن المدن الآمنة وصيانة الوحدة الإسلامية من الأخطار المحدقة.

وقد المحنا إلى تجربة الإمام الخميني الذي لم يكتب لثورته النصر لولا تلك الثقافة التي استغرقت كل وجوده[1].

كما انه ليس من المصادفات إن يحاول الإمام الشهيد محمد باقر الصدر في السبعينات استلهام خطوة الحسين مأخوذاً بمشهده العاشورائي فجاءت آخر كلماته إدانةً لحب الدنيا في آخر محاضرة له قبيل استشهاده. وقد أشار بوضوح إلى أن ثقافة الحب الإلهي والاستشهاد هو الطريق الوحيد لإنقاذ العراق من برائن العصابة اللاإنسانية.. «ما هي الدنيا؟ مجموعة من الأوهام.. لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين»[2].

التأسيس الصوفي

وهناك مسألة أخرى أيضاً ينبغي الالتفات إليها وهي إمكانية التأسيس الصوفي الذي يحاول الإيحاء دائماً بان الحسين قد استلم أمرا خاصّاً به أسفر عن ملحمة عاشوراء.

---

١. انظر: «عاصفة السلام» للمؤلف.

٢. الحسين يولد من جديد / عن محاضرة للإمام الشهيد حول حب الدنيا.

وبالرغم من النصوص الكثيرة التي تكشف عن مبررات الثورة من قبيل قوله عليه السلام: «وإنَّما خَرَجتُ لِطَلَبِ الإصلاح فِي أمّة جدّي أُرِيدُ أَن آمُر بِالمَعرُوفِ وَأَنهي عَنِ المُنكَرِ، فمَن قَبِلَني بِقَبُولِ الحَقِّ فَالله أولي بِالحَقِّ وَمَن رَدّ عَلَيّ هذا أَصبِرُ حَتّى يحكم الله وَهُوَ خَيرُ الحاكِمِينَ».

مع الاعتراف بوجود نصوص يمكن قراءتها صوفياً.

«شاء الله أن يراني قتيلاً، وشاء الله أن يراهن سبايا».

«كأن بأوصالي تقطعها العسلان بين النواويس وكربلاء».

رأيت جدّي في منامي وقد أمرني بأمر وأنا ماضٍ فيه.

«إن لك في الجنة درجة مغشاة بنور الله لا تنالها إلّا بالشهادة»[1].

وإذا كانت صفين تعني سقوطاً حضارياً وتغيراً في الاتجاه النفسي للمجتمع الإسلامي، فإن صعود يزيد يكشف عن تغيّر جوهري في الذهنية الإسلامية وانفصالاً مريعاً بين الإرادة والوعي.

وهذا التغير الذهني لن يدع فرصة للصبر ولا مبرراً للفقيه بل يستدعي المواجهة السريعة مهما كلف الثمن.

«أود لو غرقت في دمي إلى القرار واحمل العبء ومع البشر وابعث الحياة إن موتي انتصار»[2].

---

١. عبد الرزاق المقرّم / مقتل الحسين.

٢. ديوان الشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السياب ج ٢، «النهر والموت».

لقد عمل معاوية بعد انتصاره على ترسيخ ثلاثة مفاهيم كبلت أو شوهت التفكير الحرّ والأصيل.

١- مفهوم طاعة الأئمة. (الإمام = الحاكم)

٢- لزوم الجماعة.

٣- حرمة نقض البيعة.

وهذه المفاهيم جميعاً واجهها الإمام الحسين بأسلوب ثوري فريد وتمكن من الحاق هزيمة بها ولكن بثمن باهظ.

ومن هنا يقال: «إن الدين محمدي الوجود حسيني البقاء».

هذه المفاهيم هي الأعمدة التي نهضت عليها الخلافة الأموية بعد أن تم إفراغها من معانيها الحقيقية.

«ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى منه».

«إن السنة قد أميتت وان البدعة قد أحييت».

لقد أصبحت طاعة الإمام في ظلال الحكم الأموي قبل الثورة تعني الانقياد التام إلى الجهاز الحاكم حتى لو تمادى في الظلم، بينما التفكير الأصيل يستدعي وضع الإمام في شروطه الخاصة وظروفه الطبيعية كاشتراط العدالة في سيرته وسلوكه ومنهجه الإداري.

وهكذا بالنسبة إلى تعزيز الجماعة.. إلى أي مدى يستمر وهل سيكون

مسوّغاً في حالة وجود نظام دكتاتوري مستبدّ غاشم!

وهل يعد كل صوت يرتفع بالاعتراض على هذا اللون من الحكم إقداماً يهدد وحدة الجماعة؟

ثم يأتي المفهوم الثالث الذي يقضي بحرمة نقض البيعة ونحن نعرف أن البيعة يجب أن تكون في ظروف طبيعية باعتبارها عهداً قلبياً ووجدانياً فإذا أخذت البيعة بالقوة فإنها حينئذٍ تفقد شرعيتها وشروطها القانونية.

عائشة زوجة النبي ﷺ كانت تمثل مركزاً ثقافياً له وزنه في حوارها مع معاوية بعد أخذ البيعة ليزيد بوسائل إرهابية واجهها بالسؤال الاستنكاري:

أترضين أن يخلع الناس عهودهم؟!

لا أرضى ذلك ولكن عليك بالرفق!

وكانت صيحات قائد الجناح الأيمن في جيش الدولة تهدر في ساحة المعركة يوم عاشوراء:

الزموا طاعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرق عن الدين وخالف الإمام (يزيد)!

وإلى فترة زمنية ليست قصيرة اعتبرت ثورة الإمام الحسين خروجاً على الشرعية!

وهكذا نجد التفكير الديني ينحرف بطريقة مقلقة عندما يصرح معاوية أمام الرأي العام: إن بيعة يزيد قضاء من القضاء أي إنها قدر الهي لا يجوز الاعتراض عليه!

غير إن خطوة الإمام الحسين بكل زخمها الأخلاقي أضحت مركز إشعاع داخل الفكر والضمير الإسلامي وسنجد إن انعكاساتها لدى المتلقي تابعة إلى طبيعة تكوينه، فبينما تفوح «الورود» بالعبير تحت أشعة الشمس تموت «الجراثيم».

فالقرآن الكريم كما تصفه الآية الكريمة هو: «رحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً».

إن واقعة عاشوراء تنطوي على خطاب إنساني خالد مكنه من مواكبة التاريخ وبالرغم من الإشعاعات الأولى لثورة الإمام الحسين كانت تنقل البعد المأساوي الذي فجّر مكامن الحزن وأسال الدموع وهذا ما نجده في بواكير الكتب التي أرخت للثورة وتحت عناوين واضحة الدلالة: «مثير الأحزان»، «اللهوف»، «طوفان البكاء» و«محيط البكاء».

فيما الكتابة عن هذه الواقعة في العصر الحديث تتحرك في أفق أوسع فنجد «فلسفة الثورة لدى الحسين»، «ملحمة الحسين»، «الدم أقوى من السيف» و..

مع التأكيد على إن الإمام الحسين وفي مرحلة مبكرة عبّر عن رمزية الصراع يعني إن خطوته لا تمثل صراعاً شخصياً أو حتى صراع يرتبط بمقطع تاريخي وظروف خاصة ولا يمثل كذلك حالة فريدة تختص به وإنّما استخدم تعبير المثلية منذ حادثة القصر في المدينة المنورة، عندما أعلن بصراحة ووضوح قائلاً: «إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، ويزيد رجل فاسق معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله».

فالإمـام الحسـين فـي خطوتـه إنّمـا كان يحـاول التأسـيس لشـرعية الـثورة ومواجهة أوضاع تشبه الأوضاع التي سادت في زمن يزيد أو أدت إلى صعوده، كمـا يرمـز إلى إمكانيـة الاسـتلهام لأي إنسـان ينبـض ضميـره بهاجـس الثورة للقيام بخطوة تشبه إلى حدّ كبير خطوة الإمام الحسين ثم لا تُعدّ خطوته جنوناً أو انتحاراً أو مغامرة.

وقد سـطع في سـنة ١٩٨٠ مثال أخّاذ وكان رائد تلك التجربة وبطلها الشهيد محمد باقر الصدر الذي استشهد في ظروف تاريخية مشابهة للمشهد العراقي في سنة ٦٠ هـ[1].

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
كلمات
غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. انظر: الحسين يولد من جديد / المؤلف.

ساعة الصفر

قصة مسلم بن عقيل جزء لا ينفك من الملحمة الحسينية الخالدة وساعة الصفر في يوم عاشوراء أطول يوم في التاريخ المدينة المنورة: ١٥ رجب ٦٠ هـ المصادف ٢١ نيسان ٦٨٠ م.

الإمام الحسين عليه السلام يرى في عالم الرؤيا قصر معاوية في دمشق وقد اشتعلت فيه النيران ويرى منبره منكوساً[١].

دمشق: ١٥ رجب ٦٠ هـ المصادف ٢١ نيسان ٦٨٠ م.

الإعلان عن موت معاوية بن أبي سفيان، وجلوس ابنه على كرسي الحكم[٢].

■ المدينة المنورة: ٢٤ رجب ٦٠ هـ ٢ أيار ٦٨٠ م.

قصر الحاكم: الوليد بن عتبة يتسلم رسالة من يزيد بن معاوية بأخذ البيعة بالقوة من الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير. وعلى الفور أرسل الحاكم مبعوثه إلى الإمام الحسين. الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير في مسجد النبي صلى الله عليه وآله قبل منتصف الليل. مبعوث الحاكم يدخل المسجد يطلب حضورهما في القصر. عبد الله بن الزبير يعبر عن خشيته من عملية اغتيال. الإمام الحسين يخبره بموت معاوية وفقاً لتعبير الرؤيا.

---

١. مقتل الخوارزمي، ج ١: ١٨٢.

٢. البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٨: ١٤٣.

■ المدينة المنورة بعد منتصف الليل: الإمام الحسين ومعه ثلاثون من أهل بيته وأنصاره وبكامل أسلحتهم يتجهون إلى قصر الحاكم. الإمام الحسين يأمرهم بالبقاء عند الباب واقتحام القصر إذا علا صوته.

الإمام الحسين يدخل القصر يمسك بيده بقضيب كان لرسول الله ﷺ يجلس في مقابل الوليد بن عتبة حاكم المدينة الذي لم يكن وحده كان إلى جواره مروان بن الحكم.

وبعد أن استقر المجلس بالإمام نعى الوليد معاوية ثم عرض عليه البيعة ليزيد.

الإمام الحسين: مثلي لا يبايع سرّاً، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً.

الوليد يسكت مقتنعاً بموقف الإمام، مروان يتدخل ويحرّض على اعتقال الإمام أو تصفيته وقتله!

الإمام بصوت عال مخاطباً مروان وقد نهض من مكانه:

يا بن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟

ويخاطب الحاكم قائلاً:

أيها الأمير إنا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا يختم ويزيد شارب الخمور قاتل النفس المحرّمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله.

اقتحم تسعة عشر رجلاً مسلحاً القصر لحماية الإمام الحسين، ثم غادروا إلى دار الإمام عليه السلام.

مروان للوليد: لقد عصيتني قلت لك اقتله. لن تجد فرصة أخرى.

الوليد مستنكراً: أتريدني أقتل الحسين لأنه قال: لا أبايع؟!

لا أظنّ إن امرءً يحاسبه الله بدم الحسين إلّا خفيف الميزان يوم القيامة!

مروان مستهزءً: إذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما فعلت!!

مدينة الكوفة: ١٩ رجب ٦٠ هـ ٢٧ نيسان ٦٨٠ م.

منتصف الليل، والكثيرون من أهل هذه المدينة ما يزالون مستيقظين وبخاصة الزعامات السياسية من الموالين للنظام الأموي ومن المعارضين وحتى من الطموحين والانتهازيين الذين يتطلعون إلى قيام نظام جديد يحقق لهم أهدافهم والمزيد من الثروة والنفوذ والمواقع الحكومية: الجميع يترقبون حصول حادثة ما، لن يمرّ موت معاوية دون أن يخلّف وراءه حدثاً ما؛ وما هذا الهدوء إلّا نتيجة المفاجأة، لأن جلوس شخصية تافهة في مستوى يزيد أمر سوف يصدم الكثيرين خاصّة في مدينة الكوفة التي كانت عاصمة الدولة قبل عشرين سنة!

■ المدينة المنورة: ٢٦ رجب ٦٠ هـ ٤ أيار ٦٨٠ م.

عبد الله بن الزبير يستدعى من قبل حاكم المدينة فيراوغ ويستمر في مراوغته إلى أن يقرر الفرار من المدينة المنورة وتنشغل الحكومة المحلّية

بملاحقته.

الإمام الحسين عليه السلام يستعد للرحيل إلى مكة المكرمة مع أسرته! وسُمع الإمام وهو يدخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله يتمثل شعراً ليزيد بن مفرغ:

لا ذعرتُ السوام في فلق الصبح مغيراً ولا دُعيت يزيدا

يوم أعطي مخافة الموت ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا

فأدرك الذين سمعوه أنه يريد أمراً عظيماً.

■ السبت ٢٨ رجب ٦٠ هـ ٦ أيار ٦٨٠ م.

قافلة الإمام الحسين التي تشتمل على أهل بيته وأسرته تغادر المدينة المنورة ليلاً وعندما استوت القافلة على الطريق العام تلا الإمام الحسين قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ هذه الآية تتحدث عن خروج سيدنا موسى بن عمران إلى أرض مدين.

■ مكة المكرمة ٣ شعبان ٦٠ هـ ١٠ أيار ٦٨٠ م.

الإمام الحسين يدخل مكة المكرمة ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾.

ونزل دار العباس بن عبد المطلب[1]. لتصبح مركزاً يقصدها أهل مكة والمعتمرون والقادمون من جميع الآفاق، لزيارة بيت الله الحرام.

---

١. تاريخ ابن عساكر، ج ٤: ٣٢٨.

■ الكوفة ١٠ شعبان -١٠ رمضان المبارك ٦٠ هـ ١٧ أيار- ١٧ حزيران ٦٨٠ م.

خبر رحيل الإمام الحسين إلى مكة وامتناعه عن البيعة ليزيد يلهب ضمير الرأي العام في مدينة الكوفة، حيث تم عقد أول مؤتمر شيعي غير علني بدعوة ورعاية الصحابي الجليل سليمان بن صرد الخزاعي وقد ضم المؤتمر شخصيات موالية لأهل البيت في طليعتهم رفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر الأسدي والمسيب بن نجبة الفزاري.

وقد تمخض عن المؤتمر رسالة موجهة إلى الإمام الحسين مفادها أن الرأي العام في الكوفة لا يعترف بشرعية يزيد ولا حتى النظام الأموي ويدعوه إلى القدوم والحضور لتأسيس نظام يقوم على عدالة الإسلام وان حكومة النعمان بن بشير فاقدة للشرعية وقد تمت مقاطعتها وانهم على استعداد لطرده بمجرد وصول خبر استجابة الإمام والإعلان عن قدومه إلى العراق وقد حمل الرسالة كل من عبد الله بن سبيع الهمداني (استشهد يوم عاشوراء) وعبد الله بن وال التميمي (القائد الثالث لقوات التوابين في معركة عين الوردة).

وبعد يومين انطلق قيس بن مسهر الصيداوي وعمارة بن عبيد السلولي يحملان زهاء مئة وخمسين رسالة موقعة من قبل أفراد وجماعات تشتمل على مضمون واحد تقريبا.

ويبدأ سيل من الرسائل يتدفق نحو مدينة مكة المكرمة، وكلّها تتضمن دعوة الإمام في القدوم إلى الكوفة وقيادة المجتمع إدارياً وسياسياً. وتضمنت هذه الرسائل إشارات إلى عدم الاعتراف بمشروعية الحكم الأموي والإرادة في

التغيير.

وصل عدد الرسائل زهاء اثنتي عشر ألف رسالة بعضها موقع بثلاثة تواقيع وبعضها الآخر يحمل عشرات التواقيع. ويعكس هذا الزخم من الرسائل توجهاً شعبياً باتجاه التغيير واستفتاءً عاماً حول نوع النظام الذي تتطلع إليه الجماهير في الكوفة.

■ مكة المكرمة ١٥ رمضان ٦٠ هـ ٢٢ حزيران ٦٨٠م.

كان الإمام الحسين يتلقى عشرات الرسائل يومياً وقد وصلته في أحد الأيام ستمائة رسالة وكانت الرسل تفد عليه وفي ١٥ رمضان كان آخر الرسل كل من هانئ بن هانئ السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي وكانت آخر رسالة تسلّمها تعود إلى كل من شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج ومحمّد بن عمير بن عطارد، وفيها:

إن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل يا ابن رسول الله فقد اخضرّ الجناب وأينعت الثمار وأعشبت الأرض وأورقت الأشجار[1].

كتب الإمام الحسين رسالة جوابيه إلى عموم أهل الكوفة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي، إلى الملأ من المؤمنين أما بعد، فإن هانئاً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم.. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي

١. مقتل الخوارزمي، ج ١: ١٩٣ وما بعدها.

وثقتي من أهل بيتي وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم، فان كتب أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكاً أن شاء الله![1].

■ مكة المكرمة ١٥ رمضان ٦٠ هـ ٢٢ حزيران ٦٨٠م.

مسلم بن عقيل بن أبي طالب يجتمع بالإمام الحسين عليه السلام بحضور بعض أنصار الإمام عليه السلام يخاطب ابن عمه بعد أن سلّمه رسالته إلى أهل الكوفة:

إني موجهك إلى أهل الكوفة وسيقضي الله من أمرك ما يحب ويرضى، أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء فامضِ على بركة الله وعونه. فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها.

وأمره بتقوى الله والنظر فيما اجتمع عليه أهل الكوفة، وإحاطته علماً بذلك، وقد أرسل بمعيته كلاًّ من قيس بن مسهر الصيداوي وعمارة بن عبد الله السلولي وعبد الرحمن بن عبد الله الأزدي.

■ المدينة المنورة ٢١ رمضان ٦٠ هـ ٢٨ حزيران ٦٨٠م.

مسلم بن عقيل يصل المدينة المنورة في ذكرى استشهاد عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان مسلم قد فقد أباه قبل حوالي شهرين.

مسلم يستأجر دليلين لسلوك طريق آمن بعيداً عن الدوريات العسكرية.

وذات ليلة أضاع الدليلان الطريق، وأشرقت شمس تموز اللاهبة على

١. مقتل الخوارزمي، ج ١: ١٩٦.

القافلة الصغيرة وهي حائرة في فلاة جرداء، وبعد سير شاق ومعاناة شديدة من العطش والحرّ، سقط الدليلان أرضاً وعجزا عن مواصلة السير غير أن بعض العلامات التي تشير إلى ما يفضي إلى الطريق قد لاحت لهما، فقالا لمسلم:

عليك بهذا السمت فألزمه فانه ينتهي بك إلى الماء.

وسار مسلم ومن معه في الاتجاه الذي أشار إليه الدليلان وبان لهم الطريق المؤدية إلى مكان يدعى المضيق في وادي الخبيت. ويبدو أن الدليلين قد سلكا خطأً طريقاً باتجاه مكة!

وصل مسلم بن عقيل ومن معه من أنصار الإمام الحسين عليه السلام إلى المضيق، ورأى مسلم أن يكتب رسالة إلى الإمام الحسين حول مستجدّات الأوضاع وبعض تفاصيل رحلته التي ربما قد أثرت على بعض التوقيتات؛ فكتب عن وصوله إلى منطقة المضيق بعد أن أضاع الدليلان الطريق ومن ثم موتهما عطشاً ووصوله إلى منطقة «الخبيت» في آخر رمق ولذا فانه سيبقى مقيماً بانتظار أوامر الإمام عليه السلام وانطلق قيس بن مسهر الصيداوي إلى مكة ليوصل رسالة سفيره مسلم بن عقيل.

الإمام يوجه رسالة جوابية يحثه فيها على مواصلة الطريق أما قيس بن مسهر فيبقى مع الإمام الحسين ليرافقه في رحلته إلى الكوفة فيما بعد.

■ الكوفة ٥ شوال ٦٠ هـ ٩ تموز ٦٨٠م.

مسلم بن عقيل يصل الكوفة ويحلّ ضيفاً على الزعيم الشيعي الكبير

المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

وانتشر خبر وصول مسلم إلى مدينة الكوفة وحلوله في دار المختار المجاورة للمسجد الأعظم: وكان المختار كما يبدو ما يزال يتمتع بنفوذ إلى حدّما باعتباره صهر حاكم الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري.

وبدأت الوفود تتجه إلى دار المختار التي تحولت مركز للاجتماعات والتداول بشأن الأوضاع السياسية والتمهيد لقدوم الإمام الحسين عليه السلام.

وتلا ذلك البدء بتنظيم حركي سرّي ومسلّح وفتح سجلّ للأعضاء، وكان سفير الإمام يتحرك بحذر ويتصل باستمرار بزعامات معروفة في طليعتها المختار ومسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر وأبي ثمامة الصائدي وآخرين.

■ الكوفة ٦ ذي القعدة ٦٠ هـ ٨ آب ٦٨٠م.

التقارير تصل إلى قصر الإمارة حول نشاطات يقودها مسلم بن عقيل تهدف إلى قلب نظام الحكم.

شخصيات موالية للنظام الأموي تبعث بتقارير إلى دمشق تحذر من تحركات مسلم بن عقيل وضعف الحكومة المحلّية التي يقودها النعمان بن بشير الذي اكتفى بإلقاء كلمة في مسجد الكوفة حذر فيها من الفتنة.

النعمان بن بشير أعلن بصراحة انه لن يتحرش بأي أحد وانه لن يقوم باعتقال أحد على خلفية بعض التقارير الأمنية لكنه سوف يضرب بيد من حديد كل من تسوّل له نفسه إثارة الاضطرابات والإخلال بالنظام والأمن العام.

يعترض أحد الموالين للنظام ويتهم النعمان بالضعف، انه عبد الله بن مسلم الحضرمي (أحد الشهود على حجر بن عدي الصحابي الشهيد الذين وقعوا على تقرير زياد بن أبيه إلى معاوية والذي انتهى بإعدام حجر ورفاقه في مرج عذراء قرب دمشق عام ٥١ ه) ويطالب الحاكم بشن اعتقالات كيفية وتوجيه ضربة استباقية وإعدام بعض الشخصيات وإشاعة الخوف. النعمان يرفض جملة وتفصيلاً هذه السياسات الظالمة ويصرّ على إنتاج سياسة معتدلة نسبياً.

■ الكوفة ٧ ذي القعدة ٦٠ هـ ٩ آب ٦٨٠ م دار المختار الثقفي.

مسلم بن عقيل وبعض الزعامات والشخصيات الموالية لأهل بيت النبي ﷺ يعقدون مؤتمراً كبيراً للتداول في موضوع الرسائل والموقف من حركة الإمام الحسين عليه السلام وسادت أجواء المؤتمر مشاعر أمل بغد مشرق، وأصغى الحاضرون بشوق إلى رسالة الإمام الحسين إلى الملأ من المسلمين والمؤمنين.

والتي ورد فيها: «.. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم..».

وانخرط الحاضرون بالبكاء في فورة عاطفية ربما تشير إلى مدى شوقهم وتطلعهم إلى اليوم الذي يرون فيه ابن رسول الله وينعموا بنظام حكم وحياة تسودها العدالة، بعد أن عاشوا في ظل حكم ظالم غاشم عانوا ما عانوا خلاله من القهر والاضطهاد والفقر..

والآن يتعين على المجتمعين والحاضرين بيان مواقفهم، نهض عابس بن شبيب الشاكري وألقى كلمة عبر عن موقفه بدقة بعيداً عن الانفعال العاطفي قائلاً بعد الحمد والثناء:

إني لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما في أنفسهم وما أغرّك منهم.. والله إني أحدثك عمّا موطن نفسي عليه؛ والله لأجيبنكم إذا دعوتم ولأقاتلنّ معكم عدوكم، ولا ضربنّ بسيفي دونكم، حتى ألقى الله لا أريد بذلك إلّا ما عند الله».

ولقد هزّت هذه الكلمات مشاعر الشيخ الوقور حبيب بن مظاهر الأسدي الذي نهض قائلاً له:

رحمك الله قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك.

ثم خاطب مسلم بن عقيل قائلاً:

وأنا - والله الذي لا اله إلّا هو- على مثل ما هذا عليه.

ونهض اثر ذلك سعيد بن الله الحنفي فكرر موقف الرجلين وتسارعت وتيرة النشاط في تنظيم الحركة التي كانت تركز توجهاتها في تسجيل المؤيدين وأخذ البيعة والميثاق منهم إضافة إلى البحث عن مصادر لتمويل عمليات شراء السلاح وتحديد ساعة الصفر.

وقد أثبتت سجلات التنظيم أسماء آلاف من المعارضين للحكم الأموي ناهزت أعدادهم ثمانية عشر ألفاً وربما أكثر من ذلك بكثير[1].

١. يبدو من خلال دراسة للمراحل التي مرّت بها تحركات مسلم ان الذين بايعوا مسلماً قد بلغ هذا

■ دمشق ٢٥ شوال ٦٠ هـ ٣٠ تموز ٦٨٠م.

يزيد بن معاوية يتسلّم تقارير خطيرة تتحدث عن تحركات سرّية لمسلم بن عقيل واتخاذه دار المختار الثقفي مركزاً لنشاطه في أخذ البيعة للحسين بن علي.

يزيد يجتمع بمستشاره وسكرتيره النصراني سيرجيوس (سرجون) والأخير يقترح تعيين عبيد الله بن زياد حاكم البصرة حاكماً على الكوفة أيضاً، وقد فوجئ يزيد بهذا الاقتراح لأنه كان ينوي طرد ابن زياد من منصبه فإذا سيرجيوس يفاجئه بقرار هذا التعيين موقعاً من قبل معاوية وانه قد أخفاه لمعرفته بنفور يزيد من ابن زياد!

وهكذا صدر قرار إقالة النعمان بن بشير الأنصاري. وكان يزيد قد أقال حاكم المدينة الوليد بن عتبة وتعيين عمرو بن سعيد الأشدق حاكماً كما عيّنه أمير على موسم الحج، وتعليمات مؤكدة ومشدّدة في ضرورة اغتيال الحسين بن علي حتى لو وجده معلّقاً بأستار الكعبة!

■ البصرة ١٦ ذو القعدة ٦٠ هـ ١٨ آب ٦٨٠م.

وصول «سليمان» مبعوث الإمام الحسين إلى البصرة يحمل عدداً من

الرقم لحين كتابة الرسالة التي بعث بها مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين عليه السلام والتي تضمنت تقريراً موجزاً عن الرأي العام الساند في الكوفة وبالتالي استمرار تسجيل المزيد من المنخرطين في هذه الحركة. وكان عابس بن شبيب الشاكري قد انطلق إلى مكة يحمل رسالة مسلم بن عقيل وفيها:

«الرائد لا يكذب أهله وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فعجل الإقبال».

الرسائل إلى زعماء المناطق الخمس الإدارية وهم كل من: مالك بن مسمع البصري ومسعود بن عمرو والأحنف بن قيس وقيس بن الهيثم والمنذر بن الجارود، وشاء القدر أن يظن الأخير إن سليمان هذا إنّما كان جاسوساً يعمل لدى عبيد الله بن زياد فساقه مخفوراً إلى حاكم البصرة ليعدم فوراً.

وفي نفس اليوم يلقي عبيد الله بن زياد كلمة نارية اشتملت على التهديد والوعيد وفيها يعلن أمر تعيينه حاكماً على الكوفة وسوف يتوجه إليها غداً.

وفي اليوم التالي تحرك عبيد الله بن زياد ومعه بضعة من رجاله وعدد من الشخصيات من قبيل مسلم بن عمرو الباهلي المعروف بحبه الجنوني للمال، وشريك الحارثي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل والمنذر بن الجارود وآخرون وكان ابن زياد قد قرر الوصول إلى الكوفة بأسرع وقت ممكن لذلك لم يستطع مرافقوه مواكبة عبيد الله في حركته، فتساقطوا في الطريق حتى مهران مستشاره وساعده الأيمن هو الآخر سقط في القادسية، وبالرغم من إغرائه بالمال إلّا أنه اعتذر وفقد القدرة على مواصلة الطريق.

وهنا يغير عبيد الله من زيّه ويواصل سيره وصولاً إلى النجف ومنها إلى الكوفة وكانت المفارز المسلّحة تستقبله بالتحية: مرحباً بك يا بن رسول الله!

وهكذا عندما وصل إلى مركز المدينة قريباً من قصر الأمارة كان الناس يحيّون شخصاً يرتدي حلّة يمانية ويضع على رأسه عمامة سوداء، وذلك بعد انتشار شائعات تتحدث عن توجه الإمام الحسين نحو مدينتهم، استجابة لآلاف الرسائل التي تحثه على القدوم!

واجه عبيد الله بن زياد استقبالاً أقلقه، إن الرأي العام في هذه المدينة يساند الحسين ويتطلع إلى وصوله بلهفة وشوق وأمل! لكنه ومع الصلاحيات المطلقة التي منحها يزيد إياه يعرف كيف يتصرف!

تحركات مسلم

يبدو أن مسلم بن عقيل كان مكلفاً بمهمة محددة وهي الوقوف على توجهات الرأي العام في الكوفة ومعرفة مدى مصداقية آلاف الرسائل التي وصلت مكة وعلى مختلف المستويات وقد كشف المؤتمر العام عن وجود إرادة ورغبة أكيده في تغيير النظام الأموي الذي اتخذ مساراً ملكياً سافراً وإعادة نظام الخلافة. وقد قام مسلم بن عقيل بعد وصوله إلى هذه المدينة بتنظيم الجهود وتسليح الآلاف من سكان الكوفة ليجد الإمام الحسين قاعدته الشعبية على أهبة الاستعداد في خوض معارك التحرير والتغيير والمصير.

فجأة تظهر على مسرح الأحداث شخصية قوية تربك الأوضاع إلى حد كبير، وقلبت الكثير من الحسابات رأساً على عقب.

وبدأت سياسة الإرهاب الحكومي بإطلاق التهديدات لكل من يقوم بإيواء المطلوبين والتستر على الغرباء، وسوف تتم معاقبة المسؤولين الأمنيين في حالة العثور على أي أحد من المطلوبين بالصلب على باب داره، أو نفيه إلى منطقة ساحلية في عمان قاسية المناخ.

وشنت الأجهزة الأمنية حملة اعتقالات واسعة طالت عدداً كبيراً من الزعامات الموالية لأهل البيت عليهم السلام وكان في طليعة المعتقلين ميثم التمّار

المعروف بعلاقته الوطيدة بالإمام علي عليه السلام.

اضطر مسلم بن عقيل إلى مغادرة دار المختار والبحث عن مكان آخر للاختباء.

وإلى جانب سياسة الإرهاب بدأ عبيد الله بن زياد سياسة الإغراء فقد أغدق الأموال على العديد من الزعامات والشخصيات الانتهازية وذوي الأطماع وأصحاب الطموحات السياسية وراح ينفق بسخاء، وسنرى أن بعض من راسل الإمام الحسين سوف يغير موقفه مئة وثمانين درجة ليكون مع الطغاة ضد الأحرار والأباة، أما الخوف والرعب فانه سوف يدمّر مراكز التفكير المنطقي تماماً وبالتالي يستحيل على المرء أن يقرأ الوقائع فوق الأرض كما هي.

وبسبب سرّية التنظيم وحساسية الأوضاع الأمنية لم تعرف تحركات هذا التنظيم وقياداته الميدانية إلّا أنه من المؤكد وجود بعض الزعامات المؤثرة من قبيل أبي ثمامة الصائدي الذي يبدو أنه كان مسؤولاً عن الشؤون المالية والتسليح ومسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر الأسدي والمختار بن أبي عبيدة الثقفي.

وكانت شبكة واسعة من الجواسيس والمخبرين تنتشر في الأسواق والمساجد تتصيد أي معلومات يمكن أن تقود إلى المكان الذي يختبئ فيه مسلم بن عقيل المطلوب رقم واحد.

المجد الأخلاقي

وفي غمرة الأحداث المتسارعة تلوح في الأفق فرصة ذهبية للخلاص من الطاغية في ظروف مواتية جداً لعملية اغتيال مضمونة النتائج مثالية في التنفيذ ولا تنطوي على أي شكل من أشكال المغامرة.

ابلغ القصر هانئ بن عروة المرادي الشخصية المتنفذة بان عبيد الله بن زياد ينوي عيادة شريك الحارثي الذي نزل ضيفاً بعد قدومه من البصرة.

وكان مسلم بن عقيل قد قرر بعد تفكير عميق أن يلجأ إلى منزل هانئ ليكون مخبأه الأمن في هذه المرحلة الدقيقة ولعلّه المكان الوحيد الذي لا تحوم حوله الشكوك وكان النظام الأموي يحرص على إقامة علاقات طيبة مع هذا الزعيم الكبير.

والحقيقة أن هانئ لم يكن ممن راسل الإمام الحسين بالرغم من أن عمرو بن الحجاج أخو زوجة هانئ (روعة) كان ضمن الذين بعثوا برسائلهم إلى الإمام عليه السلام.

ولهذا لم يأت مسلم إلى دار هانئ لاجئاً اعتباطاً ولقد فوجئ الأخير بدخول ساحة داره طالباً حمايته والاختباء في داره، ومن ثم قيادة التنظيم في هذه المرحلة الخطيرة.

وصل الحاكم مع غروب الشمس إلى دار هانئ المطلّة على الميدان الكبير في محلة بني مراد بالقرب من الطريق الجنوبية المؤدية إلى الحيرة.

وكان مسلم جالساً عند شريك عندما أعلن عن وصول عبيد الله نهض

مسلم وقال شريك مؤكداً لا يفوتنك إذا جلس، غير أن هانئ عبر عن عدم رضاه في اغتيال عبيد الله في داره.

دخل عبيد الله وجلس عند فراش شريك وراح يستفسر عن حالته الصحية، ورفع شريك عمامته عن رأسه وكانت إشارة لبدء تنفيذ عملية الاغتيال، ولكن مسلم لم يغادر مخبأه وعندما أبطأ مسلم راح شريك يرسل إشارة صوتية واضحة قائلاً:

ما تنظرون بسلمى لا تحيّوها؟! اسقنيها وإن كانت فيها نفسي.

وراح يكرر ذلك.

فقال عبيد الله لهانئ:

ما شأنه أتراه يهجر؟!

فقال هانئ:

نعم مازال هذا ديدنه قبيل عماية الصبح حتى ساعته هذه.

وغادر حاكم الكوفة دار هانئ وخرج مسلم من مخبأه، فقال شريك:

ما منعك من قتله؟

قال مسلم:

خصلتان؛ أما إحداهما فكراهة هانئ أن يقتل في داره، وأما الأخرى فحديث عن رسول الله ﷺ: «إن الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن».

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

فقال هانئ: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً ولكن كرهت أن يقتل في داري!

وهكذا شاءت الأقدار أن يفلت هذا الطاغية المجرم من موت محقق:

■ الكوفة ١ ذي الحجة ٦٠ هـ ٢ أيلول ٦٨٠م.

تمكن أحد الجواسيس ويدعى معقل من الوصول إلى رأس خيط رئيسي من خطوط التنظيم الذي حدد توقيتاً لساعة الصفر، لا توجد معلومات عن تاريخه بالضبط، إلّا أنه من المؤكد سيكون بعد ٩ ذي الحجة، واغلب الظن انه سيكون متزامناً مع وصول أو قرب وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة أي في حدود ٢٥ ذي الحجة.

لنشر آثار كمال السيد

انتحل معقل شخصية رجل شامي من أهل حمص وراح يتردد باستمرار على المسجد الأعظم، وكان يتظاهر بالصلاة إلّا انه كان يرهف سمعه لما يتهامس به البعض وبعد أيام تأكد أن أحد أصحاب النبي وقد بلغ التسعين له علاقة وطيدة بمسلم بن عقيل، اسمه هو الآخر مسلم. نعم يدعى مسلم بن عوسجة، ولاحظ أن هناك بعض الأشخاص يتظاهرون بعدم صلته به لكنهم كانوا أشبه بالمرافقين له. كان معقل بارعاً في تقمص شخصية إنسان يحب أهل البيت وقد سمع بأمر مسلم وجاء لمقابلته ومعه مبلغ ثلاثة آلاف درهم وهو مبلغ كبير نسبياً: كان الشيخ الصحابي حذراً ولذلك أنكر في البداية معرفته أو معرفة مكانه ولكن معقل ذلك الجاسوس المحترف تمكن بعد محاولات استغرقت أياماً من كسب ثقة الشيخ الذي وعده خيرا وقال له في

النهاية:

لقد سرّني لقاؤك إيّاي وقد ساءني! فأما ما سرّني من ذلك فما هداك الله له وأما ما ساءني فان أمرنا لم يستحكم!

ويكشف هذا الجواب انه من الممكن جداً عدم وجود أي توقيت واضح لعمل مسلّح أو أن ظهور عبيد الله بن زياد المفاجئ في هذه الفترة قد اربك خطط مسلم بن عقيل وأركان تنظيمه السرّي.

وعلى أية حال كشف الجاسوس الخطير عن مخبأ ابن عقيل بل والتقاه في دار هانئ بن عروة وسلّم إليه المال كما أُخذت البيعة والميثاق من معقل الذي أصبح أحد عناصر التنظيم!

وفي تلك الفترة كان هانئ بن عروة وتفادياً للقاء عبيد الله بن زياد في القصر قد بدأ الشكوى من علّة ليبرر عدم تردده على لقاء الحاكم في قصره. غير إن التقارير كانت ترد على عبيد الله تفيد بجلوسه عند باب داره في أوقات الغروب.

لم يضع ابن زياد دقيقة واحدة منذ وصوله في إعادة تنظيم قوى النظام الحاكم وتمكن في زمن قصير وقياسي من ضم العديد من الزعامات القبلية إلى جانبه إضافة إلى الشخصيات الموالية أساساً للنظام الأموي وبات جاهزاً لتوجيه الضربة القاضية في أية لحظة.

الجواسيس والمخبرون مبثوثون في كل مكان ودورياته المسلحة تجوب

الأزقة والشوارع لإشاعة جو إرهابي، وشائعات تتحدث عن تحرك جيش شامي جرار باتجاه الكوفة.

■ ٧ ذي الحجة ٦٠ هـ ٦ أيلول ٦٨٠م.

رأى عبيد الله بن زياد أن يستدرج هانئ بن عروة إلى قصر الأمارة فأرسل إليه وفداً رفيع المستوى من زعماء الكوفة محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعندما وصلا داره وجدوه كعادته في الغروب جالساً عند باب الدار، فنقلا إليه عتاب الحاكم، فتذرع بالشكوى فقالا: لقد بلغه انك برئت وأنك تجلس على باب دارك كل عشيه!

ثم أقسما عليه أن يقوم الآن بزيارة الحاكم في قصر الأمارة. شعر ابن عروة بالإحراج واستمهلهما ريثما يرتدي ثيابه وجاء أحدهم ببغلته فاستوى عليها، حتى إذا دنا من القصر أوجس في قلبه خيفة التفت إلى ابن خارجة قائلاً: يا ابن أخي في إني والله لهذا الرجل لخائف فما ترى؟

قال ابن خارجة مبدداً مخاوفه:

أي عم والله ما أتخوف عليك شيئاً، ولم تجعل على نفسك سبيلاً وأنت بريء؟

ما إن رأى ابن زياد هانئاً حتى برقت عيناه بالغدر والتفت إلى شريح القاضي قائلاً: أتتك بحائن رجلاً! فقال هانئ:

وما ذاك أيها الأمير؟!

قال ابن زياد:

أيه يا هانئ! جئت بمسلم إلى دارك وجمعت له السلاح والرجال!

أنكر هانئ أن يكون مسلم في داره واحتدم الجدل بينهما فصاح ابن زياد بجاسوسه، حتى إذا ظهر قال ابن زياد لهانئ.

أتعرف هذا؟

قال وهو تحت تأثير المفاجأة:

نعم!

والتزم الصمت لحظات ثم اخبره بالحقيقة وانه كان مضطراً لضيافته وإيوائه، وقال لابن زياد:

فإن شئت أعطيت الآن موثقاً مغلّظاً وما تطمئن إليه ألا أبغيك سوءً وإن شئت أعطيك رهينة تكون في يدك حتى أتيك وأنطلق إليه فأمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض..

صرخ ابن زياد حانقا:

لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به.

لا والله لا أجيئك به أبداً! أنا أجيئك بضيفي تقتله؟!

فتدخل مسلم بن عمرو الباهلي في محاولة لحل النزاع قائلاً لابن زياد:

أصلح الله الأمير خلّني وإياه حتى أكلّمه

وأخذ الباهلي هانئاً إلى زاوية من القصر بمرأى من ابن زياد وقال لهانئ:

يا هانئ لا تقتل نفسك وتدخل البلاء على عشيرتك سلّمه فليس في ذلك عار.

قال هانيء مستنكراً:

والله إنه لعار وخزي! أنا اسلّم ضيفي؟ والله لو كنت وحيداً فلن أسلّمه.

صاح ابن زياد بالحرس أن يقبضوا عليه ويحضروه أمامه وصرخ في وجهه:

والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك.

قال هانئ متحدياً:

إذن تكثر البارقة حولك.

وقد كان هذا تهديداً قويّاً فقد شبه سيوف قبيلته بالصواعق التي تضرب القصر!

أمسك ابن زياد بشعره وهشم بالقضيب وجهه وأنفه وتدفقت الدماء وراح ينهال على جبينه وخديه إلى انكسر القضيب، وأفلت هانئ من الحرس ومدّ يده إلى سيف شرطي يجذبه فحالوا بينه وأمر ابن زياد بحبسه في إحدى حجرات القصر، وتدخل ابن خارجة محتجا فدفع ليحبس في حجرة أخرى، أما ابن الأشعث فقد انهار وعبّر عن تأييده لكل ما يقوم به الأمير! ما أسرع ما طارت الأخبار إلى محلّة "مراد"! إن الحاكم قام بقتل هانئ بن عروة زعيم قبيلة "بني مراد"! فقاد عمرو بن الحجاج مئات الرجال واتجه نحو قصر الأمارة إن

من يحدّق في عيني عبيد الله في تلك اللحظات سيري إنساناً جباناً يختبئ وراء كل هذه القسوة والبطش والعنجهية إلّا أن الأوغاد لا يمكنهم رؤية ذلك، وحدهم الأحرار يلحظون ما يكمن في قراره النفوس البشرية.

وصلت أصداء الغاضبين إلى جميع أروقة القصر وحجراته التفت عبيد الله إلى شريح القاضي وقال له:

ادخل على هانئ ثم اخبر عشيرته بأنه حيّ لم يقتل!

كان صوت عمرو بن الحجاج يصل إلى الإسماع واضحاً:

أنا عمرو بن الحجاج! وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم تخلع طاعة ولم تفارق جماعة وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل فأعظموا ذلك.

الرسالة واضحة؛ انهم يوالون النظام القائم ولم يتمردوا على الحاكم.

كان هانئ يرهف سمعه إلى الضجة خارج القصر، فتح باب الغرفة ورأى أمامه شريح القاضي ومعه من يراقب تصرفاته.

صاح هانئ: يا لله! يا للمسلمين! أهلكت عشيرتي؟! فأين أهل الدين؟!

الدماء ما تزال تنزف وتسيل على لحيته، وأنصت إلى الأصوات فصاح: بشريح الذي غادر المكان دون كلام: يا شريح إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين! إذا دخل عليّ عشرة نفر انقذوني!

لكن شريح لم يسمع شيئاً سوى كلمات ابن زياد تتردد في أعماقه المذعورة، فتح باب القصر وخرج إلى الحشود الغاضبة ومازال شرطي الحاكم

يرافقه يحصي عليه حركاته وسكناته وإشاراته!

صاح ليسمعه الجميع:

أمرني الأمير لما سمع مقالتكم في صاحبكم أن ادخل عليه، وأن أعلمكم انه حيّ!

التفت عمرو بن الحجاج إلى الحشد وخاطب الجموع: فإذا لم يقتل فالحمد لله وأشار إليهم بالا نصرف.

■ مكة المكرمة ٨ ذي الحجة ٦٠ هـ ٧ أيلول ٦٨٠ م.

في يوم الثلاثاء الثامن ذي الحجة، عزم الإمام الحسين على مغادرة مكة قبل الانتهاء من أداء مناسك الحج مقتصراً على العمرة، بعد وصول أنباء مؤكدة حول عملية اغتيال يخطط لها عمرو بن سعيد الأشدق وقد تحدث في المسجد الحرام حتى لو وجد متعلّقاً بأستار الكعبة، لذلك فضل الإمام عليه السلام مغادرة مكة المكرمة والمحافظة على حرمتها من الانتهاك.

وكان الإمام قد ألقى كلمة في مكة جاء فيها:

خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة؛ وما أولهني إلى إسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير مصرع أنا لاقيه كأن بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء.. لا محيص عن يوم خط بالقلم.

رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين.

قافلة الإمام الحسين المؤلفة من أسرته وأهل بيته وبعض أنصاره تتجه نحو

التنعيم على بعد ست كيلومترات عن مكة التاريخية ومنها إلى الصفاح وإلى منطقة الحاجر في عالية أرض نجد.

■ الكوفة ٨ ذي الحجة ٦٠ هـ ٧ أيلول ٦٨٠ م.

تمكن ابن زياد من خلال شريح القاضي من إحباط أولى ردّات الفعل اثر اعتقال هانئ بن عروة.

كان مسلم بن عقيل يراقب باهتمام بالغ تفاصيل اعتقال هانئ وتطورات هذا الحادث الذي جاء مفاجئاً، لذلك قام بإرسال عبد الله بن خازم وقد تمكن الأخير من معرفة تفاصيل تعرض هانئ للضرب بقوة ومن ثم اعتقاله؛ وليس كما يفيد شريح القاضي بأنه في اجتماع مع الحاكم للتداول في الشؤون السياسية!

وكانت نسوة من أسرة هانئ أكثر إدراكاً لحقيقة ما يجري، فقد انطلق نداؤهن حول مصير هانئ!

لم يكن أمام مسلم بن عقيل إلّا أن يقدّم موعد الثورة وأمر بإطلاق شعارها السرّي: يا منصور أمت!

هذا الشعار الذي يذكر بمعركة بدر الحاسمة وشعار رسول الله ﷺ.

كل قادة التنظيم كانوا غائبين؛ ولم يتسنّ لأي منهم الاتصال فالخطوط معظمهما مقطّعة وموعد الثورة لم يحن بعد، وكان الاتصال بالقادة الميدانيين أشبه بالمستحيل، ولهذا كان المختار خارج الكوفة في مهمة لحشد المزيد

من الدعم.

وكانت أجهزة الأمن قد شنت حملة اعتقالات واسعة حيث اعتقل ميثم التمار وسليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري ورفاعة بن شداد وآخرين، وسادت الكوفة أجواء خوف ورعب، ويبدو أن الثورة في موعدها الاضطراري اقتصرت على محلّة بني مراد حيث يختبئ مسلم بن عقيل مع الإشارة إلى انه لا يوجد مؤشر على أن مسلم كان يخطط لقيادة ثورة شاملة، ذلك أن مهمته كانت تنحصر في تعبئة وتنظيم القوى المساندة للإمام الحسين لأنه إنّما كان يبايع للإمام ولذلك ابرق إليه بالتعجيل في القدوم.

وأغلب الظن إن ما حصل في يوم الثامن من ذي الحجة الحرام السابع من أيلول، كانت عملية مسلحة محدودة لإنقاذ هانئ بن عروة وتحريره، وانها اقتصرت على أفراد التنظيم الموجودين في محلة بني مراد والأحياء المجاورة، لأنه من غير المعقول أن يخذل أبو ثمامة الصائدي مسلم بن عقيل ثم يظهر في يوم عاشوراء ليسطر تلك الملحمة الخالدة في الفداء! وهكذا الأمر بالنسبة إلى مسلم بن عوسجة وغيرهما.

ويبدو إن ظهور عبيد الله بن زياد المفاجئ كحاكم للكوفة اربك المشهد العام ليعيد تنظيم الاصطفافات من جديد ويغيّر الكثير من المواقف السياسية فعلى سبيل المثال يعلن عمرو بن الحجاج الزبيدي ولاءه الكامل وولاء قبائل مذحج للنظام الأموي، وكان في طليعة الذين راسلوا الإمام الحسين طالباً منه القدوم إلى الكوفة ليكون الخليفة.

وكان عبيد الله بن زياد قد استشرف وقوع ثورة مسلحة وحصول ردود فعل عنيفة اثر اعتقاله هانئ، فأطلق تهديداته يتوعد الخارجين على القانون بالويل والثبور واختتم خطابه الناري يقوله: وقد أعذر من أنذر.

كان ابن زياد ما يزال جالساً فوق المنبر عندما دخل المخبرون السرّيين؛ إن مسلم بن عقيل في طريقه إلى القصر فرّ عبيد الله بن زياد وتوارى خلف أبواب القصر وأمر بغلق جميع الأبواب.

وصل مسلم ومعه ثلاثمائة من الرجال المسلمين ليفرض الحصار على القصر باستثناء الباب الذي ينفتح على حيّ المسيحيين، ولهذا نرى إن بعض زعماء القبائل ممن كانوا يعرفون ب «الأشراف» بدأوا يتوافدون إلى القصر ومعهم بعض أنصارهم لمساندة ابن زياد.

تذكر بعض المدونات (الطبري ج ٥ ص ٣٧١) إن مسلم قاد أربعة آلاف واتجه نحو القصر، والذي حصل إن ابن زياد أمر كلاً من:

كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي[1] بقيادة رجاله من قبيلة مذحج (الموالين للنظام الأموي) وأن يشن حرباً نفسية من عواقب التمرد المسلّح والثورة على النظام الأموي.

محمّد بن الأشعث بقيادة رجاله من كندة وحضر موت ورفع راية الأمان لمن يتخلّى عن مسلم.

١. أحد الذين وقعوا على وثيقة تدين حجر بن عدي الكلندي ورفاقه وورد اسمه ضمن الثورة.

شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج، عمرو بن حريث وهكذا بالنسبة للقعقاع بن ثور الهذلي[1]، وحجّار بن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن العامري[2].

ومن خلال ما ورد في النصوص التاريخية إن هؤلاء القادة قاموا بمهمتين الأولى الحرب النفسية والتحذير من قدوم الجيش الأموي من الشام والقضاء التام على المتمردين والبطش بأسرهم والثانية احتلال مداخل الطرق والتعرض لقوات مسلم بن عقيل وكسر الحصار.

تمركزت قوات مسلم في المسجد الأعظم الملاصق للقصر.

ويبدو أن هؤلاء القادة نجحوا في قطع خطوط الاتصال وتم اعتقال بعض الأشخاص الذين كانوا يرومون الالتحاق بمسلم، كما هو الحال في اعتقال عمارة الأزدي على يد رجال محمّد بن الأشعث حيث أرسل مخفوراً إلى القصر الأمر الذي يؤكد وجود منفذ من الحي المسيحي المجاور للقصر وهكذا بالنسبة لعبد الأعلى الكلبي الذي اعتقله رجال كثير الحارثي وقد دفع مسلم بن عقيل بجزء من قواته لطرد القوات التي يقودها القعقاع بن ثور الذهلي وحصلت اشتباكات في موقع يدعى «العرار».

كما اشتبك شبث بن ربعي مع قوات مسلم بن عقيل التي أجبرته على

---

١. أحد الموقعين على وثيقة إدانة حجر بن عدي ورفاقه.

٢. أحد الموقعين على وثيقة إدانة حجر بن عدي ورفاقه، وكان قبلها ضابطاً في جيش الإمام علي عليه السلام في صفين.

التراجع.

اقترح شبث بن ربعي وقف العمليات العسكرية وعدم التعرض لقوات مسلم والانتظار إلى الليل.

ويبدو من موقف القعقاع إن القوات الموالية للنظام قد فرضت طوقاً على مداخل الطرق المؤدية إلى المسجد ولذلك اقترح القعقاع فتح بعض الطرق ومنح رجال مسلم فرصة للتسرّب وهذا ما حصل[1].

وخلال هذه الفترة إلى مغيب الشمس، توافد ذوو الثوار من أزواج وأمهات وآباء ليقنعوا أبناءهم بعد أن سيطرت الشائعات حول تحرك جيش الشام باتجاه الكوفة على المشهد وخلقت أجواءً نفسية انهزامية.

وانطفأت روح الثورة المتوقدة في نفوس العشرات من الثائرين وانهارت عزيمتهم أمام توسلات الزوجات ودموع الأمهات، وتكونت قناعة بأن الحرب باتت خاسرة وإلقاء للنفس في التهلكة.

وعندما ارتفع الأذان لصلاة المغرب لم يقف وراء مسلم سوى ما يناهز الثلاثين رجلاً فقط!

الخوف يشلّ مراكز التفكير ويجعل من القلوب طبولاً تدقّ عند الحناجر، والذهنيات المريضة المصابة بالذعر والرعب تنتج خيالات وأوهام فإذا الفأرة تصبح فيلاً وإذا بالقطط الصغيرة تستحيل إلى نمور كاسرة وأسود

١. انظر تاريخ الطبري، ج ٥: ٣٧١.

وإذا بالجيوش الوهمية القادمة من سوريا تصبح حقيقة واضحة وإذا بأفراد الشعب يستحيلون إلى فئران خائفة مختبئة في جحورها ترتجف هلعاً من الحاكم، إنها تتصوره إلهاً يحيي ويميت ويخلق ويرزق.. وإذا بالصلاة تفرغ من معناها وتستحيل إلى مجرد حركات لا معنى لها!

«السلام عليكم ورحمة الله» قالها مسلم بطمأنينة وسلام والتفت وراءه فلم يجد سوى زهاء ثلاثين رجلاً!

غادر المسجد الجامع متجهاً جنوباً في أزقة الكوفة الضيقة الملتوية وفي كل منعطف كان الخوف يشلّ خطى الذين معه وفي كل منعطف كان يختفي اثنان أو ثلاثة لم يبق معه سوى بضعة رجال قال أحدهم:

ألا نهتف بشعار الثورة؟ ألا تنادي! يا منصور أمت؟!

قال مسلم بأسى:

الذين يفرون وضح النهار كيف يعودون في ظلمة الليل؟

وفي تلك المنعطفات الغارقة في الظلمات اختفى الجميع وذابوا في ظلمة الليل ومجاهل التاريخ!

آه يا مسلم ها هو الآن وحيد يجوس خلال الأزقة في حي كندة، رجل متعب ظامئ لا يملك إلّا سيفاً وقلباً شجاعاً! يا لغربة الإنسان الحرّ في زمن يصلب فيه الأنبياء!

وصلت الأنباء المثيرة إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، كان في قرية

"الخطوانية" أو "خُطرنية" عندما جاء من يحيطه علماً بتحرك مسلم بن عقيل، ومن المحتمل أن تكون هذه القرية في ذلك الجانب من نهر الفرات وربما فوجئ بالتوقيت أيضاً إلّا انه بادر إلى حشد ما أمكنه من أنصار مكوّناً قوّة صغيرة ترفرف فوق قائدها راية خضراء، ومعه عبد الله بن الحارث يحمل راية حمراء كان الوقت ظهراً عندما سمع المختار بالنبأ العظيم، نبأ اندلاع الثورة بقيادة مسلم، وقد استغرق وقتاً في حشده الأنصار والتحرك صوب الكوفة فوصل «باب الفيل»، بعد مغيب الشمس وتذكر بعض المدوّنات[1] أن المختار اصطدم ببعض الدوريات في الشارع الذي يؤدي إلى باب الفيل، ومن الطبيعي أن تصل تقارير إلى القصر حول قيادة المختار الثقفي لمجاميع مسلحة ومحاولتها مساندة حركة مسلم بن عقيل وسوف نلاحظ ما يدل على ذلك أثناء التحقيق معه فيما بعد.

ركز المختار رايته عند باب الفيل، وراح يستطلع الأوضاع في المدينة، كان المختار قد أوجس في نفسه شيئاً وفي الأثناء مرّ به رجل يدعى هانئ بن أبي حيّة الوداعي[2] وهو من الشخصيات الموالية للنظام الأموي فخاطب المختار قائلاً:

ما وقوفك هنا؟ لا أنت مع الناس ولا أنت في بيتك؟

---

١. انساب الاشراف، ج ٥: ٢١٤.

٢. ورد اسمه ضمن الشهود في الوثيقة التي أدين فيها حجر بن عدي ورفاقه وأدت إلى أعدامهم بأمر من معاوية في سنة ٥١ هـ.

ويعني بالناس الجمهور الذي انضوى تحت راية عمرو بن حريث في جوار المسجد الجامع.

ولم يتمكن المختار من حسم موقفه في تلك اللحظات لكنه أدرك أن الثورة قد انتهت وأن النظام الأموي يحكم سيطرته على أحياء المدينة لذلك قال:

أصبح رأيي مرتجّاً لعِظِم خطيئتكم!

فقال الرجل محذّراً المختار:

أظنّك والله قاتلاً نفسك.

وانطلق نحو عمرو بن حريث ليطلعه! إن مروره بالمختار لم يكن محض مصادفة وإنّما هو جزء من الجهود الكبيرة التي بذلت للتشويش على الرأي والإيحاء بانتهاء حركة مسلم!

إن معظم الذين انضووا تحت راية عمرو بن حريث لإثبات ولائهم للنظام القائم كانوا مع الإمام الحسين بقلوبهم لكن الخوف والرعب والإرهاب الحكومي دفع بهم إلى التخلي عن مسلم في أحرج اللحظات وخانتهم الشجاعة.

ويبدو أن المختار لم تتوفر لديه معلومات أكيدة عن مصير مسلم بن عقيل لذلك قرر الانتظار.

كان عبد الرحمن بن أبي عمير الثقفي[1] مع الذين انضووا تحت راية عمرو بن حريث نائب الحاكم العام، عندما جاء هانئ بن أبي حية الوداعي ينقل تقريره عن المختار وموقفه المتأرجح، لذلك طلب عمرو بن حريث من عبد الرحمن أن ينطلق إلى المختار ويحذّره من المغامرة بحياته في معركة خاسرة قائلاً له:

قم إلى عمك فأخبره إن صاحبه (مسلم بن عقيل) لا يدري أين هو؟ فلا يجعلنّ على نفسه سبيلاً!

وهذا يعني إن الثورة قد انتهت وقد توارى مسلم واختبأ في مكان ما في هذه المدينة.

وعندما هم عبد الرحمن بإيصال هذه الرسالة العاجلة تهض زائدة بن قدامه بن مسعود (ابن عم المختار) يطلب له ضماناً لحياته قائلاً: يأتيك على انه آمن؟

فردّ عمرو بن حريث قائلاً:

أما منّي فهو آمن! وإن رقي إلى الأمير عبيد الله بن زياد من أمره أقمت له بمحضره الشهادة وشفعت له أحسن الشفاعة.

وهكذا تعهد نائب الحاكم بالدفاع عن المختار والشهادة لصالحه وانضم زائدة إلى عبد الرحمن وانطلقا معاً إلى باب الفيل حيث المختار ما يزال

١. أحد الذين ساندوا حركة مسلم ثم تخلّوا عنه كانوا مع الحسين بقلوبهم وعواطفهم فقط، وسوف يساند بعد خمس سنين ثورة المختار.

هناك يراقب الأوضاع.

استمع المختار إلى تقارير عبد الرحمن وزائدة اللذين كانا من قبيلته وتأكد لديه نهاية ثورة مسلم وسيطرة قوات النظام على الأوضاع، لذلك قرر التوجه إلى المسجد الجامع وأعلن انه جاء مسانداً لموقف عمرو بن حريث ولذلك سوف يمضي بقية الليل في هذا المكان!

ولعله كان يريد أن يكون قريباً من مسرح الأحداث وحينئذٍ يمكن أن يتخذ الموقف الصائب فلكل مقام مقال! مع الإشارة إلى أن المختار وابن الحارث ضمن قائمة المطلوبين للنظام[1].

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

قائد بلا جنود

مسلم بن عقيل وحيد يجوب أزقة مدينة الكوفة، ليس معه أحد، يجوس خلال أزقة دور بني جبلة في حي كندة رياح أيلول الخريفية تلفح وجهه وقلبه يتفطر ألماً وعطشاً بعد يوم صاخب طويل.. مسلم ظامئ في يوم التروية في مساء اليوم الثامن من ذي الحجة الحرام.

الكوفة يخيم عليها صمت ثقيل في منتصف الليل والأزقة مهجورة تعدو فيها رياح الخريف، لا شيء سوى سنابك خيل الدوريات المسلحة تجول في الشوارع الغارقة في الظلام بحثاً عن سفير الحرية.

لقد انتهت الثورة وصرخات ابن زياد حاكم الكوفة ما تزال تدوي في أرجاء

١. الطبري، ج ٥: ٣٨١، حوادث سنة ٦٠ هـ.

القصر تتهدد جلاوزته بالويل والثبور تطالب بإلقاء القبض على المتمرد الخطير والثائر الشريد.

لم ينم حاكم الكوفة الجبان تلك الليلة، وقد جثم الحزن على صدر المدينة كما يجثم غراب على غصن ميت في ذلك المساء الخريفي.

توقف الرجل المقهور عند بيت امرأة كان ظامئاً فاستقاها ماءً، تذكر عطشه وهو يقطع الصحراء في طريقه إلى الكوفة، أطفأ غليله المستعر، لكنه ظل جالساً!

طلبت المرأة منه أن ينصرف فاعتصم بالصمت المجهول الذي لا يريد أن يسبر كنهه أحد.

انصرف إلى منزلك!

أنا رجل غريب ليس لي في هذه المدينة دار.

من أنت يا عبد الله؟

أنا مسلم بن عقيل!

هتفت المرأة مأخوذة بالمفاجأة:

أنت مسلم؟! انهض اذن!

إلى أين يا أمة الله؟

إلى بيتي!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

وفي النهاية انفتح باب أمام مسلم بن عقيل، أما سائر الأبواب فقد بقيت موصدة، يصغي أهلها برعب إلى سنابك خيل الدوريات وهي تدك الأرض بحثاً عن قائد بلا جنود.

ومع أولى خيوط الفجر جاء «الإسخريوطي» ذلك الفتى التافه جاء ليهمس في أذن عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، فجاء عبد الرحمن هذا ليهمس في اذن أبيه وكان جالساً إلى جانب عبيد الله بن زياد بن أبيه! جاء ليدل على مخبأ مسلم!

قال ابن زياد: ماذا يقول لك ابنك؟

قال ابن الأشعث: يقول إن ابن عقيل في دار من دورنا!

نخسه ابن زياد في خاصرته: وماذا تنتظر اذن؟

وانطلقت قوة عسكرية قوامها سبعون رجلاً من القوات التي تخضع لقيادة عمرو بن حريث، وقد حرص ابن زياد ألا يكون فيهم رجل من كندة باستثناء القائد الذي هو ابن الأشعث، ولقد جاء هذا كإجراء احترازي منعاً لأي تعاطف مع مسلم[1].

استيقظ مسلم من إغفاءة قصيرة رأى خلالها عمه علي بن أبي طالب يعانقه ويبشره بقرب اللقاء، أسبغ وضوء ونهض للصلاة.

فجأة بدأت الأرض تهتز، حوافر عشرات الخيول تدك الأرض، انهم قادمون

١. الطبري، ج ٥: ٣٧٣-٣٧٤

للقبض على قائد ثورة شهيدة.

طوعة المرأة العجوز تتطلع إلى أسد من ليوث محمّد. رجل انقطعت به السبل وضاقت عليه الأرض بما رحبت ولا ملجأ له إلّا سيف بتار.. مسلم يقبض على قائمة سيفه.. وقد طلع الفجر وأزفت ساعة الرحيل قالت:

إنهم كثيرون.. كثيرون جداً!

لا عليك يا أمّة الله.. لقد حان اللقاء، رأيت عمي أمير المؤمنين يقول لي: أنت معي غداً!

ونهض مسلم وحيداً يواجه العشرات ممن جاءوا لقتله وعندما اقتحموا الدار تمكن من طردهم وإخراجهم ونقل المعركة إلى الزقاق، ولم يتمكنوا من مواجهته، فراحوا يلقون عليه من فوق أسطح المنازل أطنان القصب المشتعلة بالنار وكذلك برمي الحجارة حتى أثخن بالجراح، فشن هجومه الصاعق ونقل المواجهة إلى الشارع وهو يهتف بصوت عال:

أقسمت لا اقتل إلا حرّا وإن رأيت الموت شيئا نكرا

وعندما شعر بالإعياء اسند ظهره إلى جدار.

وأقنعه ابن الأشعث بأن يسلّم نفسه مقابل الأمان؛ فقال مسلم: آمن أنا؟

قال ابن الأشعث نعم كما أكد الذين معه ذلك أيضاً وعندما جاءوا له ببغلة وركبها عرفوا انه قد سلّم نفسه فأحدقوا به وانتزعوا سيفه، فدمعت عيناه وقال:

هذا أول الغدر!

قال ابن الأشعث:

أرجو ألا يكون عليك بأس!!

اذن هي مجرد أمانٍ وليس أمانا! فقال:

ما هو إلّا الرجاء! أين أمانكم؟ إنا لله وأنا إليه راجعون، أجل إننا لله وإننا إليه جميعاً راجعون.

قائد الثورة في طريقه إلى القصر، بالأمس كان يحاصر هذا القصر يريد تمزيق الحجب لتشرق شمس الحرية كان حوله المئات من الرجال، كانت على وشك أن تشرق الشمس! شمس الحرية والكرامة الإنسانية ولكن يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يكذبون!

ما إن غابت شمس الثامن من ذي الحجة يوم التروية حتى أمسى مسلم وحيداً ظامئاً شريداً!

لماذا أخفقت الثورة لماذا انطفأت تلك الشعلة المتوهجة؟

إن قوّة الطغيان والطغاة تكمن في أعماق النفوس الخائرة في داخل النفس الإنسانية، ففي أعماق كل إنسان يكمن بطل وجبان، خانع وثائر، ذليل وأبي انهزامي وشهيد!

ومن المؤسف أن البطل في أعماق المجتمع في ذلك اليوم الصاخب كان مكبلاً بالسلاسل والأغلال.

مسلم وجهاً لوجه أمام طاغية العراق، الإنسان الحرّ يقف مكبلاً أمام

الطاغية. وقف مسلم أبياً متحدياً تتألق في عينيه، أنوار الكرامة الإنسانية، هبة الله للبشر.

قال الحرسي لمسلم: ألا تسلّم على الأمير؟!

ولكن مسلم لا يعترف بشرعية هذا الأمير أبداً ليست للطاغية أي شكل من أشكال الشرعية أبداً.

انه يسلّم ويحييّ كل من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى!

قهقه الطاغية وقال بحقد: سلّمت أم لم تسلّم فانك مقتول!

وجاء الرد عنيفاً قوياً: إن قتلتني فلقد قتل من هو شرّ منك من هو خير مني! وبعد فأنك لا تدع سوء القتلة ولا قبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك!

قال الطاغية بلهجة تنضح نفاقاً:

لقد خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين وأثرت الفتنة!

ردّ مسلم بقوّة! كذبت إنّما شق العصا معاوية وابنه يزيد وأثار الفتنه أبوك وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ خلقه!

واتهم الطاغية الإنسان الحرّ بالخروج على النظام و إشاعة الفوضى فرّد عليه الليث المكبل بالسلاسل: إن الشعب في هذا البلاد استغاث بأهل البيت للخلاص من الظلم والتعسف والطغيان ويتطلع إلى نظام حكم عادل

يقوم على القانون والشريعة الإلهية السمحاء.

أجل ثمة حنين في النفوس إلى أيام خلت إلى ما كان سائداً قبل أكثر من عشرين سنة، يوم كانت أجنحة العدالة ترفرف فوق هذه الربوع.

صرخ ابن زياد: وما دخلك أنت؟ أو لم نكن نعمل فيهم بالعدل؟!

قال مسلم مفنداً نفاقه السياسي: إن الله يعلم انك غير صادق؛ وانك لتقتل على الغضب والعداوة وسوء الظن وراح الطاغية يشتم علياً وعقيلاً والحسين؛ فرد مسلم بصلابة الإنسان الحرّ: أنت وأبوك أحق بالشتم يا عدو الله!

أمر الطاغية باقتياد مسلم إلى أعلى القصر وإعدامه ورميه من فوق القصر.

وخلال السلالم كان مسلم يذكر الله ويسبح بحمده لقد اقتربت ساعة اللقاء، وعندما استوى على السطح رمى ببصره الأفق البعيد إلى قافلة قادمة يقودها سبط آخر الأنبياء في التاريخ تمتم بصوت حزين: السلام على الحسين[1] وتلا ذلك اقتياد هانئ بن عروة مكتوف اليدين إلى السوق وتحديداً إلى مكان يباع فيه الغنم وراح الرجل يطلق صيحاته منادياً قبيلته «مذحج» ولكن دون جدوى وحاول المقاومة.

كان يبحث عن شيء يقاتل به بعد أن تخلص من الوثاق فتكالبوا عليه وأوثقوه بقوّة وحينئذٍ استقبل هانئ النهاية الدامية بشجاعة قائلاً: إلى الله

١. اسرار الشهادة: ٢٥٩، مقتل المقرّم: ١٦٣.

المعاد! ونظر إلى السماء وقال: إلى رحمتك ورضوانك[1]!

قرار المختار

وصل المختار باب الفيل، ترفرف فوق هامته راية خضراء لقد وصل متأخراً، كانت ظلمة الغروب تغمر المدينة الموحشة. وعندما تأكد لدية انتهاء الثورة قرر أن يلجأ إلى راية نائب الحاكم العام عمرو بن حريث بعد أن قدّم الأخير ضمانات بعدم التعرض له، وتبرئة ساحته في حالة وجود تقارير أمنية تدينه لدى الحاكم العام.

وفي الضحى تقابل الرجلان وجهاً لوجه في داخل القصر صرخ ابن زياد وعيناه تتطاير شرراً:

أنت المقبل في الجموع تنصر ابن عقيل؟!

أنكر المختار أن يكون قد فعل ذلك وأشار إلى أنه قد أمضى الليل تحت راية عمرو بن حريث، وأيد الأخير تصريحات المختار وشهد لصالحه؛ ومع ذلك فقد هوى بالقضيب على وجهه وأصاب إحدى عينه إصابة مباشرة أدت إلى سقوط الجفن وشترها وطلب من جلاوزته أن يساق إلى السجن، وهناك وجد ميثم التمار وكذلك عبد الله بن الحارث.

أيقن المختار بأن النهاية الدامية قد باتت قريبة فهذا الطاغية الأرعن لن يتردد في قتل الناس جميعاً لقد قام بقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة

---

١. الطبري، ج ٥: ٣٧٩.

وأسس لظاهرة السحل في الشوارع لكل إنسان بعد قتله.. كل ذلك من أجل قتل إرادة الشعب..

ها هي الكوفة قد ركعت أمام الطاغية، حقاً إن حب الدنيا رأس كل خطيئة.. وفي داخل كل إنسان بطل مكبل بالسلاسل ينتظر أن يحطم سلاسله والأغلال.

إن هزيمة المجتمع الكوفي لم تكن لتحصل لو لا هزيمة الإنسان في الأعماق.. حب الدنيا بأي ثمن هو الذي مكّن الطاغية من التحكّم بالشعب..

عندما يتجه الإنسان إلى حب الدنيا تتولد لديه نزعة قوية في البقاء حياً بأي ثمن.. حتى لو كان هذا الثمن كرامته وحرّيته وإنسانيته، من أجل هذا انطلقت صرخة مسلم: أقسمت لا أقتل إلّا حرّا!

أجل إن حب الدنيا رأس كل خطيئة وفي داخل كل منا بطل مكبل!

كان المجتمع في العراق يتمتع بأعلى درجات الوعي، كان يعرف أبطاله الحقيقيين ولكن ما جدوى ذلك عندما تتلاشى إرادته.. العلم وحده لا يكفي، أنه لا يصنع حقيقة إنّما يكشف عنها ولا يحل مشكلة إنّما ينبه لها.

لا يكفي وجود الظلم في إحداث ثورة، الشعور بالظلم والإيمان بكرامة الإنسان وحرّيته هو من وراء كل مشاريع النهضة والتغيير الحقيقي.. عندما يتشرّب الإنسان المعنى الحقيقي للحياة في انه يكمن فقط في الحياة الحرّة وإلّا فما أحلى الموت.

ومن أجل هذا هتف مسلم بن عقيل في يوم التروية من سنة ستين هجريه:

أقسمت لا أُقتل إلّا حرا!

ومن الطبيعي في هكذا ظروف أن يستحيل المجتمع إلى قطيع من الأغنام ويتحول الحاكم إلى ذئب وإذا كان الحاكم ذئباً فالشاة من يحفظها؟

وفيما كان المختار ورفيقه عبد الله بن الحارث يستعدان للنهاية، وفيما كان السجّان قادماً ليقتاد ميثم التمار لتنفيذ حكم الإعدام قال ميثم يكشف لها صفحات من المستقبل القريب.

قال للمختار: اخبرني حبيبي علي عن رسول الله صلى الله عليه وآله انك ستخرج وتثأر من قتلة الحسين وأنصاره وتطأ بقدمك رأس هذا الطاغية.

الطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

قال المختار وقد ذهل للمفاجأة:

وهل سيُقتل الحسين؟!

نظر ميثم في عيني المختار ولم يقل شيئاً والتفت إلى عبد الله بن الحارث قائلاً:

غير مخصص للبيع أو الطباعة

وأما أنت فستخرج من السجن وتتولّى حكم البصرة!

وأنت؟!

أقتل وأصلب على جذع نخلة سأكون عاشر عشرة اخبرني بذلك أمير المؤمنين!

اقتيد ميثم إلى خارج السجن لتنفيذ حكم الإعدام صلباً.

عـلى مـدى ربـع قرن من الزمن كان ميثـم يزور نخلته منـذ أن كانت فتية ثم يبست ثم قطعت لتتحول إلى جذع وربما صادف عمرو بن حريث فيقول له: سأصبح جارك فأحسن جواري! فيقول عمرو بن حريث له:

أتريد شراء دار ابن مسعود أم دار ابن الحكم؟!

ولكـن ميثـم كان يمضـي في طريقة إلى السـوق تـاركاً ابن حريـث في حيرته وتساؤلاته!

جاء الجلاوزة بميثم التمار ليمثل أمام الطاغية الجبان ودار هذا الحوار:

سمعت بأنك من أصحاب علي.

نعم.

تبرأ منه؟

لن افعل أبداً.

سأقتلك شرّ قتلة!

لقد اخبرني أمير المؤمنين بأنك ستصلبني وتقطع يدي ورجلي ولساني!

سأكذب أمامك!

والتفت إلى الجلاوزة:

اقطعوا يديه ورجليه وأما لسانه فلا!

نظر ميثم إلى الطاغية نظرة اسـتهزاء ماذا يقول لهذا الأحمق؟ يريد تكذيب

النبوءات؟!

واقتيد ميثم إلى أقصى واقصر جذع يقع في الجهة المجاورة لدار ابن حريث..

أجل كان عاشرة عشرة، وتجمهر الناس حول المحكومين بالإعدام!

نفذت الأحكام، وصلب ميثم وقطعت يداه ورجلاه..

وانطلقت كلماته.. كلمات علي وصي آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان:

أيها الناس! من أراد الحديث عن علي بن أبي طالب فليأت اليّ!

وراح ميثم يذيع أسراراً مدهشة من علوم محمّد وهي علوم السماء.. وطارت التقارير تحذر الطاغية من استمرار هذا الصوت! وما أسرع أن جاءت الأوامر بقطع لسانه ولما رأى ميثم التمار الجلاد قادماً قال:

لقد أنبأني بذلك أمير المؤمنين ثم أخرج لسانه وتحققت النبوءة!

كان ميثم من أقرب أصدقاء علي صوت العدالة والإنسانية، وعندما أخبره علي بما سيجري عليه قال له: انك ستصلب على جذع نخلة عاشر عشرة، ثم أراه النخلة التي سيصلب عليها وعلى مدى أكثر من عشرين سنة كان ميثم يزور نخلته وربما توضأ عندها وصلّى ركعتين!

فوجئ عمرو بن حريث بمشهد ميثم التمار مصلوباً على جذع نخلة في جوار داره! هتف مأخوذاً بالمفاجأة:

آه الآن عرفت سرّ كلماته.. لطالما قال لي سأصبح جارك فأحسن جواري!

لهـذا أمـر ابن حريث إحدى فتياتـه أن ترش مكان الصليب وتكنسـه مادام جاره مصلوباً على جذع هذه النخلة.

قال رجل من بني أسـد: اذكر قبل سـنوات إن ميثم التقى حبيب بن مظاهر الأسدي قال له حبيب:

لكأنـي بشـيخ أصلع ضخم البطـن يبيع البطيخ عنـد دار الرزق قد صلب في حب آل بيت نبيه.

فقال له ميثم:

وأنـا اعـرف رجلاً أحمر يخرج لنصرة ابن بنت نبيه فيقتل ويجال برأسـه في الكوفة!

ها هو ميثم قد صلب لأنه لم يتبرأ من علي!

أمـا حبيـب بـن مظاهـر فقـد تمكـن مـن مغـادرة الكوفـة إلى جهـة مجهولة وكذلك مسلم بن عوسجة وأبو ثمامة الصائدي..

لقـد اختفى رجـال كثيرون لا يعرف لهـم اثر، واعتقل رجـال كثيرون وبدأت الإجراءات الشديدة في عسكرة المجتمع الكوفي.

قـوة من سلاح الفرسـان بقيادة الضابط الكبيـر الحر بن يزيد الرياحي تغادر الكوفة، وتمسح الطريق المؤدية إلى مكة لتوقيف قافلة يقودها الحسين!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

عشرات المفارز المسلحة تتمركز في مداخل الطرق والشوارع، وعشرات الدوريات تجوس خلال الأحياء لإشاعة أجواء الخوف الإرهاب.

وفي منطقة القادسية حيث تتمركز قوات بقيادة الحصين بن نمير القي القبض على مبعوث الحسين قيس بن مسهر الصيداوي ليرسل مخفوراً إلى الكوفة.

كان قيس يحمل رسالة هامة من الإمام الحسين إلى أهل الكوفة وربما إلى الأجيال والتاريخ!

أطل شهر محرم الحرام لم يرَ الناس هلاله فقد اختفى وراء ركام من غيوم تشرين. عام هجري جديد أطل وقد مضت خمسون سنة على رحيل النبي ﷺ وها هو سبطه قادم من أجل المقهورين ومن أجل المستضعفين.

القلوب كل القلوب مع الحسين والسيوف كل السيوف مع يزيد لقد انفصل القلب عن الإرادة، الرغبة في الحياة بأي ثمن هي من وراء هذه المأساة الإنسانية في هذه المدينة المقهورة.

في ذلك الصباح الكئيب وقد تراكمت غيوم تشرين وبدا قصر الأمارة نسراً جاثماً على صدر هذه المدينة الحزينة وقد استحال ابن زياد إلى ذئب بشري أو حية رقطاء يلوح بسوطه فتتساقط الرؤوس وتتدحرج عند قدميه صرخ الطاغية: هل من أخبار؟!

أجاب ابن الأشعث الذي لازم القصر منذ اندلاع ثورة مسلم، إن سلاح

الفرسان بقيادة الحر ما يزال يجوب الطريق الممتدة إلى مكة لكن لا شيء حتى الآن، إلّا أنه بات قريباً!

وكيف عرفت؟

تم توقيف مبعوثه قيس بن مسهر الصيداوي في القادسية وعندما بدأوا تفتيشه مزّق رسالة من الحسين إلى أنصاره!

وأين هو الآن؟

في سجن الكناسة.

ألم تعرفوا المكان الذي وصل إليه الحسين؟

كلا انه لا يتكلم!

علي به.. أعرف كيف انتزع منه الكلام عندما انتزع روحه!

طلب ابن زياد أن يكون طريق قيس بن مسهر الصيداوي على مشهد المصلوبين قبل أن يدخلوه إلى القصر.

جاء رجال الشرطة بسفير الحسين قيس بن مسهر من سجن الكناسة عبر الشوارع والأزقة في مسار نصف دائري يخترق ميدان مراد إلى دور كندة إلى السبخة ومنها إلى الشارع الذي يؤدي إلى قصر عمرو بن حريث حيث ترتفع عشرة صلبان كانت فيما مضى أشجار نخل وكان عاشرها أقصرها جذعاً قد صلب عليه رجل مبتور الأطراف ولو كان قيس قريباً منه لعرفه فقد كان الرجل المصلوب هو ميثم التمار الذي عرجت روحه إلى السماوات وقد خمد صوته

لكنه الآن يتحدث بلغة الصمت!

كان ابن زياد يتصور أنه سوف يهزم قيساً ويدفعه إلى التشبث بالحياة بأي ثمن؟!

كان ابن زياد يلوح بسوطه في الهواء فينبعث من ذلك صوت مخيف تنخلع له قلوب الذين رضوا بالحياة الدنيا.

ادخل الرجل الصيداوي على طاغية العراق، كانت علامات الإرهاق والإجهاد بادية على وجهه باستثناء عينيه اللتين تتقدان بنور نفاذ وإباء يتألق فوق انف أشم.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

صرخ ابن زياد دون مقدّمة: لماذا مزقت الرسالة؟

قال قيس بهدوء وتحدي: لئلا تطّلع عليها.

اخبرني عما فيها!

لا أعرف ما تشتمل عليه؟

غير مخصص للبيع أو الطباعة

أمر ابن زياد أن يأخذوه إلى أعلى القصر ليشرف على الناس ويسب الحسين وأباه.

سكت قيس، كان يريد أن يكون لموته ثمناً لا يريد أن يموت قبل أن ينقل رسالة الحسين.. على الإنسان ألّا يموت دون معركة.

افتر ابن زياد عن ابتسامة ساخرة تصور أن قيساً لا يختلف عن غيره من

الذين انهاروا أمامه..

قيس في مواجهة النهاية، حشود من الناس تنظر إليه.. تنظر إلى ضحية أخرى من ضحايا النظام.

كان قيس قد رأى عمر بن سعد ذليلاً في حضرة الطاغية وهكذا شمر بن ذي الجوشن ورأى وجوهاً كالحة تبرق عيونهم بكل الرذائل تصورهم ذئاباً كاسرة وكلاباً مسعورة، فتذكر رؤيا الحسين في «وادي العقبة» كانت رؤيا مثيرة! فقد رأى كلاباً مسعورة تنهش لحمه وتهاجمه بوحشية وقسوة من كل صوب وكان أشدّها قسوة كلب أبقع، كان ينهشه من عنقه ونحره!

قيس بن مسهر الصيداوي مصفد بالسلاسل والقيود ينظر إلى الوافدين من أجل الصلاة في المسجد فتساءل لمن يسجدون؟ ولمن يركعون؟ إذا كانوا يسجدون لله فلماذا هم أذلاء؟!

الذين يركعون للطغيان عبيد أذلاء، والذين يركعون لله وحده هم الأحرار حقاً، الإنسان المؤمن هو الذي لا يرتجف أمام الطاغية لأن المؤمن أقوى من الجبل هل رأيت جبلاً يرتجف أمام الجرذ؟!

الناس ينظرون إلى قيس وتصوّر معظمهم أنه سينهار ويتشبث بالحياة كما هم؟

«وهنا نطق قيس.. بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلى على رسول الله والسلام على أمير المؤمنين وعلى الحسن والحسين اللهم العن عبيد الله بن

زياد وأباه ويزيد وأباه!

أيها الناس أنا رسول الحسين وقد ودعته في «الحاجر» فأجيبوه!

دمعت عيون البعض فرحاً بهذا التحدي، لقد كانوا يبحثون عمن يقاتل عنهم بالنيابة؟

واقتيد قيس الصيداوي ليواجه قدره بشجاعة. من فوق القصر..

قصر الأمارة القي ذلك البطل.. كان يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما جاء ذئب بشري ليذبحه من الوريد إلى الوريد..

وذرفت العيون دموع الحزن على ذلك الشهيد لقد كان المجتمع في هذه المدينة وفي ذلك المقطع التاريخي يبحث عمن يقاتل عنه بالنيابة حتى إذا سقط شهيداً بكى عليه..

في مساء ذلك اليوم المكفهر سلّم الطاغية إلى عمر بن سعد وثيقة تعيينه حاكماً على إقليم الري وجرجان وكاد ابن سعد يطير فرحاً.

وعندما أراد الانصراف شيعه ابن زياد بنظرات لها معنى ثم ناداه: انتظر!

توقف عمر حائراً وشعر بوجود لغز لا يمكن حلّه وحانت التفاتة منه إلى شمر بن ذي الجوشن فرآه ينظر إليه هازئاً قال بغيظ: هل يسخر هذا الأبرص مني؟!

وسمع ابن زياد يقول له: قبل أن تذهب إلى بلاد الري عليك أن تتوجه إلى حرب الحسين! انه في عدد قليل سأسند إليك القيادة العامة للجيش!

قال ابن سعد بلهجة فيها خنوع وتملّق:

أيها الأمير لقد وليتني حكومة الري وجرجان وقد سمع الناس بذلك فدعني اذهب وعندك من يتولّى هذه المهمة. عندك شبث بن ربعي وحجار بن أبجر وهذا شمر أيضاً!

قال ابن زياد بحدّة: أنا لا أستشيرك فيمن يتولى قيادة الجيش! إما أن تتولّى قيادة الجيش وإلّا فسألغي أمر تعيينك؟!

سكت عمر لحظات ثم قال: أمهلني هذه الليلة لأفكر.

افتر عبيد الله بن زياد عن ابتسامة صفراء انه يعرف هؤلاء اللاهثين وراء الثروة والسلطة؛ يعرف طريقة تفكيرهم جيداً..

إن المعركة الحقيقية التي يخوضها الإنسان هي معركة الأعماق؟ في داخل كل إنسان معركة مصيرية يتوقف عليها مستقبله الحقيقي، أما السعادة وإما الشقاء!

من أجل هذا قال رسول الله ﷺ في استقبال العائدين من الجهاد: مرحباً بمن قضوا ما عليهم من الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر.

أجل أن الحرب الكبرى هي الحرب داخل أعماق النفس الإنسانية.

وأمضى ابن سعد ليلته يفكر واستشار بعض معارفه وذويه فكان موقف الجميع: لا تتورط يحرب الحسين بن علي إياك أن تسفك دم ابن النبي! سوف تجمع العار والنار.. تظاهر ابن سعد انه أخذ بنصيحتهم، لكن نداءً يضج في

أعماقه المظلمة يشبه عواء الذئاب: والحكم! والسلطة! والثراء؟!

إنها فرصة العمر، سوف تعيش في قصور فارس الأسطورية وستنعم بالجاه والسلطة والثراء والفتيات الجميلات خطوة واحدة فقط تفصلك عن تحقيق أمانيك! أن تعبر فوق جسد الحسين!

ألا تخاف الله يا عمر؟ كيف تجرؤ على ذلك كيف تلقى الله غداً بوزر الجريمة؟!

يمكنك أن تتوب فيما بعد. ثم من قال لك أن الحرب ستقع؟! ربما يستسلم الحسين! من يدري!

يا لك من مخادع أنت تعرف الحسين جيداً! تعرف إباءه! أتظن إن الحسين يستسلم؟ هذا مستحيل!! أجل مستحيل!

وانتبه إلى صياح الديك، هل طلع الفجر؟! وخيل إليه انه يسمع نباح كلاب مسعورة.

عندما أخذ عمر طريقه إلى قصر الأمارة كانت المعركة قد انتهت.. لقد عصفت الأطماع والأهواء بسراج العقل وانطفأ بصيص النور، فإذا القلب مرآة صدئة وإذا الأعماق غابة تضج بعواء الذئاب!

تقابل الرجلان انحنى عمر بن سعد الذي ناهز عمره الستين لابن زياد الذي لم يبلغ الثلاثين بعدها قال عمر بخنوع:

سأنفذ أمر الأمير أنا رهن إشارتك!

قال طاغية العراق:

اذن خذ جنودك في حمام أعين إلى معسكر النخيلة!

كان هناك أربعة آلاف جندي معسكرين في «حمام أعين» على أهبة الاستعداد للتحرك نحو إيران وتحرير مناطق حدودية محتلة، ها هم الآن يتجهون نحو معسكر النخيلة.

الطاغية الأرعن يقرع طبول الحرب في زمن يصلب في الأنبياء!

هذه المدينة تعصف بها رياح الشيطان، رياح من حقد وحسد وأطماع وحتى ثارات قديمة، لقد خطف الذهب العقول والألباب ودمرّ الخوف إرادة الإنسان، وما أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع..

رياح صفراء تجوس خلال الديار وسادت أجواء مخيفة وقد قرعت طبول الحرب، وتعالت قهقهات شيطانية، إبليس يسخر من آدم،

ها هي لحظة الجريمة آتية وها هو الظلام الدامس يزحف على الشمس وها هو قابيل يترصد أخاه ليقتله، وها هم الوثنيون يقذفون بإبراهيم في النار الموقدة، وقد قطع رأس يحيى بن زكريا ليقدم في طبق إلى سالومي بغي من بغايا بني إسرائيل، وها هو أبو جهل يخطط لاغتيال آخر الأنبياء في تاريخ الإنسان؟ وها هو ابن ملجم يستلّ سيفه المسموم لاغتيال العدالة والإنسانية!

الطاغية يراقب من فوق سطح القصر الحشود العسكرية وهي تغادر الكوفة لحرب الحسين بن علي بن أبي طالب!

أربعة آلاف جندي بقيادة شمر بن ذي الجوشن يخترقون الشوارع المؤدية إلى طريق النخيلة حيث ينهض اكبر معسكر في هذه المنطقة.

وتلا ذلك ألفا جندي بقيادة يزيد بن الركاب ثم أربعة آلاف جندي بقيادة الحصين بن نمير، ثم كعب بن طلحة يقود ثلاثة ألاف جندي وحجار بن أبجر يقود ألف جندي وتلاه المازني يقود ثلاثة آلاف من الجنود ونصر بن الحارث في ألفين من الجنود.

استدعى الطاغية شبث بن ربعي الذي حاول التملص وعدم التورط في هذه الجريمة، تظاهر بالمرض ولكن ابن زياد يعرف هذا الرجل جيداً! أنه أكبر الانتهازيين في هذه المدينة، مؤذن سجاح ومسليمة بعد ظهور الإسلام.

هدده ابن زياد بالويل والثبور فجاء صاغراً ليقود الف جندي أما عمر بن سعد فقد قاد قواته المزمع توجهها إلى إيران نحو النخيلة ومنها إلى منطقة ما سوف يحددها القدر.

من يدخل هذه المدينة لا يصدق أن هذه القطعان البشرية المسلوبة الإرادة تنتمي إلى الجيل الذي حطم إمبراطورية فارس العظيمة!

لقد نجم عن ارتكاب آلاف الجرائم على مدى عشرين سنة إن استحالت الكوفة إلى مدينة مصابة بانفصام الشخصية منذ الجريمة التي اهتزت لها السماوات والأرض. يوم هوى علي بن أبي طالب صوت العدالة والإنسانية مضرجاً بدمائه في المحراب.

آلاف الفرسان وآلاف المشاة يغادرون الكوفة لقتل ابن آخر الأنبياء في التاريخ.

ورد تقرير عن سقوط ضابط كبير من فوق سطح داره فانكسرت ساقه، وأشيع وقتها أن الحادث وقع دون تدبير!

وقد افلت الضابط من مهمة التوجه لحرب الحسين!

ولقد كان سعيداً محظوظاً فيما حصل له!

صدر مرسوم من القصر الحكومي يقضي بمضاعفة الرواتب فقضى هذا الإجراء على آخر أمل للذين ينتظرون وقوع المعجزة!!!

ثلاثون ألف جندي يغادرون الكوفة لحرب الحسين ليقطّعون أوصاله إرباً إرباً.

خمسمائة من الفرسان بقيادة زحر بن قيس ترابط على جسر الصراة لقطع الطريق على كل من يحاول الالتحاق بالحسين!

العديد من الشخصيات من مختلف الاتجاهات والانتماءات تغادر الكوفة تتسلل للإفلات من هذه المهزلة!

عبيد الله بن الحر الجعفي يغادر هذه المدينة ليقيم في الفلاة على بعد عشرات الأميال أنه يفر من هذا المشهد بعد أن رأى حجم الحشود العسكرية التي تتوجه لحرب الحسين!

حبيب بن مظاهر الأسدي يجوب المناطق التي تقطنها بعض بطون بني

أسد في محاولة لحشد الدعم كان حبيب واثقاً من حدوث المواجهة!

وصل تقرير إلى الطاغية من قيادة سلاح الفرسان تفيد بنزول الحسين في منطقة كربلاء حيث ينهض جبل «ذو حسم».

وفي المدينة التي كانت عاصمة الدولة قبل عشرين سنة أعلنت حالة النفير العام واعتقال كل من يعثر عليه في المدينة بعد الآن، القي القبض على رجل كان قادماً من الشام جاء ليطلب ميراثاً له فكان جزاؤه الإعدام فوراً!

وكان القاضي ابن شريح على وشك الانهيار أمام مئة الف دينار مقابل إصدار فتوى بتكفير الحسين وارتداده!

مدينة الكوفة استحالت إلى مدينة أشباح!

كل القادرين على حمل السلاح يغادرون إلى معسكر النخيلة ومن ثم إلى كربلاء.

وكان الطاغية يبعثر الأموال بعد أن عمد ولأول مرّة في تاريخ الإسلام إلى ضرب دراهم مزورة لتنتشر على نطاق واسع.

ابرق ابن زياد إلى ابن سعد؛ لقد حشدت لك جيشاً جراراً من الفرسان والمشاة وأسندت إليك القيادة العامة لثلاثين ألف! أريد أخبارك باستمرار.

وصل الشمر بن ذي الجوشن ومعه تقرير حول مفاوضات يجريها عمر بن سعد مع الحسين للتوصل إلى حل للازمة بالطرق السلمية وان الحسين على استعداد للعودة من حيث أتى.

قال الشمر وعيناه تبرقان بالنذالة!

لا توافق على هذا العرض.. إنها فرصتك للقضاء عليه! انه الآن في قبضتك أما الاستسلام أو الحرب!!!

وسطر الطاغية الجبان رسالة شديدة اللهجة انتقد فيها ابن سعد على إجرائه المفاوضات مع الحسين. وأنه لأخيار سوى الاستسلام دون قيد أو شرط أو الحرب.. إما أن تنفذ ذلك أو يتولّى الشمر قيادة الجيش بدلاً عنك!

نعيب غربان تائهة يملأ الفضاء، وأرهف بعضهم سمعه، ليصغي إلى نحيب ينبعث من أعماق الأرض.

وها هو التاريخ ذلك الشيخ الغارق في السنين والحوادث يقف مذهولاً في كربلاء..

ووسط قعقعة السيوف وعربدة الطبول كان يصغي إلى صوت سبط آخر الأنبياء في التاريخ:

والله لا تلبثون بعدها إلّا كريثما يركب الفرس؛ ثم تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور! عهد معهود عهده أبي عن جدي رسول الله!

بعد ثلاثة أعوام انتفضت جماهير الكوفة وثأرت لدماء الحسين فكانت ساعة الثورة ميلاداً للضمير الإسلامي.

يقال أن كل ما يجري على سطح الأرض من مشاهد توجد نسخة منه في مكان ما من الوجود..

وان كل الأصوات التي تصدر عن البشر وقعقعة السيوف وهدير المدافع تبقى مخزونة في الفضاء وسمعت إن أحد العرفاء قدّر له أن يشاهد وبعد قرون عديدة يوم عاشوراء بكل تفاصيله المنيرة!

يقول القرآن الكريم صراحة:

﴿هٰذا كِتابُنا يَنطِقُ عَلَيكُم بِالحَقِّ إِنّا كُنّا نَستَنسِخُ ما كُنتُم تَعمَلونَ﴾[1].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

وهكذا تشير الآيات في سورة القلم الآية ٤٦ والزلزلة الآيتان ٧-٨ وسبأ الآية ٣ ولقمان الآية ١٦ والأنبياء الآية ٤٧.

للطباعة والنشر
غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. الجاثية: ٢٩

٢. الكهف: ٤٩

أطول يوم في التاريخ

نحن الآن في كربلاء وقد أشرقت شمس العاشر من تشرين الأول عام ٦٨٠ م للميلاد العاشر من محرم الحرام سنة ٦١ للهجرة؛ ثلاثون ألف جندي هو جيش النظام الأموي، وقد تم نشر أربعة آلاف جندي عند نهر الفرات والسيطرة على مصادر المياه!

وعلى بعد مئات الأمتار معسكر صغير وراية تخفق عالياً مكتوب عليها «نصر من الله وفتح قريب».

خلف المعسكر منخفض أرضي يشبه الخندق ملئ بالأمس بالجذوع والأغصان الجافة وقد أضرمت فيه النار اليوم لحصر المعركة التي ستندلع وشيكاً في جبهة واحدة.

وكانت القافلة قد أناخت برحلها في ارض كربلاء في الثاني من تشرين الأول.

وبعد استكمال نصب الخيام اجتمعوا في حضرة الحسين الذي رفع كفيه إلى السماء وقال!

اللهم إنّا عتره نبيك محمد، قد أخرجنا وطردنا عن حرم جدّتا واعتدى بنو أمية علينا!

اللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين..

والتقت إلى أنصاره ليقول:

الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديّانون!

واستحال اللقاء إلى ما يشبه المؤتمر افتتحه الإمام بإلقاء كلمته بعد الحمد الثناء لله سبحانه وتعالى قائلاً:

أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما ترون؛ وان الدنيا قد تغيرت وتنكّرت، وأدبر معروفها؛ ولم يبق منها إلّا صيابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل!

ألا ترون إلى الحق لا يعمل به؟!

وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟!

ليرغب المؤمن في لقاء الله!

فانّي لا أرى الموت إلّا سعادة!

والحياة مع الظالمين إلّا برماً.

نهض زهير بن القين الفارس في حروب الفتح ليقول:

لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها خالدين، لآثرنا النهوض معك.

وقال برير بن خضير معلم القرآن الكريم!

لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تقطّع من أجلك أجسادنا.

ونهض نافع بن هلال ليسجل موقفاً تاريخياً فريداً عندما قال:

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

أنت تعلم إن جدك رسول الله لم يقدر أن يشرب الناس محبته ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب! وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر ويضمرون له الغدر!

يلقونه بأحلى من العسل! ويخلفونه بأمر من الحنظل حتى قبضه الله إليه! وأن أباك علياً كان في مثل ذلك! فقوم قد اجمعوا على نصره وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين حتى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه.

وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة؛ فمن نكث عهده وخلع بيعته فلن يضر الله إلّا نفسه والله مغن عنه.

فسر بنا راشداً معافى! مشرّقاً إن شئت أو مغرّباً! فوالله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربنا وإنّا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

هذا ما جرى في اليوم الثاني أو الثالث من تشرين الأول. وبعث الإمام الحسين برسالة إلى أخيه محمد بن الحنفية وشخصيات أخرى من بني هاشم هي أوجز رسالة في التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تزل؛ والسلام!

وفي السادس من تشرين الأول محرم الحرام جاء مبعوث عمر بن سعد القائد العام للجيش الأموي ودار هذا الحوار القصير.

قال المبعوث ويدعى سعد بن قرّة:

ما الذي جاء بك..

أجاب الإمام:

إن أهل مصركم كتبوا إلي أن أقدم علينا!

فأما إذا كرهتموني انصرفت عنكم!

عاد المبعوث ليبلغ عمر بن سعد الإجابة فكتب الأخير إلى ابن زياد وجاء الجواب بعد ساعتين، الاستسلام والبيعة ليزيد بن معاوية!

وفي نفس اليوم كان الجيش الأموي قد نشر أربعة آلاف جندي بقيادة عمرو بن الحجاج على نهر الفرات وتم قطع الماء عن المخيم المحاصر[1].

وفي المساء انبعثت أصداء بكاء لأطفال صغار تطلب الماء وهنا ينتدب الإمام الحسين أخاه العباس الذي يصغره بثلاث وعشرين سنة فقد ولد في شعبان سنة ٢٦ هـ الموافق لمنتصف مايس أيار عام ٦٤٧ م.

ومن الناحية التاريخية يعد هذا الحادث أول ظهور لشخصية أبي الفضل العباس على مسرح الأحداث.

تقدم العباس باتجاه الفرات ومعه عشرون من الأنصار في مطلعهم نافع بن هلال الجملي؛ ومن المحتمل جداً وجود علي الأكبر نجل الحسين عليه السلام[2].

وقد حاول عمرو بن الحجاج الزبيدي اعتراضهم وجرى اشتباك قرب الشاطئ وانشغل بعضهم بملء عشرين قربة من مياه النهر فيما كان الآخرون

١. الطبري ج ٦: ٢٣٤؛ مقتل الخوارزمي ج ١، الكامل لابن الأثير ج ٤: ٢٢.

٢. انظر: أمالي الشيخ الصدوق: ٩٥.

يشاغلون قوّه من الجيش الأموي تهيبت المواجهة بعد أن رأوا في العباسي قدرات قتالية مذهلة!

وعاد أبو الفضل ومن معه يحملون عشرين قربة تموج بمياه الفرات ليضاف لقب «السقّاء» إلى هذه الشخصية الكريمة التي احتلت مساحة واسعة من الوجدان الشعبي.

وفي مساء يوم ٨ تشرين الأول أرسل الإمام الحسين عمرو بن قرظة الأنصاري إلى عمر بن سعد يطلب لقاءه بين المعسكرين؛ ولعمرو شقيق يدعى علي اختار الاصطفاف مع السلطة، أما قرظة الأنصاري فهو من الصحابة وكان المسؤول الاقتصادي في منطقة «عين التمر» على الحدود العراقية السورية في حكومة الإمام علي عليه السلام وفي الموعد المحدد خرج الإمام ومعه عشرون فارساً وحضر عمر بن سعد ومعه عشرون فارساً أيضاً.

طلب الإمام عليه السلام من فرسانه أن يتأخروا باستثناء أخيه أبي الفضل وابنه علي الأكبر؛ وفعل عمر بن سعد ذلك أيضاً واستثنى ابنه حفص وغلامه.

قال الإمام عليه السلام:

يا ابن سعد! أتقاتلني؟!

أما تتقي الله الذي إليه معادك؟!

فأنا ابن من علمت!

ألا تكون معي وتدع هؤلاء، فإنّه أقرب إلى الله تعالى..

قال عمر بن سعد:

أخاف أن تهدم داري!

أنا ابنيها لك.

أخاف أن تصادر ضيعتي!

أنا أخلف عليك خيراً منها، من مالي بالحجاز[1]..

إن لي بالكوفة عيالاً وأخاف عليهم من ابن زياد القتل!

ومن الواضح أن عمرو بن سعد كان يحاول تقديم تبريرات لتخاذله، لذلك تساءل بدوره عن هدف الإمام من قدومه إلى الكوفة وأجاب الإمام إنه لم يأت إلّا بعد آلاف الرسائل من أهالي الكوفة كلها تطلب منه القدوم وتطالبه بتحمل مسؤوليته في التغيير!

وعندما أشار عمر بن سعد إلى موقف أهالي الكوفة الجديد وإلى انقيادهم لنظام يزيد، قال الإمام:

دعوني اذهب في هذه الأرض العريضة..

سكت عمر بن سعد فقال الإمام وهو يستشرف المستقبل القريب ويستمطر غضب السماء:

مالك؟! ذبحك الله على فراشك عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك؟! فوالله إني

١. وجاء في بعض المدونات ان الامام عرض عليه أن يعوّض مزرعته بمزرعة «البغيبغة» في الحجاز وكان معاوية قد عرض على الامام مليون دينار ثمناً لها ورفض الامام عليه السلام بيعها.

لأرجو ألا تأكل من بر (حنطة) العراق إلّا يسيراً.

قال ابن سعد ساخراً:

في الشعير كفاية!!!

ولوى عنان فرسه عائداً إلى معسكره[1].

ويبدو أن عمر بن سعد يحاول جاهداً تفادي وقوع الحرب وعدم التورط بارتكاب الجريمة؛ فبعث برسالة عاجلة إلى حاكم الكوفة عبيد الله بن زياد وتزوير بعض وقائع الاجتماع؛ فقد ورد في التقرير: إن الحسين وعده بالعودة إلى المكان الذي جاء منه أو أن ينفى إلى إحدى المناطق الحدودية بل وحتى استعداده للتوجه نحو دمشق ومصافحة يزيد!!!

وقد كذّب عقبة بن سمعان الذي كان يعمل في خدمة القافلة بشدّة قائلاً:

«صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومنها إلى العراق.. وقد سمعت جميع كلامه فما سمعت منه ما يتذاكر فيه الناس من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيّره إلى ثغر من الثغور.. نعم سمعته يقول: دعوني أذهب إلى هذه الأرض العريضة»[2].

في صباح اليوم التاسع من تشرين الأول جاء شمر بن ذي الجوشن يحمل رسالة عاجلة من حاكم الكوفة وفيها انتقاد شديد اللهجة بسبب ما وصفه

---

١. مقتل الخوارزمي ج ١: ٢٤٥.

٢. الطبري ج ٦: ٢٣٥ حوادث سنة ٦١.

بتهاونه في أداء المهام الموكلة إليه ثم وضعه أمام خيارين أن يعرض على الحسين الاستسلام دون قيد أو شرط أو الحرب!

كما أمره في حال رفض الانصياع للأوامر أن يتنحى جانباً ويسند قيادة الجيش إلى الشمر بن ذي الجوشن وعندما قرأ ابن سعد الرسالة أدرك أن الشمر هو من وراء هذه الرسالة لذلك انتقده بشدّة قائلاً:

لقد أفسدت علينا أمراً رجونا أن يصلح!

وسكت لحظات ليقول:

والله لا يستسلم الحسين؛ فان نفس أبيه بين جنبيه!

كان الشمر يطمح إلى تولّي قيادة الجيش فطلب من ابن سعد أن يحسم موقفه؛ أما أن ينفذ الأوامر أو أن يستقيل عن القيادة، فقال ابن سعد على الفور:

أنا أتولّى ذلك..

غير أنه أسند إليه قيادة سلاح المشاة[1] من الصعب أن يكتشف المرء مراحل الانحطاط التي وصل إليها هذا الذئب البشري ولا الطريقة التي يفكّر بها.

ففي عصر هذا اليوم جاء «الشمر» ليقف قريباً من معسكر الحسين وينادي:

أين بنو اختنا؟

١. الطبري ج ٦: ٢٣٦.

ثم يصرّح:

أين العباس وأخوته؟

كان العباس يعرف المنادي جيداً لذلك ازدراه ولم يجبه فقال الإمام الحسين:

أجيبوه ولو كان فاسقاً..

اذن فالشمر إنسان «فاسق» ثمة إشارة إلى مواصفات للفاسق وردت في آيات الختام من سورة الحشر وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، الفاسق اذن من لا يفكر بمستقبله وغده الحقيقي؛ لقد نسي الله ومن نسى الله فانه سينسى نفسه سوف يتحول إلى حيوان بل إلى ما هو أسوأ من الحيوان، لقد استحال الشمر إلى ذئب وإلى كلب مسعور وإلى مسخ يتلذذ بإراقة دماء الأنبياء!

من أجل ذلك أجابه العباس قائلاً:

ما شأنك وما تريد؟

وجاء صوته يقول:

يا بني أختي! انتم آمنون!

لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين!

١. الحشر: ١٨-١٩

وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد!!!

وما أسرع ما انطلقت صيحة العباس:

لعنك الله ولعن أمانك!

أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟!

وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء؟!

جنحت الشمس للمغيب ولامست الأفق الدامي. كان الحسين جالساً عند مدخل خيمته محتبياً سيفه، غمضت عيناه لتنفتح نافذة على عالم آخر مليء بالأسرار! رأى جده إن اللقاء بات وشيكاً جداً.

وسمعت شقيقته الحوراء قرع طبول الحرب فقالت لأخيها:

قد اقترب العدو.

كان ابن سعد قد أصدر أوامره إلى جميع قطعاته العسكرية بما في ذلك القوات المرابطة عند نهر الفرات بالزحف نحو معسكر الحسين.

طلب الإمام من أخيه أن يسألهم عما جاءهم وما الذي يريدون؟!

امتطى العباس صهوة جواده وتقدم ومعه عشرون فارساً لمواجهة الجيش الجرار.

وكان الجواب:

جاء أمر الأمير (ابن زياد) بالاستسلام أو الحرب! عاد العباس إلى المعسر

ليطلع أخاه، فيما ظل فرسانه في مواجهة الجيش الأموي المؤلف من أهالي الكوفة!!! قال حبيب يعظهم:

أما والله بئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه وقد قتلوا ذرية نبيه وأهل بيته، وعبّاد أهل هذا المصر المتهجدين بالأسحار الذاكرين الله كثيراً.

قال عزرة بوقاحة:

انك لتزكي نفسك ما استطعت!

فقال زهير بن القين:

يا عزرة إن الله قد زكّاها وهداها! فاتق الله يا عزرة فاني لك من الناصحين!

أنشدك الله يا عزرة ألا تكون ممن يعين أهل الضلالة على قتل النفوس الزكية!

قال عزرة يذكّره بماضيه:

يا زهير ما كنت من شيعة أهل البيت!

كان زهير في الحقيقة من المساندين والمؤيدين للخلافة الثالثة بقيادة عثمان لذلك قال في معرض جوابه:

ألا تستدلّ بموقفي هذا إني منهم!

ثم ذكّره بأنه لم يكن ممن راسل الحسين وطلب منه القدوم وقيادة الثورة ضد النظام الأموي!

كان قيس بن الأشعث في طليعة الشخصيات التي بعثت برسائل إلى الإمام الحسين عندما كان في مكة، والآن انظر إلى أين انتهى أمره!

لقد حسم زهير موقفه فاختار الموت الأحمر مع الحسين على الحياة في ظل يزيد!

وفي الأثناء يعود العباس يطلب من ابن سعد مهلة حتى فجر اليوم التالي.

سكت ابن سعد لحظات ثم التفت إلى ضباطه فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي مستغرباً هذا التردد وحث ابن سعد على الموافقة وكذلك قيس بن الأشعث مع انه كان متأكداً من صلابة موقف الحسين.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

فقال ابن سعد مخاطباً العباس وفرسانه:

إنا أجلناكم إلى غد فان استسلمتم سرحنا بكم إلى الأمير ابن زياد وإن أبيتم فلسنا تاركيكم[1].

غير مخصص للبيع أو الطباعة

وهكذا تم الاتفاق على مهلة أقل من عشر ساعات تنتهي عند مطلع فجر العاشر من محرم الحرام العاشر من تشرين الأول.

وانسحبت قطعات الجيش إلى المعسكر المجاور لنهر الفرات.

الليلة الطويلة

قبل حلول المساء اجتمع الإمام بأنصاره وألقى كلمة جاء فيها:

---

١. الطبري ج ٦: ٣٣٧.

اثني على الله أحسن الثناء؛ واحمده على السرّاء والضرّاء!

اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة وعلمتنا القرآن؛ وفقهتنا في الدين؛ وجعلت لنا إسماعاً وأبصاراً وأفئدة؛ ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد..

فاني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي!

ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي!

فجزأكم الله عني جميعاً!

ومرّة أخرى يفتح الإمام الحسين أمام أنصاره وأسرته باباً للإفلات من النهاية الدامية الوشيكة عندما قال:

ألا واني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً!

وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل؛ ليس عليكم مني ذمام!

وهذا الليل قد غشيكم؛ فاتخذوه جملاً!

ولياً خذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي..

فجزأكم الله جميعاً خيراً!

وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم!

فان القوم إنّما يطلبوني؛ ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري.

وهنا ينهض أخوه أبو الفضل العباس..

ولم نفعل ذلك؟!!

لنبقى بعدك؟!!

لا أرانا الله ذلك أبداً..

كل أهل بيته كان موقفهم واحداً في أنه لا معنى للحياة بعد الحسين!

التفت الإمام إلى أبناء عمه عقيل وقال:

حسبكم من القتل بمسلم!

اذهبوا قد أذنت لكم..

وجاء موقفهم أبياً:

لا والله لا نفعل!

ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا نقاتل معك! فقبح الله العيش بعدك.

أجل ستفقد الحياة جمالها بعد مصرع الحسين.

ثم تأتي مواقف الإباء يجسدها أنصاره قال مسلم بن عوسجة.

والله لا أفارقك حتى اطعن برمحي واضرب بسيفي ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك!

سعيد بن عبد الله الحنفي:

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

والله لا نتخلّى عنك!

والله لو علمت إني اقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم اذرّى يفعل بي ذلك سبعين مرّة لما فارقتك!

زهير بن القين:

والله لو قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل وأحيا ألف مرّة.

فسأبقى أدافع عنك!

وهنا أشار ابن آخر الأنبياء بيده إلى الأفق الأزرق فانفتحت أبواب السماء فإذا جنات عدن والفردوس بأشجارها وخرير أنهارها وصفائها.. ومرّت لحظات كانت مفعمة بالسلام.

واستحال المخيم الحسيني إلى خلية نحل؛ كانت أصداء التلاوة والصلاة، والتراتيل، تنبعث من داخل الخيام وفي تلك الليلة قاربوا بين الخيام حتى يتعذّر على فرسان العدو مهاجمتها واختراق المخيم أما المنخفض الأرضي الواقع خلف المخيم فقد مليء حطباً بعد أن تم حفره وزيادة عمقه.

كانت السيدة زينب تقوم بتمريض ابن أخيها علي بن الحسين وكان في الثانية والعشرين من العمر تعرض لانتكاسة صحية حتى فقد القدرة على مغادرة فراشه، ويبدو انه تعرض إلى نزلة برد حادّة وزكام شديد وحمى.

وفي الأثناء وصلت أخبار إلى أحد أنصار الحسين ويدعى محمد بن بشير الحضرمي حول وقوع ابنه في الأسر، فقال له الامام عليه السلام:

أنت في حلّ من بيعتي، فاعمل في فكاك ولدك!

قال محمد:

لا والله لا افعل ذلك مزقتني السباع حيّاً إن فارقتك! فأمر الإمام أن يسلّم ثياباً بقيمة الف دينار يوصلها إلى أبنه الآخر من أجل أن يعمل في افتداء أخيه من الأسر.

ومازح بريـر معلم القرآن أحد رفاقه ويدعى عبد الرحمن الأنصاري فقال الأخير:

وهل هذا وقت مزاح؟!

فقال برير:

ولم لا؟! وليس بيننا وبين دخول الجنة إلّا أن يميل هؤلاء بسيوفهم علينا أودّ لو أنهم فعلوا ذلك الآن!

أما حبيب فقد بدا في غاية الانشراح حتى أنه تضاحك فقال يزيد الهمداني:

وهل هذا وقت للضحك؟!

قال الشيخ الوقور:

وأي موضع أحق بالسرور من هذا؟ ما هو إلّا أن يميل علينا هؤلاء بسيوفهم فندخل الجنة!

واقتربت دورية من فرسان العدو من المخيم وكان الإمام الحسين يتلو آيات

من القرآن: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٧﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1].

صاح أحدهم:

نحن الطيبون ميزنا عنكم!!!

أجابه برير معلم القرآن:

هلم إلينا وتب من ذنوبك! فوالله لنحن الطيبون وانتم الخبثاء..

أجاب الرجل ساخراً:

وأنا على ذلك من الشاهدين!!!

وابتعد فرسان الدورية ليعود الصمت يهيمن على المكان ما خلا أصداء تلاوة آيات من القرآن وابتهالات ومناجاة تنبعث من داخل الخيام التي يغمرها الليل وأضواء قمر شاحب.

وفي منتصف الليل غادر الإمام الحسين المخيم باتجاه يسار المنطقة الواقعة بين المعسكرين والتي ستكون غداً ميداناً لمعركة فريدة في التاريخ!

وشعر نافع بن هلال الجملي بالقلق فخرج في أثر الإمام الذي انتبه إلى وجوده وسأله عما أخرجه؟ أجاب الجملي:

---

١. آل عمران: ١٧٧-١٧٨

يا بن رسول الله أفزعني خروجك إلى جهة معسكر هذا الطاغي؟!

فقال الحسين:

خرجت أتفقد التلاع والروابي مخافة أن تكون مكمنا لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

لم يكن خلف التلال اذن أي أثر لسلاح الفرسان فعاد الإمام وهو يمسك بيد رفيق الدرب قال وهو يتأمل السماء المرصعة بالنجوم: هي هي والله! وعده الذي لا يخلف الميعاد!

والتفت إليه قائلاً:

ألا تسلك بين هذين الجبلين وتنجو بنفسك؟!

ارتاع نافع وهوى على قدمي القائد الذي هزم الموت قائلاً:

والله الذي منّ بك عليّ لن أفارقك!

لم ينم أحد حتى الأطفال فقد كان بعضهم يبكي من العطش، وجف اللبن في صدور الأمهات!

جلس الحسين في خيمته يصلح سيفه لمعركة الغد وراح يردد بصوت حزين أبيات من الشعر:

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وطالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حيّ سالك سبيلي

لقد نزل الأمر أذن وحلّ البلاء في أرض كربلاء، اختنق علي بن الحسين

بعبرته؛ إن أباه ينعى نفسه وغداً سيكون يوم الواقعة!

أما شقيقة الحسين الحوراء زينب فقد نهضت إلى خيمة أخيها وشهقت بعبرتها:

واثكلاه!

ليت الموت أعدمني الحياة!

اليوم ماتت أمي فاطمة!

وأبي علي!

وأخي الحسن!

يا خليفة الماضي!

وثمال الباقي!

لقد اجتمعت كل المصائب في هذه اللحظات لتنقض على هذه المرأة الممتحنة؛ نهض الحسين لاستقبالها وقال معزّياً:

يا أختاه!

تعزّي بعزاء الله!

واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون؛ وكل شيء هالك إلّا وجهه!

كلمات للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة[1]!

قالت وهي تذرف الدموع:

أفتغصب نفسك اغتصاباً؟!

فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي!

ونادت:

وا محمداه وا علياه وا أماه!

واحسيناه!

واضيعتنا بعدك!

واستحال المكان إلى مأتم بعد أن اجتمعت النسوة والفتيات ليذرفن الدموع.

قال الحسين عليه السلام:

يا أختاه! يا أم كلثوم!

يا فاطمة!

يا رباب!

انظرن إذا أنا قتلت!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. تاريخ اليعقوبي ج ٢: ٢٤٣.

فلا تشققن عليّ جيباً!

ولا تخمشن وجهاً!

ولا تقلن هجراً!

وأخذ بيد أخته وشقيقته إلى خيمتها وأخبرها بأن الإمام بعده علي وأوصاها بأن تتستّر عليه وتعتني به.

واقترح نافع بن هلال الجملي على الأنصار في تجديد قسم الولاء لتطييب خواطر النسوة.

وسرعان ما اجتمعوا ليؤدوا قسم الولاء وجاء صوت الشيخ الوقور حبيب بن مظاهر الأسدي مدوّياً في سماء التاريخ:

يا معشر حرائر رسول الله!

هذه سيوف فتيانكم أقسموا ألّا يغمدوها إلّا في رقاب من يريد السوء فيكم!

وهذه رماح غلمانكم أقسموا إلّا يركزوها إلّا في صدور أعدائكم.

وجاء صوت النسوة ممتزجاً بالبكاء:

أيها الطيبون!

حاموا عن بنات رسول الله! وحرائر أمير المؤمنين!

وعادت أجنحة السلام ترفرف فوق المكان! ما خلا ذلك الدويّ الذي يشبه دوي النحل في خلاياه.. أصداء آيات ومناجاة وابتهالات ورفيف أجنحة

الملائكة.

وفي السحر خامر النوم عيني الحسين فرأى في عالم الرؤى كلاباً مسعورة تهاجمه وتنهش جسده وكان أشدّها وحشية كلب أبقع![1].

ويخبر الحسين أنصاره بالرؤيا ويقول لهم إن من سيتولّى ذبحه رجل أبرص!

ورؤيا أخرى كان النبي صلى الله عليه وآله مع جمع من أصحابه الأتقياء يقول له: أنت شهيد هذه الأمة! وقد استبشر بك أهل السماوات وأهل الملكوت الأعلى!

وقد نزل ملك من السماء ليأخذ دماءك في قارورة خضراء[2].

وطلع فجر العاشر من المحرّم العاشر من تشرين الأول وكانت الشمس في برج الميزان، والقمر في برج الدلو وزحل في برج السرطان، والمشتري في برج الجدي، والزهرة في برج السنبلة وكان عطارد في برج الميزان[3].

أجل نحن الآن في أرض كربلاء، وقد طلع الفجر حزيناً وسرت في الطبيعة رعدة مخيفة.

اصطف المؤمنون وراء ابن آخر الأنبياء لأداء آخر صلاة في وقت الفجر.

ولما فرغ من الصلاة ألقى كلمة موجزة في أنصاره مجّد الله سبحانه فيها وقال:

---

١. مقتل الحسين، عبد الرزاق المقرّم: ٢٢٠.

٢. المصدر السابق.

٣. تاريخ اليعقوبي ج ٢: ٢٤٣.

إن الله تعالى قد أذن في قتلكم وقتلي في هذا اليوم فعليكم بالصبر والقتال!

واصطف جيشه المؤلف من اثنين وسبعين جندياً في جناحين؛ الجناح الأيمن بقيادة زهير بن القين والجناح الأيسر بقيادة حبيب بن مظاهر الأسدي. وفي القلب وقف الإمام الحسين عليه السلام ومعه أهل بيته وسلّم راية جيشه إلى أخيه أبي الفضل العباس.

وتقدّم عمر بن سعد يقود جيشه الجرّار المؤلف من ثلاثين ألف جندي.

وكان عمرو بن الحجاج قائداً للجناح الأيمن والجناح الأيسر بقيادة شمر بن ذي الجوشن، حيث سلاح الفرسان بقيادة عزرة بن قيس وسلاح المشاة بقيادة شبث بن ربعي.

أوعز الإمام الحسين بإضرام النار في الخندق فانطلقت السنة النار.

وقامت قوه من سلاح الفرسان بقيادة الشمر بمحاولة التفاف من وراء المخيم ولكن خط النيران المضطرمة في الخندق منعهم من الاقتراب من المخيم وهنا جاء صوت الشمر مترعاً بالنفاق والنذالة والدجل:

يا حسين! تعجّلت بالنار قبل يوم القيامة..

قال الإمام:

من هذا؟ كأنه الشمر بن ذي الجوشن؟!

قال مسلم بن عوسجة:

نعم..

وأراد أن يطلق سهماً، ولكن الإمام أشار ألا يفعل ذلك؛ قائلاً انه لا يريد أن يكون البادئ في إشعال الحرب!

وراح ابن آخر الأنبياء يتأمل تلك الحشود تموج كأنها السيل، رفع كفيه إلى السماء بالدعاء:

اللهم أنت ثقتي في كل كرب!

ورجائي في كل شدّة!

وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدّة!

كم من همّ يضعف فيه الفؤاد!

ويخذل فيه الصديق! ويشمت فيه العدو!

أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك!

فكشفته وفرّجته!

فأنت ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة[1].

وطلب إحضار الراحلة[2] فركبها وتقدم خطىً إلى الإمام ونادى بصوت عال كأنه يخاطب التاريخ والأجيال:

---

١. تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤: ٢٣٣.

٢. الناقة التي تستخدم للسفر والرحيل.

أيها الناس!

إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال!

متصرفة بأهلها حالاً بعد حال!

فالمغرور من غرّته! والشقي من فتنته!

فلا تغرّنكم هذه الدنيا! فإنها تقطع رجاء من ركن إليها!

وتخيب طمع من طمع فيها!

وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم! واعرض بوجهه الكريم عنكم أو أحلّ بكم نقمته!

فنعم الرب ربّنا! وبئس العبيد أنتم!

أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد! ثم إنكم زحفتم الي ذريته وعترته تريدون قتلهم؟!

لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم! فتباً لكم ولما تريدون!

إنا لله وإنّا إليه راجعون!

هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم؛ فبعداً للقوم الظالمين![1].

وأن المرء ليلاحظ اندماج الخطاب الحسيني بالخطاب القرآني، فإذا

١. مقتل الحسين، عبد الرزاق المقرّم، ص ٢٢٨.

كلماته تذوب في آيات القرآن الكريم «اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء».

لذلك بقيت كلمات الحسين في سماء كربلاء قوية واضحة مؤثرة أقوى من طبولهم وعربدتهم وكل زيفهم وأراد الحسين أن يضعهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة عندما قال:

أيها الناس انسبوني من أنا؟!

ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها!

وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟!

ألستُ ابن بنت نبيكم وابن وصية وابن عمه!

وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟!

أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟

أو ليس جعفر الطيار عمي؟

أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟

فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق!

والله ما تعمدت الكذب، منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضرّ به من أختلقه!

وإن كذبتموني، فان فيكم من إذا سألتموه عن ذلك أخبركم!

سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري! وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك!

يخبروكم انهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي؟!

أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!

صاح الشمر:

لم أفهم مما قلت حرفاً واحداً..

ردّ حبيب فوراً:

أشهد انك صادق قد طبع الله على قلبك..

أجل هذه هي الحقيقة إن القلوب السوداء لن تكون مرايا صافية؛ القلب الذي ينبض بالحب هو وحده الذي يتلقى الإشراق والوعي.

من أجل ذلك لم ولن يفهم الشمر وغيره من تلك الذئاب البشرية كلمات الحسين وقد استأنف خطابه قائلاً:

فإن كنتم في شك من هذا القول! أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم؟!

ويحكم أتطلبوني بقتيل لكم قتلته؟!

أو مال لكم استهلكته؟! أو بقصاص جراحة؟!

وعندما عجزوا عن الجواب نادى مذكراً بعض الذين راسلوه ثم جاءوا الآن

يقودون الجيوش لقتله:

يا شبث بن ربعي!

ويا حجار بن أبجر!

ويا قيس بن الأشعث!

ويا زيد بن الحارث!

ألم تكتبوا اليّ أن أقدم! قد أينعت الثمار واخضّر الجناب وإنّما تقدم على جند لك مجنّدة؟

دون أيّ حياء وشعور بالخجل جاءت أصواتهم:

لم نفعل؟!!

فقال الحسين:

سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم!

ثم نادى:

أيها الناس!

إذا كرهتموني، فدعوني انصرف عنكم إلى مأمنٍ من الأرض!

وهنا اقترح قيس بن الأشعث على الإمام أن يستسلم لبني عمه!!

فانهم سيعاملونه معاملة حسنة!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

فقال الحسين مذكّراً بما فعله أخوه محمد بن الأشعث وغدره بمسلم:

أنت أخو أخيك! أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟!

ثم أطلق صرخته الخالدة:

لا والله!

لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل!

ولا أفرّ فرار العبيد!

عباد الله!

إنّي عذت بربي وربكم أن ترجمون!

أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أناخ راحلته وطلب من عقبة بن سمعان أن يعقلها[1].

تصاعد قرع الطبول وصهيل الخيل وبدأت قطعات من الجيش تقدّمها باتجاه معسكر الحسين، وكان أحد الفرسان قد بدا متحمساً جداً لسفك دماء الأنبياء صاح بأعلى صوته وهو يلوي عنان فرسه!

أفيكم حسين؟!

وكرر سؤاله مرّة أخرى وأخرى..

فأجابه أحد أنصار الإمام!

---

١. تاريخ الطبري ج ٦: ٢٤٣.

هذا الحسين فما تريد؟!

فصاح الرجل:

يا حسين ابشر بالنار!

ناداه الحسين:

كذبت بل أقدم على رب غفور كريم شفيع فمن أنت؟

أنا ابن حوزة!

هنالك رفع الإمام كفيه إلى السماء وقال:

اللهم حزه إلى النار!

فجأة عربد الحصان كما لوانه أصيب بالجنون!

فقد ابن حوزه السيطرة عليه راح الحصان يرمح برجليه عالياً ثم اتجه نحو الخندق وكانت ألسنة النار تندلع والدخان يتصاعد في الفضاء..

جن جنون الحصان وهو يدك الأرض وعندما وصل حافات الخندق انعطف بسرعة مذهلة وقذف بصاحبه في قلب النار!!!

وأمام هذا المشهد المذهل هوى الإمام إلى الثرى ساجداً يشكر الله على استجابة دعائه ثم نهض واتجه ببصره إلى السماء الزرقاء قائلاً:

اللهم إنا أهل بيت نبيك وذريته وقرابته فاقصم من ظلمنا وغصبنا حقنا انك سميع قريب!

وهنا وقع حادث مثير فقد اختفى وبشكل مفاجئ محمد بن الأشعث قائد الشرطة في الكوفة وأحد أركان النظام وهو الذي وعد مسلم بن عقيل بمنحه ضمانات لحياته إذا ما سلّم نفسه:

هذا الشخص نراه يستنكر تصريح الإمام الحسين وقوله: «اللهم إنا أهل بيت نبيك وذريته وقرابته» إذ قال: أي قرابة بينك وبين محمد؟

فقال الحسين وهو ينظر إلى السماء:

اللهم إن ابن الأشعث يقول ليس بيني وبين محمد قرابة! اللهم أرني فيه اليوم ذلاً عاجلاً!

أجل اختفت هذه الشخصية عن صفحات التاريخ.

تذكر المدوّنات التاريخية إن ابن الأشعث غادر باتجاه النهر لقضاء الحاجة وهناك تعرض إلى سعة لسعة عقرب تركته متلوثاً في ثيابه![1].

وهكذا ضاع ابن الأشعث في نفايات التاريخ حتى انه لم يكلف أي دارس للتاريخ نفسه عناء البحث في مصيره!!!

ويعترف أحد المقاتلين في سلاح الفرسان في جيش النظام أنه تراجع إلى الخطوط الخلفية ولم يعد متحمساً للحصول على رأس الحسين الذي يعني الحصول على موقع حكومي في أجهزة السلطة!

وتلا ذلك تقدّم زهير بن القين قائد الجناح الأيمن في جيش الحسين، تقدم

١. مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١: ٢٤٩ الفصل الحادي عشر الأمالي للشيخ الصدوق: ١٥٧ ١٥٨.

بكامل تجهيزاته الحربية ليقف في مكان يتيح له توجيه خطابه لجنود العدو.

وجه خطابه إلى أهل الكوفة يوضح لهم انهم ما يزالون أمة واحدة قبل وقوع الحرب فإذا وقعت الحرب أصبح كل فريق أمة.

ثم بين لهم أن أهل البيت امتحان الهي وأن الولاء لهم فوز ونجاح ودعاهم إلى التخلّي عن مسانده النظام الأموي الغاشم الذي يمارس إرهاباً وإبادة ممنهجة ضد النخبة في العراق وأشار إلى مصرع حجر بن عدي الصحابي الجليل وهانئ بن عروة.

وإذا به يسمع شتائم موجهه له وثناءً على ابن زياد ودعاءً له بالنصر!!!

وعبروا عن تمسكم بالولاء للنظام وانهم سوف يقتلونهم جميعاً أو يسوقونهم أسرى إلى الأمير!

وكرر زهير دعوته إلى عدم التورط بقتل الحسين وأهل بيته فان يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين وهنا يطلق الشمر سهماً وشتائم قائلاً:

اسكت! ابرمتنا بكثرة كلامك!

قال زهير!

يا ابن البوال على عقبيه ما إياك أخاطب إنّما أنت بهيمة! فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب قال الشمر:

سنقتلكم جميعاً بعد ساعة!

قال زهير:

أبالموت تخوفني؟!

والله إن الموت معه أحب إليّ من الخلود معكم.

وهنا يناديه أحد رفاقه:

إن أبا عبد الله يقول لك: اقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت، لو نفع النصح والإبلاغ.

وتلا ذلك تقدّم بريـر بن خضير معلم القرآن ليلقي كلمته بعد أن استأذن الإمام الحسين عليه السلام.

تقدم ذلك الشيخ الناسك وقد زادت لحيته البيضاء في بهاء وجهه.

وقف قريباً من جيش العدو الذي سدّ الأفق بغابة من الرماح نادى بصوت جهوري:

يا معشر الناس!

إن الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيرا وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه وقد حيل بينه وبين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله! أفجزاء محمد هذا؟!

طرح برير مسألة الماء وهي مسألة غاية في الإنسانية لا علاقة لها بالصراعات السياسية والقبلية.

هنـاك نسـاء وأطفال يئنون مـن وطأة الظمأ بينما نهر الفـرات تتدفق أمواجه باتجاه الخليج تنثال مياهه العذبة على الشطان، وها هو جيش النظام الأموي اللاإنساني يحول بين آل النبي الذي بدينون بشريعته وبين النهر!

وجاء الجواب مترعاً بالخسة والنذالة:

لقد أكثرت الكلام يا برير!

لسوف يعطش الحسين كما عطش من كان قبله!

قال برير:

يا قوم!

هـؤلاء ذريـة محمد وبناته وحرمه قـد حلّوا في هذا المـكان فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون منهم؟!

وجاء الجواب:

نريد أن نسلّمهم إلى الأمير عبيد الله بن زياد يفعل بهم ما يشاء؟!

صاح برير:

دعوهم يعودوا إلى المكان الذي جاءوا منه!

وذكّرهـم برير برسـائلهم ووعودهـم والمواثيق التي أعطوها لمسـلم بن عقيل مبعوث الإمام الحسين وسفيره!

صاح أحدهم:

يا هذا لا ندري ما تقول؟!

هنالك أدرك بريـر إن هؤلاء قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم! انهم لا يعون حجم الجريمة التي سوف يرتكبونها!! مرّة أخرى يسمع الجواب:

يا هذا! ما ندري ما تقول!!!

هنالك أدرك بريـر إن هؤلاء قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم! انهم لا يعون حجم الجريمة التي تعرف يرتكبونها مرّة أخرى يسمع الجواب:

يا هذا! ما ندري ما تقول!!!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

قال بريـر وهو ينظر إلى السماء وقد امتلأت بنور الشمس:

اللهم! إني ابرأ إليك من فعال هؤلاء القوم!

اللهم الق بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليهم غضبان!

غير مخصص للبيع او الطباعة

وجاءته رشقة من السهام فتراجع إلى الوراء.

امتطى الإمام الحسـين جواده وفتح المصحف الشريف ووضعه فوق رأسـه وتقدم إلى تلك الحشود ونادى:

يا قوم!

إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله!

وأشـار إلى انه يرتدي زي النبي الذي كان يرتديه في الحرب ويحمل سـيفه وحتى العمامة التي يرتديها إنّما هي للنبي صلى الله عليه وآله..

والعجيب أنهم أيدوا ذلك!

فسألهم عن مبررات قتله! قالوا:

طاعة للأمير عبيد الله بن زياد..

هنالك قال الحسين كلمته الخالدة:

تباً لكم أيتها الجماعة وترحا؛ أحين استرخصتمونا والهين فصارخناكم مرجفين!

سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم؛ وحشتم علينا ناراً اقترحناها على عدونا وعدوكم؟ فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم؛ بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم!

فهلاّ لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم؛ والجأش طامن والرأي لمّا ولكن يستحصف!

ولكن أسرعتهم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها فسحقاً لكم، يا عبيد الأُمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم وعصبة الإثم ونفثة الشيطان ومطفئي السنن!

ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟

أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجىً للناظر وأكلة للغاصب! ألا وأن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة!

وهيهات منا الذلّة!

يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون؛ وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام!

ألا وإني زاحف بهذه الأسرةعلى قلة العدد وخذلان الناصر!

فإن نهزم فهزّامون قدماًوإن نُهزم فغير مهزمينا

وما أن طبنا جبن ولكنمنايانا ودولة آخرينا

إذا ما الموت يرفع عن أناسكلا كله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقواسيلقى الشامتون كما لقينا

ثم قال وكأنه ينظر إلى المستقبل القريب والأيام القادمة:

أما والله لا تلبثون بعدها الآكريثما يركب الفرس[1] حتى تدور بكم دور الرحى؛ وتقلق بكم قلق المحور!

عهد عهده إلي أبي عن جدي رسول الله!

﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[2] ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ

---

١. لا يركب الفرس إلّا بعد ثلاث سنين من ولادته وقد تحققت نبوءة السبط الشهيد فما إن هلك الطاغية بعد ثلاث سنوات حتى عصفت الحوادث وماجت الكوفة بأهلها وفجّر المختار الثقفي ثورته الكبرى.

٢. يونس: ٧١.

رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ورفع يديه نحو السماء يستمطر الغضب الإلهي:

اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسنّي يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف، يسقيهم كأساً مصبّرة، فانهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربّنا عليك توكلنا واليك المصير!

والتفت الإمام إلى أنصاره يتحدث عن الرجل الثقفي قائلاً:

والله لا يدع أحداً منهم إلّا انتقم لي منهم قتلة بقتلة وضربة بضربه ولسوف ينتصر لي ولشيعتي.

وطلب الإمام الحديث مع عمر بن سعد القائد العام لجيش النظام!

وتقدم عمر بن سعد نحو الحسين؛ ترى ما الذي يريده الحسين منه في هذه اللحظات الحساسة والمصيرية؟!

قال الحسين عليه السلام:

يا عمر!

أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعي بلاد الري وجرجان؟! والله لا تتهنأ بذلك! عهد معهود فاصنع ما أنت صانع! فانك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة!

وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة ويتخذونه غرضاً بينهم!

---

١. هود: ٥٦.

أجل سوف تتحقق النبوءة إنها كلمات من وراء الغيب تلقاها محمد الذي «ما هو على الغيب بضنين».

استشـاط ابن سـعد غيظاً وحقداً ولوى عنان فرسه وعاد إلى صفوف جيشه الجرّار!

الحر يختار الخلود

هنـا يتقـدم ضابـط كبير في الجيـش الحكومي هـو الحرّ بن يزيـد الرياحي الـذي كان يقـود بالأمس ألف فارس هي القوّة العسـكرية التـي قطعت الطريق على قافلة الحسـين ومنعته من دخول الكوفة، كما منعته في نفس الوقت من العودة إلى المدينة المنورة وحتى إلى مكة أيضاً!

كان الحـرّ يراقـب باهتمام بالغ تطورات الموقف لحظة بلحظة وكان يتصور أن عمر بن سـعد سـيتوصل في النهاية إلى اتفاق ما مع الحسـين ويحول دون وقـوع الكارثـة! لكنـه الآن يشـهد قـرب وقـوع الحرب وقـد لاحت فـي الأفق نذر معركة وشيكة!

قال الحرّ لعمر بن سعد:

هل ستقاتل هذا الرجل؟

قال ابن سعد وهو يعض على نواجذه بغيظ:

نعم! قتالاً أيسره أن تبتر في الأيدي وتقطع الأرجل.

قال الحرّ مستغرباً هذا الإصرار على الجريمة:

لكنه عرض عليكم العودة من حيث أتى؟!

لو كان الأمر بيدي لقبلت، ولكن الأمير ابن زياد يرفض ذلك.

غادر الحرّ وعاد إلى مكانه في صفوف الجيش، فقال لأحد الفرسان كان واقفاً إلى جانبه:

هل سقيت فرسك؟

قال الفارس:

لا..

قال الحر يبرر مغادرته وابتعاده:

ألا تريد أن تسقيه؟!

سأل ذلك دون اهتمام بالإجابة وراح يقترب من الخطوط الأمامية، ولاح له معسكر الإمام الحسين عليه السلام والمخيم وقد انطلقت أعمدة من الدخان إلى الفضاء الأزرق تقدم الحرّ خطوات باتجاه المخيم!

تساءل أحد الفرسان قائلاً!

أتنوي الهجوم؟!

لاذ الحرّ بالصمت وسرت في جسمه قشعريرة وأخذته الرجفة ما أثار دهشة الفارس الذي قال له:

لو سألني أحد عن أشجع رجل في الكوفة؟ ما ذكرت سواك! فما هذا الذي

أرى؟!

قال الحرّ يخبره عما يجري في أعماقه من صراع مرير:

إنّي أخيّر نفسي بين الجنة والنار!

ويبدو أنه حسم أمره فاختار الخلود:

والله لن اختار إلّا الجنة ولو أحرقت!

وهمز بجواده نحو جبهة الحسين، وقد نكس رمحه وقلب ترسه، ونظر إلى السماء قائلاً:

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

اللهم إليك أنيب فاغفر لي وتب عليّ!

لقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك؟

ونادى:

غير مخصص للبيع أو الطباعة

يا أبا عبد الله! إني تائب!

فهل لي من توبة؟!

أجاب الحسين:

نعم يتوب الله عليك!

وهنا ادرك سرّ الهتاف الذي سمعه عندما غادر الكوفة يقود ألف فارس لقطع الطريق على قافلة الحسين واعتقاله! قال الحرّ:

عندما خرجت من الكوفة سمعت نداءً: ابشر يا حرّ بالجنة؟! قلت في نفسي: ويل للحر! يبشر بالجنة وهو يسير لحرب الحسين ابن بنت رسول الله؟!

واستأذن الحر الحسين في توجيه كلمة إلى الحشود التي بدت تحت أشعة الشمس غابة كثيفة من الفولاذ. تقدم نحو الحشود وعندما صار قريباً منها ألقى كلمته وكانت انتقاداً شديد اللهجة لموقف أهل الكوفة اللاإنساني!

وإذا برشقة من السهام تنهال كالمطر فتراجع الحرّ إلى الوراء ليأخذ موقعة في الجناح الأيمن. تقدم عمر بن سعد خطوات وأطلق سهماً باتجاه جبهة الحسين قائلاً بصوت جهير:

اشهدوا لي عند الأمير إني أول من رمى!

وكان هذا السهم إيذاناً ببدء الحرب إذ انطلقت آلاف السهام باتجاه جبهة الحسين وراحت تنهال كوابل من المطر الغزير.

خاطب الإمام الحسين جنوده يدعوهم لمواجهة الموت الأحمر..

قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه!

إن هذه السهام رسل القوم إليكم.

وكان المشهد أخاذاً مثيراً محيّراً عندما شن أنصار الحسين على ضآلة عددهم هجوماً عاماً على جيش النظام وكانت معركة غير متكافئة أسفرت عن سقوط عدد من الشهداء وخمسين جريحاً في صفوف قوّات الحسين.

وبعد فك الاشـتباك وتراجع قوات الجانبين إلى خطوطهما خرج يسار وكان غلاماً لزياد بن أبيه ومعه سالم مولى عبيد الله بن زياد وطلبا من أنصار الحسين المبارزة.

تقدم حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير للمواجهة فلم يسمح لهما الحسين وهنـا تقـدم عبـد الله بن عميـر الكلبي وكان يتمتـع بعضلات مفتولـة وقدرات بدنية وقتالية كبيرة قال الإمام الحسين وهو يأذن له:

أحسبه للأقران قتالاً..

صاح يسار:

من أنت؟

فقال:

أبو وهب أنا!

قال سالم:

لا نعرفك! ليخرج إلينا زهير أو حبيب أو برير!

قال أبو وهب ليسار وقد تفجر بركان غضب في أعماقه:

يا بن الزانية!

وبك رغبة عن مبارزتي؟! لا يخرج إليك أحد إلّا وهو خير منك ثم هاجمه، وهنا يحاول سالم انتهاز الفرصة! فناداه أنصار الحسين يحذرون رفيقهم لكنه

كلمات للطباعة والنشر لنشر آثار كمال السيد غير مخصص للبيع أو الطباعة

لـم يعبـأ لذلـك العبد فضربه سـالم ضربة تلقاهـا البطل بيده اليسـرى فطارت الأنامـل فوجـه إليـه ضربـة قاضيـة كانـت نهايتـه فيهـا، وأسـفرت المعركـة عن انتصار باهر لأبي وهب الذي عاد إلى جبهته مطلقاً أشعاراً حماسية.

وكانـت زوجته تراقب مشـهد الصـراع الدامي فأخذت عمـوداً واتجهت إلى ميدان القتال تخاطب زوجها قائلة:

فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين؛ ذرية محمد صلى الله عليه وآله.

حاول أبو وهب إعادتها لكنها كانت ترفض قائلة:

لن ادعك حتى أموت معك!

وجاء نداء الحسين:

جزيتم عن أهل بيت نبيكم خيراً!

ارجعي إلى الخيمة، فانه ليس على النساء قتال![1].

ويبـدو إن جيش الحسـين احدث تغييـراً جوهرياً في إدارة المعركة بسـبب ضآلـة عديد أفراده؛ إذ عمد الأنصار إلى أسـلوب آخر للقتال فقد خرج سـيف بـن الحـارث بـن سريع الجابـري ومعه أخـوه لأمه وابـن عمه مالك بـن عبد بن سريع تقدما إلى الإمام الحسين لطلب الإذن بالهجوم!

كانا يذرفان الدموع فقال الامام عليه السلام:

١. الطبري ح ٦: ٢٤٥.

ما يبكيكما؟ أني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريري العين!

قالا:

جعلنا الله فداك؛ ما على أنفسنا نبكي!

ولكن نبكي عليك! نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن ننفعك!

جزاكما الله خيراً وحدثت معركة قصيرة سرعان ما انتهت بسقوطهما شهيدين.

وتلا ذلك خروج عبد الله بن عروة الغفاري ومعه شقيقه عبد الرحمن فاستأذنا الإمام للقتال وسرعان ما استشهدا.

وهنا يتقدّم أربعة رجال من الأنصار هم كل من عمرو بن خالد الصيداوي وسعد مولاه وجابر بن الحارث السلماني ومجمع بن عبد الله العائذي، وشنوا هجوماً قوياً حتى انهم تمكنوا من اختراق الخط الأمامي، ولكن قوات العدو قامت بعملية التفاف سريعة وتمت محاصرتهم وهنا طلب الإمام من أخيه العباس كسر طوق الحصار، فشن أبو الفضل هجوماً صاعقاً تمكن من كسر الحصار و إنقاذهم وكانوا قد أصيبوا بجراح بليغة، وفي طريق العودة تعرضوا لهجوم من جيش العدو، فانكفأوا لمواجهة الهجوم بالرغم من الجراح وقاتلوا حتى سقطوا على الأرض جميعاً.

وهنا وضع الإمام يده على لحيته وقال:

اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً! واشتد غضبه على النصارى

إذ جعلوه ثالث ثلاثة!

واشتدّ غضبه على المجوس، إذ عبدوا الشمس والقمر دونه!

واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم!

واقسم الإمام أنه لن يستسلم أبداً حتى يلقى الله وهو مخضب بدمائه!

ثم وجه نداءه للتاريخ والأجيال:

أما من مغيث يغيثنا؟!

أما من ذابّ يذّب عن حرم رسول الله؟!

فانطلقت أصداء البكاء من خيام الأطفال والنساء!

وعندما وصل نداء الاستغاثة إلى جنود في جيش العدو استجاب كل من سعد بن الحارث الأنصاري وشقيقه أبو الحتوف، فصاحا:

لبيك يا حسين!

لبيك يا حسين!

وشهرا سيفيهما على جنود العدو وجرت معركة سقطا أثرها على الأرض شهيدين..

في هذا اليوم الطويل يوم عاشوراء أطول يوم في التاريخ استحال الحسين إلى قضية ومبدأ، وعقيدة ولهذا أنعتق يوم عاشوراء من أسر التاريخ أصبح فوق الجغرافيا والتاريخ ودمّر كل الاعتبارات القومية والقبلية والفئوية الزائفة

ليتألق فقط الاعتبار الإنساني والأخلاقي.

من أجل ذلك استبسل أنصار الحسين في القتال وسطروا ملحمة بطولية خالدة أثارت دهشة العدو، هذا عمرو بن الحجاج الزبيدي: قائد الجناح الأيمن يخاطب جنوده قائلاً: أتدرون من تقاتلون؟!

تقاتلون فرسان العراق، وأهل البصائر! وقوماً مستميتين لا يبرز إليهم أحد منكم إلّا قتلوه على قلّتهم.

ثم اقترح استخدام سلاح الحجارة وقذفهم من بعيد وتجنب القتال الفردي!

أيّد عمر بن سعد رأيه وحظر على جميع ضباطه وجنوده الخروج للمبارزة والقتال الفردي.

وهنا يقوم سلاح الفرسان في الجناح الأيمن بقيادة عمرو بن الحجاج بشن هجوم على الجناح الأيسر في جيش الحسين، الذي تصدّى للهجوم ببسالة، فقد جثا أنصار الإمام على الركب وشرعوا الرماح، فلم تقدم الخيل، وانكفأت راجعه، وهنا وجه الرماة في جيش الإمام رشقة من السهام وسقط اثرها عدد من فرسان العدو وأصيب آخرون بجراح.

وكان قائد الجناح الأيمن في جيش العدو يصرخ بصوت غليظ:

قاتلوا من مرق عن الدين!

فناداه الحسين:

يا عمرو! أعليّ تحرض الناس؟!

أنحن مرقنا من الدين وأنت تقيم عليه؟!

ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من هو أولى بصلّي النار!

ونادى أحد الضباط في جيش النظام ويدعى «يزيد بن معقل».

يا برير بن خضير!

كيف ترى مصيرك اليوم؟!

أجاب برير:

إنها أعظم نهاية يمكن أن يتمناها الإنسان!

انه لمصير مجيد!

كذبت، ولم تكن تكذب من قبل!

هل تذكر يوم كنا نتمشى في حيّ «بني لوذان» وأنت تقول: كان عثمان مسرفاً وان معاوية بن أبي سفيان ضالّ مضل! وان إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟!

اشهد أن هذا رأيي وموقفي!

وإني اشهد أنك من الضالين!

اذن هلّم إلى المباهلة والمبارزة وندعو الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل!

وراح الرجلان يدعوان الله أن يقتل المحق المبطل.

وبدأت المبارزة، وبالرغم من شيخوخة برير إلّا أنه سدّد ضربة هائلة قدّت خوذة خصمه! وسرعان ما هوى على الأرض كتله من الحديد!

وعندما حاول برير انتزاع سيفه هاجمه شخص يدعى رضي بن منقذ العبدي واشتبك الرجلان وتمكن برير من إسقاط خصمه أرضاً وهنا تعرض لهجوم ضابط آخر يدى كعب الجابري الذي سدد له من الوراء طعنة بالرمح وتدفقت الدماء فوارة قانية.

ومرّة أخرى شن سلاح المشاة في الجناح الأيمن هجوماً على جيش الحسين، ودارت معركة ضارية استمرت ساعة من الزمن كان الوقت ضحى وعندما فك الاشتباك كان مسلم بن عوسجة صريعاً ينزف دماً قانياً وقد تلاحقت أنفاسه الأخيرة قال الحسين: رحمك الله يا مسلم منهم من قضى نحبه ومنهم ينتظر وما بدلوا تبديلا!

وانحنى حبيب بن مظاهر ليبشره بمستقبل مشرق: عزّ عليّ مصرعك يا مسلم ابشر بالجنة!

فقال مسلم بصوت واهن:

بشرك الله بخير يا أخي يا حبيب!

قال حبيب:

أنا قادم في أثرك!

ولو لا ذلك لأحبت أن توصي اليّ بكل ما يهمك! قال مسلم بصوت خفيض

ويشير إلى الحسين:

أوصيك بهذا أن تموت دونه!

فقال حبيب بحماس الإنسان المؤمن الذي استهان بالحياة:

أفعل ورب الكعبة!

وانطلقت صيحات جنود العدو!

قتلنا مسلماً!

قتلنا مسلماً..

وارتفعت في الفضاء أصداء فتاة تنتحب وتنادي:

وا مسلماه! وا مسلماه!

انتقد قائد سلاح المشاة في جيش العدو شبث بن ربعي المستبشرين بمصرع مسلم قائلاً:

ثكلتكم أمهاتكم!

أيقتل مثل مسلم وتفرحون؟!

وذكر له موقفاً بطولياً في معارك الفتح الإسلامي في الجبهات الشرقية في إقليم أذربيجان عندما تمكن من القضاء على ستة فرسان في الجيش الساساني[1].

١. تاريخ الطبري ح ٦: ٢٤٩.

لقد كان مسلم بن عوسجة من أركان التنظيم الذي قاده مسلم بن عقيل في الكوفة وفي طليعة قادته وهنا يقوم الشمر بن ذي الجوشن بقيادة كتيبة من فرسانه والهجوم على الجناح الأيسر في جيش الحسين عليه السلام، الذي صمد بوجه الهجوم ودارت معركة حامية قاتل فيها عبد الله بن عمير الكلبي وتمكّن من القضاء على تسعة عشر من فرسان العدو واثني عشر من المشاة، في أثناء القتال بترت يده اليمنى وقطعت ساقه ووقع في الأسر وسرعان ما قام الشمر بتنفيذ حكم الإعدام ركضت زوجته إليه وجلست عنده تمسح الدماء عن وجه الشهيد قالت وهي واثقة بأن زوجها ما يزال حيّاً لأن الشهداء لا يموتون: هنيئاً لك الجنة!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

اسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك.

أجل إن هذه المرأة التي قدّمت زوجها من أجل الحسين تريد اللحاق بزوجها فاستجابت السماء.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

كان الشمر يراقبها بعينين تقدحان بالشرر أمر غلامه «رستم»: اضرب رأسها بالعمود!

وأهوى الوغد على رأس المرأة بالعمود، فانطلقت الروح، إلى الحبيب ورفيق الدرب.

كانت الأم تنظر من بعيد، أخذت عمود خيمة وولّت وجها إلى ساحة الحرب فناداها الحسين:

ارجعي رحمك الله! فقد وضع عنك الجهاد..

فعادت الأم وهي تقول:

اللهم لا تقطع رجائي.

فأمّن الحسين على دعائها قائلاً:

لا يقطع الله رجاك!

قاد الشمر هجوماً باتجاه المخيم وطعن فسطاط الحسين بالرمح وصاح بجنوده..

عليّ بالنار لأحرقه على أهله..

خرجت النسوة يتصايحن، فناداه الحسين:

يا ابن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي؟!

أحرقك الله بالنار!

انتقد شبث بن ربعي قائد سلاح المشاة موقف الشمر قائلاً:

أمرعباً للنساء صرت؟!

ما رأيت موقفاً أقبح من موقفك!

قاد زهير بن القين عشرة من مقاتليه وهاجم قوات الشمر وكشفوهم عن المخيم.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع او الطباعة

وهنا يشن الفرسان في جيش الحسين هجوماً على العدو والحقوا هزائم بسلاح الفرسان الذي يقود عزرة بن قيس الذي طلب من القائد العام إسناده بالمشاة!!

انه لأمر محيّر كيف كان يقاتل أنصار الحسين بحيث يطلب قائد سلاح الفرسان مساندة من سلاح المشاة؟!

طلب عمر بن سعد من شبث بن ربعي أن يقود خمسمائة من المشاة لمساندة سلاح الفرسان في الهجوم.

رفض شبث أن يقوم بنفسه بقيادة قوات الإسناد فأوعز ابن سعد إلى الحصين بن نمير بتنفيذ هذه المهمة.

قال شبث وهو يراقب باستياء ما يجري من مآسي:

قاتلنا مع علي بن أبي ومع ابنه (الحسن) من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ثم ها نحن نقاتل ابنه (الحسين) وهو خير أهل الأرض!! نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية!!

ضلال يا لك من ضلال؟!

والله لن ترى الكوفة خيراً أبداً..

تمكن أنصار الحسين من عقر عشرات الخيول، واشتد القتال فكر عمر بن سعد أن يفتح على قوات الحسين جبهة أخرى فأمر بتقويض الخيام، والقيام بعملية التفاف لمحاصرة جيش الحسين.

فاندفعت مجموعات قتالية لتنفذ داخل المخيم من اليمين واليسار غير أنّ بعض الأنصار يتصدّون لها ويرشقون قوات العدو بالسهام!

وهنا أمر ابن سعد بإضرام النار في أطراف المخيم! فانطلقت عشرات السهام التي تحمل مشاعل النار!

حاول بعض الأنصار التصدّي للمهاجمين غيّر إن الإمام قال:

دعوهم يحرقونها فاتهم إذا فعلوا ذلك لم يجوزوا إليكم وتحققت فكرة الإمام فقد استحالت النار المضطرمة إلى خط دفاعي رادع فاضطر العدو لوقف الهجوم بعد فشل خطته في القيام بعملية التفاف على قوّات الحسين.

واستمرت الاشتباكات إلى أن انتصف النهار، وفي تلك اللحظات عثر جواد الحرّ الرياحي وكبا فقفز الفارس البطل وما يزال السيف في قبضته.

وكان أبو الشعثاء الكندي من أمهر الرماة فجثا على ركبتيه وأطلق مئة سهم، وكان الإمام يقول عند انطلاق كل سهم: اللهم سدّد رميته واجعل ثوابه الجنة!

وعندما نفدت السهام تقدم نحو العدو وراح يقاتل ببسالة إلى أن سقط فوق الثرى مضرجاً بدمائه.

وكان أبو ثمامة أحد القياديين في التنظيم الذي قاده مسلم بن عقيل في الكوفة، ولا أحد يعرف كيف أفلت من الطوق المضروب على الكوفة ليلتحق بالإمام الحسين.

نظر أبو ثمامة إلى الشمس فرآها قد زالت وقد دخل وقت صلاة الظهر التفت إلى الإمام وقال بأدب جم:

نفسي لك الفداء، أرى العدو قد اقترب:

لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك؛ وأحب أن ألقى الله وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها!

نظر الحسين إلى السماء الزرقاء وقد شاب زرقتها غبار وقال:

ذكرت الصلاة! جعلك الله من المصلّين الذاكرين!

نعم هذا أول وقتها.

طلب الإمام الحسين وقف القتال لأداء الصلاة صاح ابن نمير بصوت يشبه النهيق: إنها لا تقبل!

فردّ عليه حبيب بن مظاهر قائلاً:

زعمت أنها لا تقبل من آل الرسول وتقبل منك يا حمار؟!

وهنا يهاجم ابن نمير حبيب فيسدد حبيب ضربة إلى فرسه فشبت الفرس وسقط ابن نمير أرضاً ولكن بعض رفاقه يهبّون لنجدته وإنقاذه من سيف شيخ بني أسد! الذي راح يقاتل كالأسد وتمكن من القضاء على العشرات بالرغم من شيخوخته!

إلى أن هوى على الثرى شهيداً مضمخاً بدماء الكرامة.

وتأثر الإمام لمصرع حبيب وراح يردد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون عند الله احتسب نفسي وحماة أصحابي!

وهنا تقدّم الحرّ للقتال وحيداً وزهير بن القين يحمي ظهره، وعندما يغوص الحرّ في صفوف العدو ويلتف عليه الأعداء يشن زهير هجوماً فيكسر الطوق وهكذا يفعل الحرّ عندما يشن زهير الهجوم. وفي الهجوم الأخير للحرّ كان فرسه قد تعرض للإصابة بالسهام فكبا وراح الحرّ يواصل القتال على قدميه، فأحاط الجنود المشاة به ووقع صريعاً وهنا يشن زهير هجوماً يسانده بعض أنصار الحسين وتمكنوا من أخلائه ليوضع أمام خيمة.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

كان الحرّ يتنفس بصعوبة.

راح الإمام يمسح الدماء القانية عن وجهه قائلاً:

أنت الحرّ كما سمتك أمك وأنت الحرّ في الدنيا والآخرة.

غير مخصص للبيع او الطباعة

ثمّ ابّنه ببيتين من الشعر:

لَنِعْمَ الْحُرُّ حُرُّ بَنِي رِياحٍ ... صَبُورٌ عِنْدَ مُشْتَبَكِ الرِّماحِ
وَنِعْمَ الْحُرُّ إِذْ وَاسَى حُسَيْناً ... وَجَادَ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الصَّبَاحِ

ونهض الإمام لأداء الصلاة، فوقف سعيد بن عبد الله الحنفي أمامه يتلقى السهام التي كانت تتجه إليه من جهة اليمين واليسار وأصيب خلال الصلاة بثلاثة عشر سهماً وكان قد تعرض إلى ضربات السيوف وطعنات الرماح وأثخن بالجراح فهوى فوق الأرض ينظر إلى السماء قائلاً:

اللهم العنهم لعن عاد وثمود!

وابلغ نبيك مني السلام!

وابلغه ما لقيت من ألم الجراح!

ما أردت إلّا ثوابك في الدفاع عن ذرية نبيك!

والتفت إلى الإمام وقال:

أوفيت يا بن رسول الله؟!

قال الحسين عليه السلام:

نعم! أنت أمامي في الجنة!

ونظر الحسين إلى السماء وقال لأنصاره.

يا كرام! هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها! وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم! فحاموا عن دين الله ودين نبيه وذبوا عن حرم الرسول فأجاب الأنصار بحماس:

نفوسنا لنفسك الفداء!

ودماؤنا لدمك الوقاء..

واقسموا على القتال حتى النفس الأخير!

ودفع عمر بن سعد بكتائب من الرماة لشلّ فرسان الحسين، فتم عقرها جميعاً باستثناء عدد ضئيل. وقام أحد الأنصار ويدعى الضحاك بن عبد الله

المشرقي بإدخال فرسه في خيمة صغيرة، وكان المشرقي قد اتفق مع الإمام انه سيبقى إلى جانب الحسين ما بقي مقاتل، فإذا استشهد الجميع فهو في حلّ[1] ويمكنه أن يغادر ساحة القتال.

وتضاءل عدد الأنصار جداً وبقي منهم أقل من أصابع الكفين مقاتلاً وهنا يتقدم أبو ثمامة الصائدي وكان أحد أركان التنظيم الذي قاده مسلم بن عقيل في الكوفة ومن المؤكل أنه اختفى عن مسرح الأحداث في الكوفة ليلتحق بالإمام الحسين وانه ما حصل كان بتوجيهات من قاده التنظيم لأنه من غير المعقول أن يتخاذل عن مساندة مسلم ويظهر باسلاً في يوم عاشوراء يؤيد ذلك أيضاً! حنفاء كل من مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر وآخرون ثم ظهورهم في يوم عاشوراء ونمة قرائن تعزز فكرة تفير خطط التنظيم الذي قاده مسلم لتمهيد مشروع التغيير بقيادة الإمام الحسين في نهضته الخالدة.

تقدم أبو ثمامة الصائدي صوب العدو فقاتل إلى أن اثخن بالجراح ثم قُتل على يد ابن عمه الذي كان يضمر له الحقد والكراهية.

وخرج سلمان بن مضارب البجلي فقاتل إلى أن استشهد ليتقدّم على

---

١. استأذن الامام عليه السلام بعد استشهاد جميع الأنصار في مغادرة ساحة المعركة، فأخرج فرسه: «ثمّ استويت على متنها ثم ضربتها حتى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم فأفرجوا لي»، وراح الضحاك ينهب الأرض فطارده خمسة عشر من فرسان العدو حتى إذا وصل إلى قرية «شفية» على نهر الفرات استدار لمواجهتهم، فعرفه أحدهم وهتف: هذا الضحاك بن عبد الله المشرقي هذا ابن عمّنا!
وطلب من رفاقه الكف عن مطاردته، فاستجابوا، فاختفى وعاش بقية عمره متوارياً عن أنظار النظام واختفى عن صفحات التاريخ لكنه سجل اسمه في يوم الملحمة ونقل بعض تفاصيلها للأجيال.

أثره زهير بن القين فيضع كفه فوق منكب الحسين ويقول بحماس الإنسان المؤمن الذي يرى طريقه بوضوح:

أقدم هديت هادياً مهدياً فاليوم الف جدك النبيا وحسناً والمرتضى عليا وأسد الله الشهيد الحيا وذا الجناحين الفتى الكميا..

فقال الإمام:

وأنا ألقاهما على أثرك..

شن زهير هجومه الأخير وهو ينادي:

أنا زهير وأنا ابن القين أذودكم بالسيف عن حسين.

وعندما هوى فوق الأرض شهيداً قال الإمام:

لا يبعدنك الله يا زهير ولعن قاتليك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير[1].

وتقدم شاب تركي يدعى واضح كان يتقن العربية وكان قارئاً للقرآن الكريم وعندما هوى صريعاً استنجد بالحسين فهب إليه الإمام وبدد من حوله قطعان الذئاب التي تكالبت عليه تتخطف جسده.

عانقه الإمام ووضع خدّه على خد الشاب الذي كان يستنشق بصعوبة أنفاسه الأخيرة، وعندما شعر بخد الحسين واستنشق عبير الرسالات الإلهية أشرقت في وجهه ابتسامة؛ لقد شعر أنه في ذروة المجد.

١. تاريخ الطبري ج ٦: ٢٥٣. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٢٠.

وخرج حنظله الشبامي الذي وجه نداءً إلى تلك الحشود البربرية فيها أصداء من مواعظ الأنبياء:

يا قوم!

إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب! مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد!

يا قوم!

إني أخاف عليكم يوم التناد! يوم تولون مدبرين، ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد!

يا قوم!

لا تقتلوا حسيناً فيسحقكم الله بعذاب، وقد خاب من أفترى.

فناداه الحسين قائلاً:

رحمك الله انهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك يستبيحونك، وأصحابك! فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين؟!

قال حنظلة:

صدقت يا بن رسول الله!

أفلا نروح إلى الآخرة؟!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

ثـم ودع الحسـين وتقدم باتجاه العـدو وراح يقاتل ببسـالة إلى أن هوى فوق الأرض شهيداً وهنا يخاطب عابس بن شبيب الشاكري رفيق الدرب قائلاً:

يا شوذب! ما في نفسك أن تفعل؟

قال شوذب:

أقاتل حتى أُقتل!

قال عابس:

تقدم واستأذن أبا عبد الله!

ودّع شـوذب الحسـين وتقدم نحو العدو غير مكترث بالحشـود التي كانت تموج كالسيل وراح يقاتل إلى أن غاب عن الأنظار والتحق بقافلة الشهداء.

كان شـوذب مـن الرجال المخلصين وكانت داره ملتـقى لأتباع أهل البيت في زمن المحنة.

وهنا تقدم عابس ليقف أمام القائد العظيم قائلاً:

مـا أمـسى عـلى ظهـر الأرض قريـب ولا يعيـد اعزّ علـيّ منك ولو قـدرت أن ادفـع الضيـم عنك بشـيء أعزّ علي من نفسـي لفعلت! السلام عليك! اشـهد إني على هداك وهدى أبيك!

وعابـس هو الذي حمل رسـالة المؤتمر الذي عقـد في دار المختار الثقفي، حيث حمل رسـالة المؤتمرين بزعامة سـفير الإمام الحسـين مسـلم بن عقيل،

وسلّمه الرسالة في مكة المكرمة وجاء بصحبة الإمام في القافلة التي ساقها القدر إلى أرض كربلاء.

يقول التاريخ انه تقدم نحو الحشود الكبيرة مصلتاً سيفه وبه ضربة على جبينه فنادى:

ألا رجل؟!

فلم يخرج إليه أحد! لقد كانوا جميعاً أشباه رجال وقد «عرفوه أشجع الناس» هكذا قال التاريخ، صاح عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة!

هنالك ألقى درعه وخوذته وشن هجومه الأخير فكان يطارد أكثر من مئتين يفرّون أمامه ولم يثبت له أحد، حتى غاص داخل غابة من الرماح، فالتفوا حوله وراحت السيوف والرماح تتخطف جسمه الحاسر وهوى فوق الثرى!

وظهر رجل قادم من أفريقيا يدعى جون تقدم إلى الإمام يستأذنه في الرحيل إلى الأبدية قال الإمام عليه السلام:

يا جون إنّما تبعتنا طلباً للعافية فأنت في أذن مني!

اقتراح لأن يغادر الساحة المضخمة بالدماء إلى حيث الحياة! بعيداً عن الموت الأحمر!

ولكن جون كان يتطلع إلى ما وراء هذا العالم السفلي إلى عالم اخضر مفعم بالصفاء!

انحنى بإجلال للإمام وقال:

أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدّة أخذلكم؟!

لا والله لا أفارقكم حتى تمتزج دمائي بدمائكم!

قال الإمام وهو يضع يد كفه فوق كتف جون وينظر إلى الأفق البعيد:

اللهم احشره مع محمد وعرّف بينه وبين آل محمد!

وتقدم جون إلى ساحة الشرف والكرامة والمجد ليعبر إلى العالم الآخر.

وتقدم شيخ طاعن في السن هو الصحابي أنس الكاهلي الذي عاصر النبي وسمع كلماته وشارك في معارك بدر وأحد وحنين.

شدّ الشيخ ظهره بعمامته ورفع حاجبيه بالعصابة!

استأذن ابن النبي للقتال! راح الإمام ينظر إليه بعينين نديتين بالدموع وقال: شكر الله لك يا شيخ!

تقدم الشيخ الذي أحنت ظهره السنون والحوادث إلى ساحة القتال وربما عادت به الذاكرة إلى ما قبل ستين سنة إلى آبار بدر عندما اندلعت أول حرب حاسمة في تاريخ الإسلام ضد الوثنيين وها هو الآن يقاتل أبناءهم من المنافقين!

وراح الشيخ يقاتل ببسالة إلى أن هوى فوق الأرض شهيداً مضمخاً بالدماء!

وهنا يتقدم فتى يافع يدعى عمرو بن جنادة الأنصاري يطلب الإذن بالقتال!

قال الإمام:

هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى ولعل أمه تكره ذلك.

قال الفتى:

إنّ أمي هي التي أمرتني. قبل الحسين جبهة الفتى الذي تقدم نحو جبهة الحرب والقتال ليهزم الموت؛ فالشهداء أحياء إلّا إننا لا نشعر بذلك. وأخذت أمه عمود خيمة وخرجت للقتال غير أن الإمام طلب منها العودة إلى المخيم فعادت بعد أن «أصابت بالعمود رجلين»[1].

وخرج الحجاج بن مسروق الجعفي فقاتل إلى أن خضبته الدماء النازفة من جراحه فعاد ليقف أمام الحسين يشدو بحماس:

اليوم ألقى جدك النبيا

ثم أباك ذا الندى عليا

ذاك الذي نعرفه الوصيا

فقال الحسين مودّعاً إياه:

وأنا ألقاهما على أثرك!

وسرعان ما غاص في عمق غابة مكتظة بالسيوف والرماح.

وخرج للمواجهة سوار بن أبي حمير الهمداني واستبسل في القتال وتخطفته الرماح والسيوف والسهام وأعياه نزف الجراح فوقع في بين أنياب

١. مقتل الخوارزمي ٣ / ٢٢.

الذئاب واقتيد أسيراً.

وعندما اصدر عمر بن سعد أمراً بإعدامه، تشفع فيه رجال من قبيلته ليمكث ستة أشهر غير أن جراح كربلاء ما كان لها أن تعالج فالتحق بقافلة الحسين.

بقي ثلاثة مقاتلين من الأنصار هم كل من بشير بن عمرو الحضرمي وسويد بن أبي المطاع الخثعمي والضحاك بن عبد الله المشرقي خرج بشير وسويد للمواجهة ودّعا الإمام واتجها نحو ساحة المعركة، قاتل بشير إلى أن هوى شهيداً، أما سويد فقد كانت جراحه تنزف فوقع مغمياً عليه وأخذ سيفه.

وهنا تقدّم الضحاك بن عبد الله المشرقي إلى الإمام قائلاً:

يا بن رسول الله!

قد علمت ما كان بيني وبينك! قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أر مقاتلاً فأنا في حل من الانصراف فقلت لي: نعم.

قال الامام عليه السلام:

صدقت، وكيف بالنجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حل! اقتاد المشرقي فرسه من داخل خيمة صغيرة واستوى على متنها ثم شن هجوماً مزلزلاً فمزق خطوط العدوّ ثم ليغادر ساحة القتال!

ملحمة أهل البيت عليهم السلام:

لم يبق مع الحسين إلّا أهل بيته لتبدأ ملحمة فريدة في المواجهة وكانت

البداية مع علي بن الحسين الذي سيعرف في التاريخ بـ«علي الأكبر» كان في السابعة والعشرين من العمر ذروة الشباب والفتوة، ظهر على مسرح الأحداث، عندما غادرت قافلة الإمام الحسين إحدى محطات الطريق بين مكة والكوفة، فقد رأى الامام عليه السلام بعد مغادرة القافلة محطة «قصر بني مقاتل» إلى قرى «الطف» في عالم الرؤيا فارساً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فانتبه من غفوته وقال:

إنا لله وإنا إليه راجعون؛ والحمد لله رب العالمين..

فتساءل نجله علي الأكبر عن السرّ من وراء استرجاعه!

فقال الأب:

إني خفقت برأسي فعنّ لي فارس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم! فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا!

قال علي:

ألسنا على الحق؟!

قال الأب:

بلى والذي إليه مرجع العباد!

قال الابن:

يا أبت اذن لا نبالي لي أن نموت محقين..

غير مخصص للبيع أو الطباعة
لنشر آثار كمال السيد

فشكر له الأب موقف نجله الذي كلما اشتاق إلى رؤية جده النبي نظر إليه لقد كان علي فتى يشبه رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله.

يقول التاريخ: «ولما لم يبق مع الحسين إلّا أهل بيته عزموا على ملاقاة الحتوف ببأس شديد ونفوس أبية وأنوف حمية وراح بعضهم يودّع بعضاً!».

أي مشهد هذا لفتية وشبان ورجال في تلك الساعات الأخيرة من ذلك اليوم الخالد أطول يوم في التاريخ أجل كان أول من تقدم للهجوم علي الأكبر لذلك ودّع رفاق الدرب والمصير.

ودّع والدته وعمته الحوراء وأخواته وقبل أخاه وسميّه الذي دخل في حالة إغماء لهول ما يجري.

أحاطت النسوة به وتعلقن وتوسلن إليه: ارحم غربتنا! لا طاقة لنا على فراقك!

ولكن بركان الغضب المستعر في صدر علي كان يشدّه نحو غابة كثيفة من الرماح والسيوف والحديد..

امتطى صهوة فرس تدعى «لاحقا» وتقدّم نحو جبهة القتال كانت شمس تشرين تجنح نحو الأصيل هتف الذي يشبه النبي بصوت جهوري مفعم بالحماس:

أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ نَحْنُ وَبَيْتِ اللهِ أَوْلي بِالنَّبِي
تَاللهِ لا يَحْكُمُ فينَا ابْنُ الدَّعي أَضْرِبُكُمْ بِالسَّيْفِ أَحْامي عْنَ أَبي

ضرب غلام هاشمي قرشي..

كان الحسين ينظر إلى أبنه البكر وتجمعت في عينيه الدموع ثم نادى على عمر بن سعد قائلاً:

قطع الله رحمك! كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله! وسلط عليك من يذبحك على فراشك.

ويسجّل القدر هذه الكلمات وسوف يتحرك ابن سعد باتجاه ذلك المصير ومعه عشرات هم الآن يشهرون سيوفهم لقتل فتى يشبه النبي محمد خلقاً وخُلقاً ومنطقا[1].

«وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه!».

اللهم فامنعهم بركات الأرض وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً فإنهم دعونا لينصروننا ثم عدوا علينا يقاتلوننا..

ثم تلا الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقد تمكن «أبو الحسن» خلال هجماته من تمزيق خطوط جيش النظام ويذكر أنه قتل مئة وعشرين فارساً ثم عاد إلى المخيم يلتقط أنفاسه وقد استعرت في أعماقه حمّى الظمأ والعطش!

من المؤسف أنه لم يأخذ بعض ما جرى في كربلاء ما يستحق من اهتمام

١. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٣٠.

مـن قبيـل التدابيـر الحربية التي قام بها الإمام الحسـين قبيل نشـوب المعركة والخطط القتالية بحيث تستمر المعارك والاشتباكات دون توقف من الصباح إلى الأصيل حتى إن جيش النظام رفض وقف القتال لصلاة الظهر.

وكذلـك البحـث فـي الخسـائر البشريـة التـي تكبدهـا جيش السـلطة وأن جيـش الإمام الحسـين قاتل ببسـالة أدهشـت العدو، فهذا عـمرو بن الحجاج الزبيـدي يعتـرف بصراحـة بشـجاعة وبسـالة أنصـار الحسـين ويطلـب عـدم مواجهتهم وجهاً لوجه وقتالهم بالحجارة! قائلاً:

أتدرون من تقاتلون؟!

تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين!

لا يبرز إليهم أحد منكم إلّا قتلوه على قلّتهم!

والله لـو لـم ترموهـم إلّا بالحجـارة لقتلتموهم[1] وسـرعان مـا أيد القائـد العام لجيش السلطة «ابن سعد» ذلك وأمر بحظر المبارزة الفردية.

وعندمـا تعـرض للانتقـاد أحد المشـاركين فـي الجريمـة وقيل لـه: ويحك، أقتلتم ذرية الرسـول؟! فقال لمنتقده: عضضت بالجندل! انك لو شـهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا!

ثـارت علينـا عصابـة أيديها على مقابض سـيوفها كالأسـود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً!

---

١. الطبري ج ٦: ٢٤٧.

تلقي نفسها على الموت!

لا تقبل الأمان!

ولا ترغب في المال!

ولا يحول بينها وبين المنية أو الاستيلاء على الملك!

فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيره! فما كنّا فاعلين لا أم لك[1]؟!

أجل عاد «أبو الحسن» علي الأكبر إلى معسكره يشكو إلى والده الظمأ وهنا يخلع الإمام خاتمه ووضعه في فمه[2] ويبدو إن الخاتم يحرك الغدد اللعابية ويدفعها للإفراز.

ويعيد «أبو الحسن» الكرة على الأعداء فقتل ثمانين وأكمل بذلك المئتين!

وهنا يستشيط مرّة بن منقذ العبدي غيظاً فيقول:

عليّ آثام العرب إن لم اثكل أباه!

فانتهز فرصة انشغاله بالقتال فجاء من الوراء وسدد الرمح إلى ظهره ثم ضربه بالسيف على رأسه ففلق هامته! اعتنق علي الأكبر فرسه ليحمله إلى معسكر الحسين ولكن يبدو أن الدماء وغبار المعركة حال دون الرؤية، فاتخذ طريقه نحو غابة من الرماح والسيوف التي راحت تنهش جسمه وانبعثت من

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣: ٣٦٣.

٢. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٣١.

بين قعقعه السيوف وعواء الذئاب صرخة الفتى الهاشمي:

عليك مني السلام أبا عبد الله!

هذا جدي قد سقاني بكأسه شربة لا اظمأ بعدها.

وهب الأب لنجدة نجله الشهيد وقد هوى فوق الصعيد.

انكب الحسين ووضع خدّه على خدّه وقال:

على الدنيا بعدك العفا!

ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول؟!

يعزّ على أبيك أن تدعوه فلا يجيبك!

وتستغيث به فلا يغيثك! كانت الدماء تنزف من جراح الشهيد وضع الإمام كفه تحت جرح راعف وملأها من الدماء القانية ورمى بها نحو السماء فلم تسقط منها قطرة!

وجاء شبان بني هاشم فحملوا جثمان الشهيد الذي يشبه النبي خلقاً وخُلقاً ومنطقاً ليضعوه في خيمه صغيرة.

وانبعث صراخ حرائر بيت النبي يندبن علياً الأكبر.

وتقدم من بعده عبد الله بن مسلم بن عقيل وأمه رقية بنت الإمام علي عليه السلام ونادى مستبشرا بلقاء الأحبة في عالم مفعم بالصفاء:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وعصبة بادوا على دين النبي وشن ثلاث

هجمات، وجاءته السهام كالمطر فوضع كفه دون جبهته فأصابه سهم كفه وسمرها على جبهته فقد اخترق السهم الكف ونبت في الجبهة فسمّرها ولم يتمكن من انتزاع كفه، وهنا هاجمه ذئب فطعنه برمحه في قلبه فهوى شهيداً، وجاء الذي رماه بالسهم يريد انتزاعه فلم يتمكن!

وهنا شن آل أبي طالب هجوماً صاعقاً وهم كل من عبد الرحمن بن عقيل وجعفر بن عقيل ومحمد بن مسلم بن عقيل وعون بن عبد الله بن جعفر الطيار ومحمد بن عبد الله بن جعفر الطيار والحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط المجتبى وقطعت يمينه أثناء القتال ووقع مغمياً عليه.

وتقدم محمد بن علي بن أبي طالب للقتال فقاتل حتى استشهد وخرج في أثره عبد الله بن عقيل بن أبي طالب فقاتل إلى أن هوى على الثرى شهيداً.

وتقدم عبد الله بن الحسن المجتبى فقاتل حتى الرمق الأخير وبرز من بعد شقيقه القاسم بن الحسن وكان في الرابعة عشرة من عمره كان وجهه يشبه القمر، فتقدم إلى جبهة القتال وراح يقاتل، فانقطع شسع نعله فوقف يشدّه غير مكترث لآلاف الذئاب البشرية لقد كان يحتقرهم ويشعر بتفاهتهم من أجل ذلك راح يشدّ النعل وهذا ما أثار غيظ أحدهم فشن هجومه على الفتى اليافع فقال حميد بن مسلم مستنكراً:

ما تريد من هذا الغلام؟!

يكفيك هؤلاء الذين تراهم احتوشوه!

ولكن ذلك الذئب لم يصغ إلّا إلى صوت الشيطان إذ قال للإنسان اكفر!

وعندما هوى السيف الغادر على رأس الفتى هتف بأعلى صوته:

يا عماه!

وهنا يشن الإمام هجوماً مزلزلاً فضرب المجرم بالسيف فاتقى الضربة بيده ولكن سيف الحسين البتار قطعها وصرخ لألم الضربة وشن عشرات الفرسان هجوماً لإنقاذه فإذا بسنابك الخيل تدوسه وتزهق روحه!

وانجلى غبار المعركة عن مشهد للحسين واقفاً على القاسم الذي ما يزال يفحص الأرض بقدميه قال الإمام بأسى:

بعداً القوم قتلوك!

خصمهم يوم القيامة جدك!

وأردف قائلاً:

عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك!

صوت والله كثر واتره وقل ناصره..

ثم حمله إلى خيمة الشهداء وسجاه إلى جانب علي الأكبر والشهداء من أهل بيته وقد نصبت هذه الخيمة بعيداً عن المخيم حين تتواجد النسوة والأطفال ثم نظر إلى السماء يستمطر اللعنة على هؤلاء القساة:

اللهم أحصهم عدداً! ولا تغادر منهم أحداً! ولا تغفر لهم أبداً.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

صبراً يا بني عمومتي! صبراً يا أهل بيتي! لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً![1].

كانت الراية ما تزال تخفق فوق هامة العباس بن علي الذي التفت إلى أشقائه! عبد الله وعثمان وجعفر قائلاً تقدموا يا بني أمي! حتى أراكم وقد أديتم الأمانة! وقال لأخيه عبد الله:

تقدم يا أخي حتى أراك قتيلاً..

ودّع الثلاثة شقيقهم أبا الفضل وأخاهم الحسين، ثم تقدّموا نحو خطوط القتال فقاتلوا حتى النفس الأخير! وهنا وقف العباس أمام أخيه بإجلال يستأذنه في شن الهجوم!

قال الحسين:

يا أخي! أنت صاحب لوائي!

قال أبو الفضل:

قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين وأريد أن آخذ ثأري!

قال الحسين وقد آلمه بكاء الأطفال من العطش:

اطلب لهؤلاء الأطفال ماءً.

تقدّم العباس باتجاه غابة كثيفة مكتظة بالرماح السيوف فنادى بصوت عال:

---

١. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٢٨.

يا عمر بن سعد!

هذا الحسين ابن بنت رسول الله! قد قتلتم أصحابه وأهل بيته! وهؤلاء عياله وأطفاله عطاشى!

فاسقوهم من الماء، قد احرق الظمأ قلوبهم!

وجاء صوت الشمر:

يا ابن أبي تراب!

لن نسقيكم قطرة واحدة!

كان بكاء الأطفال من الظمأ مؤلماً ويفجر الغضب في صدور الغيارى من أجل ذلك أخذ أبو الفضل القربة وامتطى صهوة جواده واتجه صوب النهر حيث ينتشر أربعة آلاف مقاتل.

كانت الراية ترفرف فوق هامته وأضواء الشمس تنعكس على وجه قمر بني هاشم فيزداد وجهه بهاءً.

قبل سنوات طويلة رأيت في عالم الرؤيا مشهداً ظل متألقاً في الذاكرة!

واقفاً كنت انظر مأخوذاً إلى جدارية رائعة!

أبو الفضل العباس ممتطياً صهوة جواده ويقتحم نهر الفرات!

وفوق هامته راية خضراء مكتوب عليها: «نصر من الله وفتح قريب». اللوحة صامتة تماماً وكل ما فيها ساكن حتى رشاش الماء المتطاير كان هو الآخر

عالقاً فوق مياه النهر التي كانت ساكنة أيضاً..

أجل كل شيء كان ساكناً ما خلا الراية فقد كانت ترفرف وتخفق!!

الراية هي الجزء الوحيد من اللوحة الذي كان ينبض بالحركة!

فجأة يظهر إلى جانبي صديق وزميل قال لي: ليس كل ما ورد في التاريخ حقيقة.

كان يحاول التشكيك فيما جري يوم عاشوراء! هكذا كان انطباعي عما قال!

قلت له بحماس:

اعتقد أن عاشوراء شمس تشرق على العالم بأسره وتفيض عليه بالنور.

ومنذ تلك الرؤيا والراية تخفق في وجداني!

حتى عندما ازور كربلاء فإنني أفضل أن أتمشى بين الحرمين، فتنبعث وقائع عاشوراء!

طبول الحرب وغابة الرماح والسيوف، وقافلة صغيرة محاصرة تستبسل في القتال دفاعاً عن النساء والأطفال، النيران تضطرم في الخندق، والدخان يتصاعد من ألسنة النار والغبار يملأ سماء المعركة والأرض تهتز تحت وقع سنابك الخيل، ورجال يزيدون على السبعين يقاتلون جيشاً جراراً مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي!

مياه الفرات تتدافع باتجاه الخليج، وأطفال صغار يئنون من الظمأ والعطش:

وأبو الفضل يحمل القربة ويمتطي جواده ويتجه إلى الفرات وينقل المعركة إلى النهر!

أربعة آلاف يفرّون لأنهم ينشدون الحياة! أما العباس فقد كان ينشد الموت الأحمر من أجل خلود أخضر!

أجل أتطلع إلى القبة الذهبية التي تتوهج تحت شمس العراق التي يقول السياب إنها أجمل في بلادي!

الراية ترفرف فوق القبة الشمّاء والمئذنتين السامقتين!

وعندما الج إلى داخل الضريح أكاد اسمع حفيف أجنحة الملائكة في هذه البقعة كان العباس يقاتل!

في هذه الأرض انطلقت أعظم «لا» من أجل أن تصنع التاريخ ومن أجل أن يولد الضمير الإسلامي الذي حفظ لآخر الرسالات الإلهية ألقها ومجدها وسطوعها.. أجل تمكن العباس من تحرير نهر الفرات وأن يقتحم النهر!

أجل كان رشاش المياه يتطاير بين أرجل الجواد، ومدّ كفّه إلى الماء ليغرف منه، غير أنه سرعان ما رمى الماء فقد تذكر عطش أخيه الحسين والأطفال والنسوة! وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنون وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني

أجل لقد استحال الحسين إلى نشيد للأجيال منذ تلك الساعة الخالدة!

ويملأ القربة من مياه الفرات في تلك اللحظات لم يكن هم هذا الإنسان العظيم إلّا إيصال الماء إلى أطفال صرعهم الظمأ!

انظر إلى نذالة أعداء الحسين وهم في الحقيقة أعداء الله والإنسانية انظر كيف ينسلخون عن آدميتهم فإذا هم ذئاب متوحشة وهنا تنطلق صيحات ضباط الجيش الأموي وأوامر بقطع الطريق على حامل راية جيش الحسين!

لقد كان العباس يمثل لهم جيشاً بأكمله، ولقد حاولوا إغراءه في صباح هذا اليوم المصيري وربما تصوروا إن هذا الإنسان لا يختلف عن غيره في زمن سيطر فيه حب الحياة الدنيا وكان هاجس الجميع البقاء حيّاً بأي ثمن حتى لو كان ذلك الثمن كرامة الإنسان وحرّيته!

هؤلاء الرجال الأبطال كانت نظرتهم تختلف تماماً.. نظروا إلى حلاوة الحياة فإذا طعمها في تلك اللحظات أمّر من الحنظل والعلقم!

وإذا مرارة الموت لديهم أحلى من الشهد!

وفي الوقت الذي كان أنصار الحسين يتسامون إلى أعلى ما يمكن أن يبلغه الإنسان؛ كان أعداؤهم يتسافلون إلى الدرك الأسفل إلى نقطة الحضيض.

من أجل ذلك راحوا يتكالبون لقطع الطريق على «السقّاء».

العباس يقاتل ببسالة ويشدو بمجد الحسين:

لا أرهب الموت إذا الموت زقا حتى أوارى في المصاليت لقى

نفسي لسبط المصطفى الطهروقا إني أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أخاف الشرّ يوم الملتقى

وهنا يكمن له رجل جهني وراء نخلة يسانده رجل سنبسي وتطير يد العباس اليمنى وتهوي بين أشجار النخيل فإذا به يتغنى بعقيدته وإيمانه ومبادئه:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

كان هم هذا الفارس الذي تبوأ مكانه في عالم الأساطير أن يوصل الماء إلى أكباد حرّى وقلوب صغيرة ظامئة تترقب عودة الفارس الذي راح يشق طريقه بين النخيل والراية ترفرف فوق هامته والمياه تموج في قربته! فحاز لقب «السقاء» منذ يوم السابع من محرم الحرام عندما قاد عشرين من أنصار الحسين نحو الفرات وذلك بعد نفاد الماء ونشر أربعة آلاف جندي على النهر وقطع الماء على مخيم الحسين.

وها هو الآن يعيد الكرّة ويقتحم النهر ويملأ القربة ويحاول إيصال الماء إلى الأطفال والنساء في الخيم؛ الراية ما تزال تخفق فوق هامته وهو يشق طريقه بين أشجار النخيل.

كما حاز هذا الفارس البطل لقب «حامل اللواء» وأصبح لدى عرب الجنوب العراقي «البيرغچي» من البيرق أو الراية وهي تسمية تركية بعد إضافة «وجي» إلى البيرق ويطلق عليه الإيرانيون اسم «علمدار حسين» أي صاحب «العلم» وما يزال اصطلاح الـ«كليد دار» معروفاً في العتبات المقدسة في العراق وأصل التسمية «كليد دار» أي صاحب المفتاح أو السادن.

و«علم دار» أو «حامل اللواء» من أشهر ألقاب أبي الفضل العباس.

لأن هذا اللقب حاز عليه من شخص الإمام الحسين آذ أورد المؤرخون وأرباب المقاتل انه لما أصبح الحسين يوم عاشوراء وصلّى بأصحابه صلاة الصبح وأعطى رايته أخاه العباس.

كما خاطبه بهذا اللقب مرّتين على الأقل قائلاً: «أنت صاحب لوائي».

وحمل اللواء مجد كبير وعادة ما ينتخب حامل اللواء وفق معايير في طليعتها أن يكون الذروة في الشجاعة والقوة والفتوة والفروسية لأن صمود الجيوش رهن بثبات الراية واللواء والعلم فإذا سقطت الراية انفرط عقد الجيش وحلّت الهزيمة.

ما يزال أبو الفضل يشق طريقه رغم شراسة العدو وتكالب تلك الذئاب التي كانت تتهيب المواجهة المباشرة يذكر التاريخ إن «السنبسي» كمن وراء نخلة وانتهز فرصة ليضرب الفارس على يده اليسرى ويقطعها من الزند وإذا بالعباس يهتف:

يا نفس لا تخشي من الكفاروأبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختارقد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلهم يا رب حرّ النار

وتكشف هذه الأبيات عن شاعرية فياضة ذلك إن إنساناً يتعرض للسهام والسيوف والرماح ويبتر ذراعاه وينزف دماً ثم يرتجل هذه الأشعار لهو إنسان بلغ ذروة الإيمان والشجاعة والصبر.

سقط السيف الذي يقاتل به لذلك حاول الإسراع من أجل إيصال الماء إلى الأطفال الظامئين.. إلى تلك القلوب الصغيرة و إلى تلك العيون التي كانت تنظر إلى جهة الفرات وتنتظر على أحرّ من الجمر عودة «السقّاء» يحمل الماء!

وهنا يصرخ ابن سعد بصوت يشبه عواء الذئب:

ويلكم ارشقوا القربة بالنبال!

فجاءته السهام كالمطر، واخترق سهم القربة واندلق ماؤها فوق التراب، ومن المؤكد إن ما حصل كان صدمة عنيفة وشعر أن قلبه قد تحطّم وأن السهم إنّما نبت في قلبه!

وأصاب سهم صدره وآخر نبت في إحدى عينيه فيما جمدت الدماء على عينه الأخرى، فإذا هو بلا عينين ولا ذراعين! كما فقد حماسه للعودة إلى المخيم بعد أن أريقت مياه القربة.

وفي الأثناء هاجمه ذئب ليضربه بعمود على هامته وهوى الفارس على

ضفاف نهر صغير يدعى «العلقمي» فانطلق هتاف خالد:

عليك مني السلام أبا عبد الله!

وتناهى صوت أبي الفضل إلى الحسين الذي هب كالإعصار وفرّت قطعان الذئاب المتوحشة والحسين يطاردها:

إلى أين تفرون وقد فتتم عضدي؟!

وقد تسبّب هزيمة عشرات الفرسان في أن يلقى بعض جنود المشاة مصرعهم تحت سنابك الخيل!

وعاد الحسين إلى مصرع أخيه العباس وكان في اللحظات الأخيرة جلس عنده ووضع رأسه في حجره وبكى الحسين وهو يمسح التراب والدماء عن وجه «القمر»..

قال بأسى ولوعة:

الآن انكسر ظهري!!!

لقد سقط اللواء وهوت الراية وتحطمت الخطوط الأمامية لجيش الحسين! إن المخيلة الشعبية ما تزال تتصور جسد أبي الفضل طافياً على مياه النهر وذراعاه ينزفان دماً!

ما تزال ذاكرتي حتى اليوم تحتفظ بأصداء قديمة تعود إلى أيام الطفولة في مواكب العزاء الحسيني ليلة عاشوراء كان الأطفال واليافعين ينتظمون في مواكب صغيرة وتردد حناجرهم كلمات العزاء التي لم يبق منها سوى القليل

غير هذه الكلمات: طاحت النجمة بالجرف يا عباس!

ما تزال هذه الكلمات البريئة تلهب وجداني وتحلّق به في سماء الخيال وأنا أتصوّر مشهد النجم يهوي على ضفاف النهر! ألا كيف تهوي نجمة تومض بالنور فتسقط على ضفة النهر؟!

ولعل هذا يعود إلى ما ذكرته بعض المدونات حول مشاهدات مزارع من بني أسد كانت له ارض بالقرب من نهر العلقمي فجاء بعد الواقعة بأيام وشاهد «نجوماً تنزل من السماء إلى الأرض» في تلك البقعة حيث هوى العباس شهيداً[1].

وفي فترة مبكرة كان الكثيرون يتهامسون حول وجود نهر العلقمي الذي ما يزال يجري عند ضريح أبي الفضل العباس!

وفي منتصف التسعينات من القرن الماضي نشرت بعض الصحف الأسبوعية أخباراً عن «استخراج مياه من قبر العباس للاستشفاء وبيعها بأسعار عالية جداً!»..

وفي عام ١٩٩٨ قدّر لأحد الصحفيين والإعلاميين في مجلة «ألف باء» النزول إلى السرداب لـ «كشف الحقائق وتفنيد الإشاعات!» خاصّة بعدما «استفزه أحد الأشخاص عندما قال له: إن أحد أقاربه نزل إلى القبر الأصلي بواسطة أحد رجال الدين وشاهد النهر ما يزال يجري تحت الضريح والأكثر

١. انظر بطل العلقمي ج ٣: ٣٨٠، عبد الواحد المصطفى بالاستناد إلى المنتخب، فخر الدين الطريحي ط حجرية.

من ذلك أنه شاهد ذراع العباس ما زالت طرية تنزّ دماً على ضفة النهر!»..

شخصياً لا أتردد في الإيمان ببقاء جسد أبي الفضل طرياً!!!

وقد ثبت وجود نهر صغير مياهه عذبة وصافية جداً ثم تم تصوير جانب من النهر فيما بعد!

وقد نزل الصحفي إلى داخل تلك المياه الباردة الصافية وشرب منها فكانت عذبة تختلف تماماً عن المياه الجوفية[1].

وبقاء الجسد طرياً كرامة من الله عز وجل لعباده الصالحين.

في أيار مايس عام ٢٠٠٣ زرت الضريح الطاهر للشهيد محمد باقر الصدر وتصفحت ألبوماً يوثق كرامة «حسين العصر» رضوان الله عليه وقصة نقل جثمانه إلى مكان سرّي بعد أربعة عشر سنة وقد فوجئ الأشخاص الذين اشتركوا في هذه المهمة ببقاء جثمان الشهيد طرياً[2].

وعاد الحسين إلى المخيم يذرف الدموع «وقد تدافعت الرجال على مخيمه»[3].

خرجت سكينة تسأل عن عمها فاخبرها بمصرعه وصاحت زينب الحوراء

---

١. انظر مقال عبد الستار البيضاني الملحق في آخر الكتاب.

٢. انظر الملحق رقم (٢) المستل من كتاب وجع الصدر، أمل البقشي وجاء في بعض المدونات ان شاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية نزل إلى قبر الحرّ، «وظهر له رجل كهيئته لما قتل وعلى رأسه عصابة فلما حلّها انبعث الدم ولم ينقطع إلّا بشدّها» المصدر السابق: ٣٢١ الهامش(٢).

٣. مقتل الحسين، عبد الرزاق الموسوي المقرم: ٢٧٠ مقتل.

والنسوة:

واضعيتنا بعدك!

ونادت زينب!

واعباساه! وا أخاه..

وانطلق صراخ الأطفال وعويل ربّات الحجال إلى الفضاء ونادى الحسين يخاطب التاريخ والأجيال:

أما من مغيث يغيثنا؟!

أما من طالب حق فينصرنا؟!

هل من موحدٍ يخاف الله فينا؟!

وهنا أفاق علي الأصغر على النداء الحسيني، كان في الثالثة والعشرين وشاء القدر الذي يحرك التاريخ والوجود ألا يشارك في المعركة؛ لقد فقد القدرة تماماً على حمل السلاح بالرغم من إرادته التي تهز الجبال!

أفاق الشاب من غيبوبته استجمع كل ما لديه من قوة جسديه لينهض متوكأً على عصا وراح يجر سيفه ولما رآه الحسين نادى شقيقته الحوراء زينب:

احبسيه! لئلاّ تخلو الأرض من نسل آل محمد.

إنّ الله اصطفاه لحمل الأمانة بعد سبط محمد أخذت زينب بيد ابن أخيها

إلى فراشه كان يبكي ويذرف الدموع وكان قلبه تعتصره الآلام وسرعان ما اغمي عليه لهول ما يجري أمامه!!!

وبدأ الإمام الحسين يستعد للهجوم الأخير لذلك طلب ثوباً زهيد الثمن لا يرغب فيه أحد يرتديه تحت ثيابه حتى لا يُجرد فهو لا محالة سيقتل ويسلب.

فاحضر له عقبة بن سمعان سروالاً صغيراً رفضه الإمام لأنه من لباس الذلّة، وأخذ ثوباً قديماً وراح يخرّقه ثم ارتداه تحت ثيابه وسروالاً عتيقاً مزّقه أيضاً في عدّة مواضع ثم ارتداه.

وراح يودّع أفراد أسرته وأهل بيته بما في ذلك طفله الرضيع عبد الله وكان له من العمر ستة أشهر فقط، كان ظامئاً جداً حتى أنه فقد القدرة على البكاء الوسيلة الوحيدة التي يمكنه أن يعبّر فيها عن عطشه وظمئه! آه ما أقسى هؤلاء الناس!

قبّل الأب المفجوع ابنه الرضيع وقال:

بعداً لهؤلاء القوم! إذا جدك المصطفى خصمهم.

تقدم نحو صفوف أولئك القساة يطلب له قطرة ماء!!!

كان المشهد مؤلماً ومؤثراً ويبدو أنه أحدث لغطاً بين موافق ومعارض! لذلك التفت ابن سعد إلى أحد الرماة المحترفين ويدعى «حرملة» وقال له:

اقطع نزاع القوم!

أدرك حرملة ما يريد القائد العام فوضع سهماً في كبد القوس وسدّده نحو

رقبة الطفل التي كانت تتألق تحت ضوء شمس تشرين.

اتجه السهم بكل قسوة نحو نحر الطفل فتدفق دمه الوردي، تلقى الحسين دماء طفله الرضيع بكفه ثم رمى بها نحو السماء، فلم تسقط من دماء الطفل قطرة وسرعان ما انطفأت حياته كشمعة صغيرة تنطفئ في لحظة!

قال الأب بحزن ولوعة:

هوّن ما نزل بي انه بعين الله تعالى!

اللهم لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح!

الهي إن كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه وانتقم لنا من الظالمين!

واجعل ما حل بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل. وسمع الحسين هاتفاً يقول:

دعه يا حسين! فان له مرضعاً في الجنة[1].

وضع الإمام ابنه الصغير مع الشهداء من أهل بيته!

آه يا عبد الله!

أكنت تقاتل في كربلاء أم ترضع؟!

آه كيف ستسوّل لهؤلاء الناس أنفسهم احتزاز رأس بحجم برتقاله؟!

---

١. تذكرة الخواص: ١٤٤.

كيف؟!

وتقدم الحسين نحو آلاف الذئاب البشرية ممتطياً فرسه «ذو الجناح» ليشنّ هجومه الأخير، واستحال سيفه إلى صواعق تبرق وسط غبار الاشتباكات وكانت الأرض تهتز تحت وقع سنابك خيل مجنونة.

توقفت الاشتباكات بعد أن دوخ الحسين القبائل، يقول التاريخ انه دعا الناس المبارزة وربما تصور بعضهم أن الحسين قد استسلم للموت فهو ينشد رصاصة الرحمة لهذا استجاب بعضهم أملاً في الحصول على المجد!

لكن ابن علي وسبط النبي كان يقضي على «كل من برز إليه حتى قتل جمعاً كثيراً»[1].

وهنا يشنّ الحسين هجوماً مزلزلاً على الجناح الأيمن فيمزق خطوط العدو ما يزال صوته يدوي في سماء التاريخ:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار!

لقد حطم الحسين في تلك اللحظات القيم الجاهلية التي كانت تعتبر الشرف في مدى القرب من مراكز السلطة وفي مدى الاستحواذ على الثروة هكذا صنف المجتمع العراقي قبيل عاشوراء فثمة طبقة كانت تعرف بـ«الأشراف» وهي تلك الزعامات التي كانت تدور في فلك السلطة!

وجاء الحسين ليعيد مجد القيم الأخلاقية، وانه من الممكن تدمير الإنسان

١. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٣٣.

ولكن من المستحيل هزيمته!

أجل يمكنهم تهشيم مصابيح الهدى! يمكنهم قتل الأئمة الأطهار غير أنه من المستحيل انتزاع تأييد لقياداتهم! ومباركة حكوماتهم أجل «مثلي لا يبايع مثله»! «على الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براع مثل يزيد».

ومن قبل قال أبوه: «إذا كان الراعي ذئباً فالشاة من يحفظها؟!» ثم شن الحسين هجوماً مدمراً على الجناح الأيسر فمزق خطوط العدو! هتف بأعلى صوته:

أنا الحسين بن علي آليت إلاّ انثني

احمي عيالات أبي أمضي على دين النبي

يقول ابن يغوث وهو شاهد عيان:

«ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وصحبه، أربط جاشاً منه ولا أمضى جناناً ولا أجراً مقدماً!

ولقد كانت الرجال تنكشف بين يديه إذا شدّ فيها ولم يثبت له أحد».

هكذا كان مشهد الحسين في الساعات الأخيرة من يوم عاشوراء، وهنا يصيح عمر بن سعد لإثارة الأحقاد القديمة ضد عليّ:

هذا ابن الانزع البطين!

هذا ابن قتال العرب!

ويصدر أمره بالهجوم على الحسين من كل الجهات!

احملوا عليه من كل جانب!

تم إطلاق أربعة آلاف سهم باتجاه الحسين كانت السهام تساقط كالمطر! واشتد القتال وقصدته الكتائب فرساناً ومشاة، واتجهت بعض كتائب من الفرسان إلى المخيم وكان الإمام يقاتل وسط غابة من السيوف والرماح!

وعندما تم الالتفاف على الحسين نادى:

يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، فكونوا أحراراً في دنياكم!

فصاح الشمر:

ما تقول يا بن فاطمة؟!

قال الحسين:

أنا الذي أقاتلكم والنساء ليس عليهن جناح!

فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حيّا!

قال الشمر:

لك ذلك!

وحاول الشمر تضييق الدائرة على الحسين إلا أنه تمكن وبالرغم من الظمأ أن يشن هجوماً باتجاه الفرات ويحطم طوق الحصار، كما تمكن من الحاق الهزيمة بأربعة آلاف مقاتل كانوا يرابطون بقياده عمرو بن الحجاج عند النهر!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

ويقحم الحسين فرسه في مياه النهر، وعندما أحنى الفرس رأسه يشرب قال الحسين:

أنت عطشان! وأنا عطشان!

فلا أشرب حتى تشرب.

وهنا يرفع الفرس رأسه كما لو أنه فهم كلام الحسين هكذا ورد في بعض مدونات التاريخ[1].

ولا يستبعد المرء هذه الحادثة إذا ما تأمل في الوقائع التي تلت مصرع الحسين والتي باتت وشيكة جداً وذلك أن الفارس الظامئ مدّ يده ليغترف من النهر فإذا به يسمع نداءً من العدو:

أتلتذ بالماء وقد هتكت حرمك؟!

فرمى الحسين الماء ولم يشرب واتجه صوب المخيم!

لقد كان بإمكان الحسين إطفاء عطشه فهذا لا يستغرق من الزمن سوى لحظة واحدة فقط، لكنه رمى الماء!

إنها رسالة واضحة للعدو في أن سبط سيد العرب والعجم وابن سيد العرب يتفانى من أجل الدفاع عن العرض والشرف وانه إنّما يقاتل من أجل القيم الإنسانية والأخلاقية!

كانت سنابك ذي الجناح تهز الثرى وظهرت شقيقته زينب وابنته سكينه

١. بحار الأنوار ج ١٠: ٢٠٤.

وزوجه الرباب ونسوة وفتيات و..

وراح يودعهن للمرّة الأخيرة!

يا سكينة! يا فاطمة! يا أم كلثوم! عليكن مني السلام..

قالت سكينة:

يا أبت! استسلمت للموت؟!

فقال الأب المفجوع:

كيف لا يستسلم من لا ناصر له ولا معين؟!

قالت بألم:

يا أبت! ردّنا إلى حرم جدّنا!

قال الفارس الوحيد الذي دوخ القبائل:

هيهات لو ترك القطا ليلاً لنام[1].

راح يودّع النسوة وأوصاهم بالصبر ولبس الأزر وقال:

استعدوا للبلاء!

واعلموا أن الله تعالى حاميكم وحافظكم!

وسينجيكم من شر الأعداء!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. المنتخب للطريحي: ٤٤٠؛ بحار الأنوار ج ٤٥: ٤٧.

ويجعل عاقبة أمركم إلى خير!

ويعذب عدوكم بأنواع العذاب!

ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة! فلا تشكوا!

ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم.

وهنا انتهز الوغد هذه الفرصة فصاح بجنوده وهم جنود الشيطان:

ويحكم اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه!

والله إن فرغ لكم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم فتقدّم مئات الجنود المشاة والرماة، يطلقون مئات السهام باتجاه المخيم.

كانت السماء تمطر وابلاً من السهام والنبال تتساقط بين أطناب الخيام وشك بعضها أزر النساء، فذعرن وصحن ولجأن إلى الخيام «ينظرن إلى الحسين كيف يصنع؟».

ويشن الحسين هجومه الأخير «كالليث الغضبان فلا يلحق أحداً إلّا بعجه بسيفه».

وكانت السهام تتجه إليه من كل صوب وهو يتلقاها بصدره ونحره!

وقف الحسين يستريح قليلاً بالقرب من نهر الفرات! يردد من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

كان قلبه قد استحال إلى جمرة مستعرة من شدّة الظمأ صاح أحدهم وقد

لاح النهر تتدافع أمواجه المتألقة تحت أشعة شمس الأصيل..

يا حسين!

ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيّات؟!

لن تشرب منه قطرة حتى تموت عطشا!

اتجه الحسين ببصره إلى السماء وقال:

اللهم أمته عطشا!

وهنا سدّد أبو الحتوف سهماً غادراً صوب الحسين فنبت السهم في جبهته الشماء وفجّر مكامن الألم نزع الحسين السهم فسالت الدماء على وجهه فقال يخاطب بارئ الوجود:

اللهم إنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة!

اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً!

ولا تذر على الأرض منهم أحداً!

ونادى بصوت عال:

يا أمة السوء!

بئسما خلفتم محمداً في عترته!

أما إنكم لن تقتلوا بعدي رجلاً فتهابون قتله! بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إيّاي.

وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون.

قال ابن نمير:

وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة؟

أجاب الإمام وهو ينظر إلى أفق مظلم:

يلقي بأسكم بينكم ويسفك دماءكم؛ ثم يصبّ عليكم العذاب صبّا[1]!!!

أكثر من ثلاثين طعنة بالرمح تلقاها الحسين وأكثر من ثلاثين ضربة بالسيف، أما الجراح التي أحدثتها السهام فقد كانت بالمئات حتى لقد تحول درعه إلى ما يشبه جلد القنفذ؟!

وينطلق حجر قاس فيصيب جبهة الحسين فسالت الدماء على وجهه رفع طرف قميصه يمسح الدم عن عينيه وإذا بسهم له ثلاثة رؤوس ينبت في صدره ويصيب القلب فشعر الفارس ببداية النهاية لذلك رفع رأسه واتجه ببصره إلى عمق السماوات:

بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله!

الهي انك تعلم انهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري؟!

ثم انحنى على قربوس الفرس ليخرج السهم من قفاه!

١. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٣٤.

وتتدفق الدماء القانية كالميزاب!

وضع الحسين يده تحت الجرح الفوار فامتلأت دماً قانياً رمى به نحو السماء فلم تسقط منه قطرة، ثم ملأها ثانية وراح يخضب بها رأسه ووجهه ولحيته وقال:

هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله وأنا مخضب بدمي! وأعياه نزف الدماء من عشرات الجراح فنزل عن فرسه ينوء بنفسه!

وهنا يهاجمه رجل يدعى ابن النسر فيضربه بالسيف على رأسه فيمتلأ البرنس دماً والحسين يلقي البرنس ويعتم على القلنسوة ابن النسر يختطف البرنس ويحتفظ به؛ نظر الحسين إليه وقال:

لا أكلت بيمينك ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين[1]!

الحسين ينوء بنفسه يحاول النهوض ولكن نزف الدماء جعله يشعر بالإعياء ولم يعد الجسد ليقوى على النهوض بالروح العظيم!

وهنا يظهر صبي يرتدي قميصاً وازاراً وبيده عصا جاء من المخيم نحو مصرع الحسين وإذا بفارس يتجه إليه ثم يميل عن فرسه ويضربه بالسيف، ويسقط الصبي شهيداً مضمخاً بالدماء!

كانت الأم تراقب من بعيد المشهد الدامي وقد وضعت كفها فوق فمها لهول الصدمة؟!

---

١. الكامل لابن الأثير ج ٤: ٢٣١. مقتل الخوارزمي ج ٢: ٣٥.

ذكر التاريخ إن الصبي هو محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب ولكن القاتل ظل مجهولاً!!!

حتى أولئك القساة البرابرة عابوا على الفارس فعلته وعندما سأله أحدهم من يكون؟

لم يفصح عن هويته!

الحسين ما يزال جالساً وقد أحاطت به الذئاب البشرية!

وهنا يظهر صبي في العاشرة هو عبد الله بن الحسن السبط جاء لنجدة عمه، حاولت عمته زينب الحوراء منعه لكنه أفلت وها هو يركض باتجاه عمه؛ وهنا يهوي بحر بن كعب بالسيف ليضرب الحسين فصاح الصبي!!!

يا ابن الخبيثة! أتضرب عمي..

ابن بحر يهوي بالسيف على الصبي الذي اتقى الضربة بيده؛ السيف يقطع يد الصبي فتبقى معلقة بالجلد صاح الصبي:

يا عماه!

احتضن العم ابن شقيقه وقال له بصوت واهن:

يا بن أخي اصبر على ما نزل بك!

واحتسب في ذلك الخير! فان الله تعالى يلحقك بآبائك الصالحين!

وكان حرملة يسدد سهماً نحو عنق الصبي الذي انطفأت حياته كما تنطفئ

الشموع نظر الحسين إلى السماء لتخترق كلماته الغبار والتاريخ:

اللهم إن متعتهم إلى حين، ففرقهم تفريقاً!

واجعلهم طرائق قددا!

ولا ترض الولاة عنهم أبداً!

فانهم دعونا لينصرونا! ثم عدوا علينا يقاتلوننا؟!

صاح الشمر الذي بدا مثل كلب أبقع بجنوده!

اهجموا عليه!

فضربه ابن شريك بالسيف على كتفه الأيسر!

ورماه ابن نمير بسهم في حلقه..

وضربه ذئب مجهول على عاتقه..

وطعنه سنان في ترقوته، ثم في بواني صدره، ثم رماه بسهم في نحره!

وطعنه ابن وهب في جنبه!

ذكر شاهد عيان كان يتحين الفرصة لقتل الحسين والفوز برأسه!

كنت واقفاً نحو الحسين وهو يجود بنفسه!

فوالله ما رأيت قتيلاً مضمخاً بدمه، أحسن منه وجهاً ولا أنور!

ولقد شغلني نور وجهه عن التفكير في قتله!

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

الحسين يقتله الظمأ وكانت أعماقه تستعتر عطشاً استقى شربة ماء فخاطبه ذئب بشري بقسوة:

لن تذوق الماء حتى ترد الحامية؟! فتشرب من حميمها؟!

قال الحسين:

أنا أرد الحامية؟!

وإنّما أرد على جدي رسول الله، واسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر!

وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم؟!

تفجرت في أعماق الذئاب براكين الحقد وراحوا ينهشون جسم الحسين الدامي!!!

ها هي الرؤيا تتجسد حقيقة ماثلة مؤلمة، كان الحسين قد رأى في السحر في عالم الرؤيا كلاباً مسعورة تنهشه وكان أشدّها كلب أبقع!

فأخبر أنصاره أن رجلاً أبرص سيقوم بذبحه! وما هي إلا ساعات اثنتي عشر حتى تجسّدت الرؤيا في هجوم كلاب مسعورة راحت تتخطف جسمه طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف ورمياً بالسهام!

وراح الشيطان يقهقه عالياً يسخر من آدم؛ قابيل ينقض على أخيه، ورأس يحيى في طبق بين يدي سالومي ويوسف في غيابات الجب والسيف يهوي على هامة علي صوت العدالة والإنسانية والحسن السبط يلفظ أجزاءً من

كبده الذي مزّقه سم قاتل!

الحسين يتطلع إلى السماوات وقد أكفهرت الأجواء وسرت في الطبيعة رعدة مخيفة!

اللهم متعال المكان! عظيم الجبروت!

شديد المحال! غني عن الخلائق!

عريض الكبرياء!

قادر على ما تشاء!

قريب الرحمة! صادق الوعد! سابغ النعمة! حسن البلاء!

قريب إذا دعيت! محيط بما خلقت! قابل التوبة لمن تاب إليك قادر على ما أردت! تدرك ما طلبت!

شكوراً إذا شكرت! ذكوراً إذا ذكرت أدعوك محتاجاً! وارغب إليك فقيراً!

وانزع إليك خائفاً وابكي مكروباً!

واستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً!

اللهم احكم بيننا وبين قومنا، فانهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا!

ونحن عترة نبيك وحبيبك محمد صلى الله عليه وآله الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على الوحي!

فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين!

صبراً على قضائك يا رب! لا اله سواك!

يا غياث المستغيثين!

مالي رب سواك!

ولا معبود غيرك!

صبراً على حكمك!

يا غياث من لا غياث له!

يا دائماً لا نفاد له..

يا محيي الموتى!

يا قائماً على كل نفس بما كسبت!

احكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين!

ذو الجناح يدور حول الفارس الصريع! يلطخ ناصيته بدمائه!

صاح ابن سعد:

امسكوا بالفرس انه من جياد خيل رسول الله!

عشرات الفرسان يحيطون بـ«ذي الجناح» راح الجواد يرمح برجليه فأسقط العديد من الفرسان أرضاً! وتمكن من اختراق الطوق من حوله؛ قال ابن سعد:

دعوه لننظر ما يفعل!

عندما شعر الجواد بالأمان اتجه نحو مصرع الفارس وراح يمرغ ناصيته بدماء الحسين ويشمه ويطلق صهيلاً عالياً:

كان يقول:

الظليمة! الظليمة!

من أمة قتلت ابن بنت نبيها!

ثم انطلق نحو المخيم وهو ما يزال يصهل عالياً! وخرجت النسوة ينظرن؛ فإذا الجواد وحيداً يرمح برجليه ويطلق الصهيل:

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

الظليمة! الظليمة!

زينب تصعد التل فترى شقيقها صريعاً فوق الثرى فتهتف عالياً:

غير مخصص للبيع أو الطباعة

وا محمداه! وا أبتاه! وعلياه!

وا جعفراه! وا حمزتاه!

هذا حسين بالعراء!

صريع بكر بلاء!

ليت السماء أطبقت على الأرض!

وليت الجبال تدكدت على السهل وانحدرت من فوق التل إلى مصرع الحسين.. الحسين يستنشق أنفاسه بصعوبة وعمر بن سعد ينظر إليه:

نادت زينب لعلها توقظ في نفسه بقايا الإنسان:

أي عمر!

أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟!

أدار وجهه عنها وراح يذرف الدموع!

نادت زينب بألم:

أما فيكم مسلم؟!

فلم يجبها أحد! لقد انسلخ الجميع عن الإسلام والإنسانية صاح ابن سعد يريد أن يضع حداً للمأساة:

انزلوا إليه وأريحوه!

وتقافزت الذئاب والكلاب من فوق الخيل تقدّم الشمر من الحسين وركله ثم جلس على صدره وامسك بلحيته وراح يضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربه!

ثم فصل الرأس المقدس عن الجسد؟!

ومن قلب الغبار ظهر رأس الحسين فوق رمح طويل يشخب دماً قانياً؟!

ويلكم يا أهل الكوفة؟!

إني أرى رسول الله ينظر إلى جموعكم مرّة و إلى السماء أخرى وهو قابض على لحيته؟!

وهبت رياح سوداء وانبعث صوت فيه صغير شيطاني..

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير قابل للبيع أو الطباعة

لا يهولكم ذلك انه صوت مجنون؟![1].

حدثت هزّة أرضية، وارتجفت الأرض لهول ما يجري في كربلاء!

وراحت الذئاب البشرية تتخطف ثياب الحسين، خطف ابن حوية قميص الحسين وخطف الحضرمي عمامته والأسود حذاءه والأودي سيفه!

وقطع بجدل أصبع الكف اليمنى وانتزع الخاتم واختطف ابن الأشعث قطيفته، وهبت ريح سوداء عقيم وثم كسفت الشمس بعد أن أصبح القمر بينها وبين الأرض وكانت الشمس في الميزان سبع عشر درجة وعشرين دقيقة والقمر في الدلو عشرين درجة وعشرين دقيقة وزحل في السرطان تسعاً وعشرين درجة وعشرين دقيقة والمشتري في الجدي اثنتي عشرة درجة وأربعين دقيقة والزهرة في السنبلة خمس درجات وخمسين دقيقة وعطارد في الميزان خمس درجات وأربعين دقيقة، واليوم هو الجمعة العاشر من تشرين عام ٦٨٠ للميلاد[2]، وهجمت قطعان الذئاب المتوحشة على المخيم للهب والسلب!

فرّ الأطفال وعلى وجوههم في الفلاة وكان أشباه الرجال يسلبون النساء الأقراط والأساور!

وأمطرت السماء دماً قانياً[3]؟!

---

١. مقتل الحسين، عبد الرزاق المقرم: ٢٩٦ بالاستناد إلى كامل الزيارات.

٢. تاريخ اليعقوبي ج ٢: ٢٤٣.

٣. تاريخ ابن عساكر ج ١: ٣٣٩؛ مقتل الخوارزمي ج ٢: ٨٩؛ الصواعق المحترقة: ١١٦..

المدينة المنورة

في الساعة الخامسة، انتبهت السيدة أم سلمة من نومها مرتبة، واتجهت إلى رف في حجرة قصية نظرت في قارورة فإذا التراب يفور دماً؟! لقد مضى على هذه القارورة خمسون عاماً، كان زوجها العظيم آخر الأنبياء قد سلّمها هذه القارورة وفي داخلها قبضة من تراب كربلاء وأخبرها بأن سبط الحسين سوف يقتل في هذه الأرض وآية ذلك إن تربته تفور دماً عبيطاً؟!

وها هي ترى رسول الله في عالم الرؤيا وهو مجلل بالغبار أشعث الأشعر؟! وعلى رأسه التراب؟!

قالت له: يا رسول الله؟ ما لي أراك أشعث مغبراً؟!

قال لها: قتل ولدي وما زلت أحفى القبور له ولأصحابه[1] وانتشرت على جدران البيوت حمرة قانية وفي ظلمة الليل سمعت هاتفاً يقول:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ابشروا بالعذاب والتنكيل.

قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وصاحب الإنجيل.

كل أهل السماء يدعو عليكم من ملاك ومن نبي رسول[2].

---

١. ذخائر العقبى محب الدين الطبري: ١٤٨؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي: ١٣٩؛ سير اعلام النبلاء، الذهبي ج ٢: ٢١٣.

٢. تاريخ ابن عساكر ج ٤: ٣٤١؛ الخصائص للسيوطي ج ٢: ١٢٧؛ مجمع الزوائد ج٩: ١٩٩.

وبكت السماوات وبكت الأرض[1]!

كربلاء

وانطلقت صيحات وسط الريح: قتل الحسين! وهنا أفاق سويد بن عمرو بن أبي المطاع وكان مغمياً عليه أفاق فإذا به يسمع النداء: قتل الحسين لم يجد سيفه، فاستلّ سكيناً ونهض يقاتل من جديد، أصيب جنود النظام الأموي بالذعر وتصوروا ان أنصار الحسين انبعثوا من جديد! لكن سويد كان وحده يقاتل بسكين!

تكالبت عليه الذئاب بالسيوف والرماح إلى أن هوى شهيداً!

كانت الرياح تسفي أرض المعركة وقد سرت في الطبيعة رعدة مخيفة تنخلع لها القلوب وأظلمت الأجواء، وتساقطت قطرات مطر بلون الدماء القانية وسط غبار كثيف وارتجفت الأرض هلعاً من هول المأساة؟!

هدأت قعقعة السيوف وكفت الخيول عن الصهيل ما عدا «ذو الجناح» فما يزال يرمح برجليه ويطلق صهيله عالياً ثم يتجه صوب نهر الفرات ليختفي في الأمواج والتاريخ!!!

وصل عمر بن سعد إلى مخيم الحسين ليوقف عمليات النهب والسلب بعد أن تم نهب كل شيء!

ويصدر أمره بعدم التعرض للنسوة وعدم قتل علي الأصغر الذي ما يزال

---

١. الدر المنثور، السيوطي: ٣٠.

مسجى في الفراش قد فقد القدرة على النهوض وإلى جانبه وقفت عمته الحوراء التي ظهرت قوّية كالعاصفة شامخة كالجبل لترسم أعظم ملحمة في الصبر والمقاومة وتكون صوتاً مدوّياً لأعظم ملحمة إنسانية على الإطلاق!

كانت النيران ما تزال تلتهم بعض الخيام، وسيف الشمر على وشك أن يذبح علي بن الحسين! وانطلق صوت امرأة وائلية استفزها الهجوم على آل الرسول:

يا آل بكر بن وائل!

أتسلب بنات رسول الله؟!

لا حكم إلاّ الله!

وإذا بزوجها يعترض طريقها ويردّها إلى خيمتها! وأمر ابن سعد بقطع رؤوس الشهداء وتوزيعها على القبائل العربية المشاركة في الجريمة من أجل استلام جوائز النظام!

كانت حصة قبيلة كندة بزعامة قيس بن الأشعث ثلاثة عشر رأساً وحصة قبيلة هوازن بزعامة الشمر بن ذي الجوشن اثني عشر رأساً! وأخذت قبيلة تميم سبعة عشر رأساً وأخذ الأسديون ستة عشر رأساً ومذحج سبعة رؤوس وعندما أرادوا قطع رأس الحرّ الرياحي اعترض رجال من قبيلته ونقلوه بعيداً عن أرض المعركة وقاموا بدفنه.

وتنفيذاً لأوامر ابن زياد انتدب عمر بن سعد عشرة فرسان لرضّ أجساد

الشهداء كانت الخيول ترض بسنابكها أجساد الشهداء، وكان مشهدها إيذاناً باستباحة جميع الحرمات لم يعد هناك بعد الآن من مقدسات بعد أن رضت سنابك خيل الطغاة صدر الحسين!

لم يعد هناك بعد الآن معقول وغير معقول! كل الحرمات مستباحة لدى نظام الطاغية يزيد!

وقبيل الغروب الدامي، كانت رؤوس الشهداء ترتفع فوق رماح طويلة يتقدّمها رأس سيد الشهداء في طريقها إلى الكوفة!

كان ابن زياد متواجداً في معسكر النخيلة القريب من مدينة الكوفة، وعندما وصله آخر تقرير من كربلاء يفيد بمصرع الحسين، قرر العودة إلى قصرة والاستعداد للاحتفال بالنصر الكبير!

أما عمر بن سعد فقد بعث رسولاً إلى أسرته يبشرهم بسلامته وانتصاره وأقام مع الجيش وفي صباح اليوم التالي بدأت عمليات جمع أجساد القتلى من قواته وأجريت عليهم الصلاة بإمامته ومن ثم دفنهم، وتركوا أجساد الشهداء عارية تحت أشعة شمس تشرين.

وبعد انتصاف النهار بدأت الفرق العسكرية العودة إلى الكوفة بعد تفكيك المعسكر.

وتحرك موكب السبايا الذي يضم عشرين امرأة وعدداً من الأطفال وكان علي الأصغر ما يزال يعاني من وهن وضعف شديد في قواه!

وكذلك عقبة بن سمعان والحسن المثنى بن الحسن السبط الذي وقع في الأسر بعد أن قطعت يده اليمنى والمرقع بن ثمامة الأسدي الذي شارك في عمليات إطلاق السهام باتجاه جيش السلطة!

قبل أن يغادر عمر بن سعد ارض كربلاء توسط أسماء بن خارجة الفزاري في إطلاق الحسن المثنى من الأسر لأسباب واعتبارات قبلية وذلك لأن أم الحسن كانت فزارية.

وفي الكوفة تم إطلاق سراح عقبة بن سمعان باعتباره مجرد مملوك للرباب زوج الحسين! أما المرقع بن ثمامة الأسدي فقد تم نفيه إلى منطقة «الزرارة» القاسية المناخ في عمان على الخليج.

وداعاً أرض كربلاء

بسطت السيدة زينب كفيها تحت جسد شقيقها ونظرت إلى السماء وقالت بأسى:

إلهي تقبل منا هذا القربان!

كان جسد الحسين بلا رأس وقد حمله رجل يدعى خولي وصل قصر الأمارة ليلاً فوجد الأبواب مغلقة فاتجه إلى داره خارج الكوفة على بعد ست كيلومترات.

قام خولي بإخفاء الرأس في «التنور» كان يعرف ان زوجته الأنصارية توالي أهل البيت لذلك لم يطلعها غير ان «العيوف» وهو اسم المرأة انتبهت إلى

أضواء وأنوار تسطع من داخل التنور وعندما اقتربت من التنور سمعت أصوات نسوة يندبن الحسين بصوت شجي، فتشاجرت مع زوجها وحطمت مكحلتها وقوارير العطر وغادرت الدار[1]!

سكينة التي وصفها الحسين للحسن المثنى: «بأن الاستغراق مع الله غالب عليها»[2] تعانق النحر الدامي فتسمع صوت أبيها ينبعث في قلبها شجياً:

شيعتي ما إن شربتم عذب ماء فاذكروني

أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني[3]

وعندما رأت السيدة زينب الحوراء ان ابن أخيها عليّا يكاد يموت لمشهد الشهداء وقد رضت سنابك الخيل الأجساد المضرجة بالدماء قالت له:

ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وأخوتي؟!

فوالله ان هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك! ولقد أخذ الله ميثاق أناس، لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة، فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره، ولا يمحى رسمه على كرور الليالي والأيام!

---

١. أنساب الاشراف البلاذري ج ٥: ٢٣٨.

٢. مقتل الحسين، عبد الرزاق المقرّم: ٢٧٧.

٣. مصباح الكفعمي: ٣٧٦، مقتل الحسين، عبد الرزاق المقرم: ٣٠٨.

وليجتهدن أئمة الكفر، وأشياع الضلال في محوه وطمسه؛ فلا يزداد أثره إلّا علوّاً[1].

ها أنا الآن أقف بين الحرمين؛ بين قبة أبي الفضل العباس وقبة الحسين!

أكاد أصغي إلى أصداء الواقعة في ذلك اليوم الخريفي؛ أجل على هذه الأرض التي كانت ذات يوم فلاة جرداء جرت أعظم ملحمة إنسانية في التاريخ على الإطلاق!

تلك قبة الحسين حيث تخفق فوق ذروتها راية الثورة؛ تلقي بظلالها فوق قبور الشهداء من أهل بيته وأنصاره!

وتلك منائر ضريح العباس تنهض شامخة قوية تتحدى التاريخ والأيام!

حتى كفيه المقطوعتين تستحيلان إلا مزارين تصافحان أيدي العاشقين وتقبلهما أفواه الملايين القادمين من كل حدب وصوب.

أجل ها أنا الآن أشعر بالغضب!!! سنابك خيل الطغاة تعبر فوق صدر الحسين اشعر بالألم لمشهد الزهراء تجلس عند مصرع ابنها الحسين!

اشعر بالضياع! وتنتهي الكلمات..

ويبقى يوم عاشوراء بلا نهاية.. ويبقى وإلى الأبد..

أطول يوم في تاريخ الإنسان..

---

١. مقتل الحسين عبد الرزاق المقرم: ٣٠٨ بالاستناد إلى كامل الزيارات: ٢٦١ باب ٨٨.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

السجود فوق أرض الحسين

جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال لعلي عليه السلام:

«يا علي أنت وصيي من بعدي وأنت المظلوم والمضطهد بعدي»[1].

وقد بلغت سياسة الإقصاء والتهميش للإمام علي عليه السلام حدّاً مهد الطريق أمام معاوية للاستيلاء على الخلافة بقوّة الحديد والنار ومن ثم تحويلها إلى نظام ملكي استبدادي راح يصبّ ظلمه على أهل البيت عليهم السلام وشجرة النبوّة صبّاً حتى بلغت المأساة ذروتها في واقعة عاشوراء.

من أجل ذلك نجد تركيزاً من أئمّة أهل البيت عليهم السلام على ضرورة إحياء هذه الذكرى المأساوية وترسيخها في ضمير الأجيال من أجل ضمان نقل هذه الصورة المظلمة وتوثيق تفاصيلها لتبقى شاهداً وإدانة لكل الطغاة الأمويون الذين يظهرون ويتعاقبون على اضطهاد الشعوب.

ان صدام التكريتي ليس سوى إعادة إنتاج للطاغية يزيد بن معاوية وهكذا بالنسبة للزرقاوي الذي يعد نسخة حديثة لشخصية البربهاري الذي فجّر ما عرف بفتنة الحنابلة في بغداد في سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م وستبقى دماء الحسين الضمانة الأكيدة على صورة الإسلام الحقيقية التي جاء بها جده صلى الله عليه وآله صورة ناصعة مشرقة نقية ومن أجل ذلك جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: حسين مني وأنا من حسين لقد فضحت عاشوراء كل خطط النظام الأموي في الانقضاض على الإسلام من خلال إفراغه من محتواه الحقيقي وتقديم نسخة

١. بحار الأنوار ج ٢٧: ٢٣.

مشوهة مثقلة بكل القيم الجاهلية والعنصرية واللاإنسانية!

اسمع يا أخي!

وسادت لحظات صمت عميق لم نكن نسمع سوى وقع خطانا قبل أن يفاجئني قائلاً:

ربما افترقنا في «السقيفة» وربما في «صفين» ولكني واثق تماماً بأننا سنلتقي ذات يوم في «كربلاء».

أتدري أنني أصغي كل عام إلى القصة الكاملة لمصرع سيدنا الحسين، بذلك الصوت الشجي الفريد صوت «الشيخ الكعبي»؟! ان مشهده أعني سيدنا الحسين على ناقته وهو يعظ الألوف يجسّد بكل وضوح انه يحمل رسالة جدّه.. ان هذا المشهد لا يمكن أنا ينسى:

بقيت مشدوهاً أصغي إليه وددت ألّا يتوقف عن الكلام، قال مستطرداً:

ان نداءاته ما تزال حيّة في ضمير الأجيال وسوف يصغي لها جيلنا وسليبيّ هذا الجيل أو الجيل الذي يليه نداء الحسين![1].

«يوم عاشوراء هو أطول يوم في التاريخ وفي ذلك اليوم ولد الضمير الإسلامي الذي سيوحّد الأمة الإسلامية من «طنجة» إلى «جاكارتا» وربّما إلى ما هو أبعد من ذلك»، يقول الدكتور احمد راسم نفيس في كتابه «على خطى الحسين»:

إننا نرى أن مهمة أبي عبد الله الحسين كانت بالغة الصعوبة فقوم نوح لا

١. اسمع يا أخي، أوفي الطريق إلى الميثاق، كمال السيد: ١٤٩-١٥٠.

يدّعون الإسلام أما اليزيديون فكانوا يدّعون الإسلام وما زالوا إلى يومنا هذا يدّعون أنهم أصحاب الفهم الصحيح للإسلام!!!

كيف يتأتى هذا وقد قتلوا ابن بنت نبيهم الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: حسين مني وأنا من حسين؛ أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط «رواه الترمذي وقال حديث حسن».

وهو الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله «فيما رواه أحمد»: «نظر النبي إلى علي والحسن والحسين وفاطمة» فقال: أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم، وفي رواية أخرى لأحمد: «من أحبهما فقد أحبني ومن ابغضهما فقد ابغضن».

إذا فالموقف الحسيني ميزان ومعيار يميز بين الحق والباطل وهذه حقيقة واضحة من خلال النصوص الكثيرة المتواترة في خصائص أهل بيت النبوة أو تلك الواردة في حق الحسين على سبيل الخصوص.

والذي زاد الأمر وضوحاً هو الدليل العملي الذي قدمه الحسين على صحة ما ورد في فضل أهل البيت عليهم السلام: فأين كان الآخرون من هذه الفتن التي هاجمت الأمة المسلمة ومن كل جانب؟ أين موقف الدفاع العملي عن قيم الإسلام؟

سؤال لا نجد له إجابة إلّا في تحرك الحسين؛ ذلك التحرك الذي كان مقدمة لكل الحركات الثورية في تاريخ الأمة الإسلامية.

والأمة الآن وهي تعيش لحظات حرجة في تاريخها في حاجة لاستلهام

هذه الروح الحسينية والاقتباس من نورها لعلنا نتمكن من إضاءة هذا الظلام الحالك.

إننا في أمس الحاجة لاستلهام ذلك النور الحسيني لإضاءة هذه الظلمات وتحديد طريق المسير، ظلمات فوقها فوق بعض، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[1].

ويقول في خاتمة الكتاب:

«والفرص لا تُمنح للأمم مئة مرّة ولا عشرين مرّة ولا عشر مرّات، ان الفرص التاريخية لا صلاح الأحوال والسير على نهج مستقيم لا تأتي إلّا قليلاً وهكذا ضاعت من هذه الأمة فرصة السير على نهج نبيها ثلاث مرّات؛ فرصة الإمام علي، ثم فرصة الإمام الحسن، ثم كانت فرصة الإمام الحسين هي القاصمة التي ما بعدها قاصمة، وكان لابد من انتظار طويل.

وأسدل ستار الليل في سماء هذه الأمة وهو ليل لن يجلوه إلّا ظهور قائم أهل البيت عليهم السلام الإمام الثاني عشر محمّد المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف»[2].

ويتحدث الشيخ محمد مرعي الإنطاكي عن ظروف اعتناقه مع أخيه مذهب أهل البيت عليهم السلام وبعد عودته من مصر ودراسته في الأزهر الشريف:

«وكنا في هذه المدّة نتذاكر في شأن الخلاف بين المذاهب الأربعة أنا

---

١. على خطى الحسين، أحمد راسم نفيس: ١١٧ ١١٨.

٢. المصدر السابق: ١٤٩.

وأخي الشيخ أحمد ونتعجب منه» ثم يورد جمله من التناقضات في تلك المذاهب في طليعتها:

«ويقول مالك بجواز أكل لحم الكلاب»[1].

«والشافعي يجيز أكل لحم الضبع والجرّي والثعلب»[2] ولا ندري كان في مذهبه القديم أم الجديد!

«أما ترى الشافعي نفسه قد ألف «مذهبه القديم» ونشره بين المسلمين في العراق والحجاز واليمن والشام، ثم ارتحل إلى مصر لأمر ما وخالط المغاربة وأخذ عنهم فعدل عن مذهبه القديم وألف مذهباً آخر أسماه «المذهب الجديد» حتى لم يبق من المذهب الأول إلّا مسائل!!!

أقول: فإن كان مذهبه الأول صحيحاً فلماذا أتى بالثاني وبالعكس؟![3]».

ويشدّ الإنطاكي الرحال مع شقيقه إلى الحجاز: «وكنا نسمع عن الوهابية بأنهم يقيمون الحدود ويجرون الأحكام الشرعية تماماً؛ فهاجرنا إلى الحجاز وتخللنا بينهم مدّة فوجدنا أن الأخبار التي وصلتنا من القطر الحجازي كانت خلاف الواقع، فإنهم اضرّ على الإسلام من كل شيء، وقد شوهوا سمعة الإسلام، بأعمالهم وأفعالهم وبسوء فتاوى علمائهم وبسوء صنيعهم بالعترة الطاهرة الأئمة الصالحين وغيرهم وذلك بهدم قبورهم.

١. مالك في كتابه المدونة الكبرى

٢. كتاب الأم، ج ٧، ص ١٥٥

٣. لماذا اخترت مذهب أهل البيت عليهم السلام، الشيخ محمد مرعي الإنطاكي: ٣٦.

ولعمري لقد أرادوا هدم ضريح النبي المقدس ﷺ فعارضهم كثير من المؤمنين من شرق الأرض وغربها فتركوه خوف الفتنة والإثارة!

انظر إلى غريب فتاواهم!

يقول الوهابي: إذا وضع الحاج أو أي شخص يده على القبر فهو مشرك!

وإذا قال القائل: يا رسول الله! فهو مشرك!! فإذا أصرّ على وضع يده فهو مباح الدم يجب قتله!».

«فماذا تقولون أيها المسلمون بهذا المذهب الحادث القذر؟!».

«لما رأينا ما رأينا منهم رجعنا إلى بلادنا وعدنا إلى ما كنا نمتهن من ذي قبل وطال بنا الحال فحتى متى يا رب! إذ لا نزال في ريب ممّا نراه من الخلاف الداعي إلى القلق والاضطراب والتشويش إلى ان حدثت أسباب دعت إلى الاتصال بالطائفة الشيعية»[1].

ويستعرض الأنطاكي مرتكزات العقيدة الإمامية الاثني عشرية وإيمانهم بالأئمة الاثني عشر من آل رسول الله ﷺ يتساءل: «فبالله عليك أيها القارئ المنصف الكريم المؤمن! أيقال لمثل هؤلاء: كفرة مشركون، مرتدون مهدوروا الدم»؟!

وينسب إليهم أنواع التهم الباطلة والافتراءات المفتعلة والأقاويل الكاذبة الشنيعة، كما أتى به ابن تيمية وابن حجر والقصيمي والحفناوي وموسى جار

١. المصدر السابق: ٤١.

الله وأحمد أمين والجبهاني وكالمجرم الشيخ نوح الذي أفتى بكفر الشيعة وقتلهم وسبي نسائهم ونهب أموالهم واسترقاق ذراريهم؟!

«وقد ختم فتواه الطويلة بقوله: تابوا أم لم يتوبوا؟!»[1]، ثم يورد الأنطاكي مجموعة من الأحاديث الشريفة دفعته إلى اعتناق المذهب الجعفري مذهب أهل البيت عليهم السلام.

«فلما أعلنا التشيع وانتشر هناك وفشا وأخذ الناس يدخلون فيه جماعات وأفراداً، فحينذاك تكتلت فئات ممن يناوئ مذهب أهل البيت عليهم السلام لجهلهم بمعرفة المذهب والمرء عدو ما جهل، لذلك أتوا بما أتوا من سوء الأفعال والمعاملة بحيث نستحي أن نذكره لقبحه وشناعته!

ولقد حكم علينا الكثيرون بالكفر والارتداد بسهامهم وقاموا يحرضون علينا سفهاءهم ويغرون صبيانهم فيؤذوننا بالكلام ويرموننا بالحجارة والحصى قائلين لنا: يا عبده (القرميدة)!!! ويعنون بذلك التربة الحسينية»[2].

---

١. المصدر نفسه: ٤٥.

٢. المصدر نفسه: ٥٨.

ويختتم الأنطاكي كتابه بهذه الأبيات قائلاً:

لماذا اخترت مذهب آل طه وحاربت الأقارب في ولاها
وعفت ديار آبائي وأهلي وعيشاً كان ممتلئاً رفاها
لأني قد رأيت الحق نصاً ورب البيت لم يألف سواها
بالاستمساك بالثقلين حازت بأولاها وأخراها نجاها
وصارت أعظم المخلوق قدراً وأورثها الولا عزّاً وجاها
ولا أصغي لعذل بعد علمي بأن الله للحق اصطفاها
ولا أهتم في الدنيا لأمر إذا ما النفس وافاها هداها
فمذهبي التشيع وهو فخر لمن رام الحقيقة وامتطاها
وفرعي من علي وهو درّ صفا والدهر فيه قد تباهى
وهل ينجو بيوم الحشر فرد مشى في غير مذهب آل طه ؟!

أخيراً أشرقت الروح

تقول السيدة لمياء حمادة:

«قصتي مع التشيع بدأت عندما كنت طالبة في المرحلة الثانية بكلية الشريعة، وكنت أتساءل لماذا هذا الاختلاف في المذاهب؟»[1].

١. أخيراً أشرقت الروح، لمياء حمادة: ٨.

«أثناء دراستي في الجامعة دخلت علينا طالبة جديدة وكانت عراقية وقد تهجرت من بلادها مع ذويها إلى بلدنا طلباً للأمان».

اسمها بتول تجلس في المقعد الأخير في القاعة، ودائماً تلبس العباءة السوداء والخمار يغطي رأسها حتى ذقنها.. تيقنا إنها شيعية، وكثيراً ما كنا نتحرش بها قاصدين السخرية والاستهزاء بها لأنها حسب اعتقادنا ومعلوماتنا الخاطئة أنها ومن يتبع هذا المذهب غير مسلمين فهم يعبدون علي بن أبي طالب والمعتدلون منهم فقط يعبدون الله ولكنهم لا يؤمنون برسالة محمّد صلى الله عليه وآله ويشتمون جبرائيل ويقولون بأنه خان الأمانة فبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أداها إلى محمّد، وأنهم ينزلون أئمتهم منزلة الآلهة! وأنهم يسجدون للقرص الحجري من دون الله! و..

ومع كل هذا التقريع وهذه السخرية والأخت بتول لا ترد علينا وتقول في كلّ مرّة سامحكم الله! هداكم الله! ليتكم تعلمون الحق! استغفر الله لي ولكم!

وهكذا إلى أن جاء يوم من الأيام وهو بالنسبة لي يوم التحول الكبير جئت في هذا اليوم متأخرة عن موعد المحاضرة فلم أجد مكاناً إلّا إلى جانب هذه الفتاة بتول، وكنت قبلاً لا أجلس إلى جانبها أبداً.

وجلست وأنا مستاءة منها نوعاً ما ثم قلت في نفسي ومالي ومالها كل واحدة منا في حالها!

وبالصدفة كانت المحاضرة يومذاك عن المذهب الشيعي وبدأت المحاضرة وكلنا مغصون إلى ما يقال عن ذلك المذهب وبتول تندهش

وتندهش من كل ما يقال وتتمتم إثناء المحاضرة بأن لعنه الله على الظالمين .. سامحكم الله.. أذناب بني أمية.. اتباع معاوية.. وهكذا إلى أن انتهت المحاضرة وبتول تكاد تنفجر من الغيظ!

فقلت لها: لماذا أنت مغناطه ومتضايقة؟ أليس ما قاله الدكتور عنكم صحيحاً؟!

فابتسمت بتول عندها وقالت: إذا كان الأستاذ يفكر بهذا الشكل فلا لوم على الطلاب وإذا كان تفكير الطلاب هكذا فلا لوم على عامة الناس الذين لا ثقافة لهم.

قلت: ماذا تقصدين!

أجابت: عفواً ولكن من أين لكم هذا الادعاءات الكاذبة؟! قلت: من كتب التاريخ، ومما هو مشهور عند الناس كافة! قالت: هل عندك الوقت للمناقشة!

ترددت قليلاً ثم أجبت: ربما بعض الوقت. وأخذنا نتمشى إلى الكافتيريا فطلبت القهوة وجلسنا نتحدث.

قالت: لنترك الناس كافة الذين يعتمدون على الصحاح بالدرجة الأولى، ولكن أنت هل قرأت شيئاً من الكتب عنا؟!

قلت: نعم مثل ظهر الإسلام وفجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين وغيرها كتب كثيرة.

قالت: ومتى كان احمد أمين حجة على الشيعة؟ أليس عليكم أن تتبينوا

الأمر من مصادره الأصلية المعروفة!

قلت: وكيف لنا أن نتبين في أمر كهذا؟ قالت: ان أحمد أمين نفسه زار العراق وقد التقى بأساتذة عدة في النجف وعاتبوه على كتاباته عن الشيعة، فاعتذر قائلاً: إني لا أعلم عنكم شيئاً ولم أتصل بالشيعة من قبل وهذه أول مرّة ألتقي بالشيعة؟ فقيل له: اذن لم تكتب عنا القبيح؟

قال: هكذا ورثنا عن الناس نظرتهم إليكم! وتابعت: أرأيت هذا الافتراء؟ وهكذا خذي كل ما يقال عنا على هذا المنوال فهو أكاذيب مغرضة حاقدة.

قلت دعينا من أحمد أمين هذا وأخبريني عن حقائق عديدة تقال عنكم!

فقاطعتني قائلة: إذا كنت تريدين تمضية الوقت والكلام لمجرد الكلام فأنا آسفة والأفضل أن اذهب وأما إذا أردت الاستفادة حقاً والتأكد من مظلوميتنا فلك ما تريدين ووقتي لك كله.

قلت: لا والله معاذ الله أن أتكلم معك لمجرد الكلام ولكني أحببتك فعلاً وأحسست أنك مظلومة وعندك حجج كثيرة أردتي قولها ولكنك لم تجرئي فلم يا ترى؟! قالت: الكلام مع هؤلاء الناس كعدمه، وربما جرّتنا المناقشة أن أضع من شأن مذهبي وديني من جرّاء مناقشتي مع جهال كهؤلاء؛ فقد قال الإمام علي عليه السلام: ناقشت جاهلهم فغلبني وناقشت عالمهم فغلبته؛ قلت: فلنبدأ فقاطعتني وقالت: (صلي على محمّد وآل محمّد)! فتعجبت وقلت في نفسي هؤلاء الذين نتهمهم نحن بالخروج عن الدين يحافظون عليه أكثر منا! «قلت تابعي»!

قلت لها: لأي المذاهب ينتمي مذهبكم؟ قالت: المذهب الجعفري عليه السلام.

وراحت بتول تشرح لها ان أئمة مذاهب أهل السنة أخذوا عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام؛ تنتمي لمياء إلى المذهب الحنفي فأخبرتها بتول ان أبا حنيفة النعمان له جملة مشهورة هي: لو لا السنتان لهلك النعمان!

وأن الإمام الصادق عليه السلام هو أو من فتح جامعة إسلامية في مسجد جدّه النبي صلى الله عليه وآله وقد تتلمذ على يديه أربعة آلاف محدث.

«قالت: كيف تقلّدين إنساناً مات منذ قرون؟!.. فقلت بسرعة البديهة: وأنت أمامك ميت فكيف تقلدينه؟!».

قالت: ان إمامي حي غائب وفي غيبته نقلد أحد المجتهدين الورعين ولا يجوز عندنا تقليد الميت.

وأخبرتني عندها كيف على الإنسان أن يعرف إمام زمانه فقد قال صلى الله عليه وآله من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميته جاهلية[1].

قلت: حدثيني عن قرص الطين الذي تسجدون عليه (التربة الحسينية)!!..

«بعد ثلاثة أيام جاءتني بكثير من الكتب وقالت: سآتي في الأسبوع القادم لآخذك معي لحضور «عاشوراء» فترددت قليلاً في قبول الدعوة ثم قبلت وأنا حيرانة وقلت: حسناً كما تريدين».

«انكببت على الكتب ليل نهار وأنا أقرؤها من الجلدة إلى الجلدة كما

١. أخيراً أشرقت الروح: ١٣.

يقولون».

استهواني تحليل كل كاتب منهم للقضايا العالقة بين السنة والشيعة وفاجأني الكل بقصّة لم اسمعها من قبل؛ «رزية يوم الخميس» إنها فضيحة لا تصدّق!!!

«ولكن عندما ذيل الكاتب الصفحة بأنها من كتب السنة: صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير.. فخطر لي أن ابحث عن تلك الصفحات في الصحاح لأتأكد وتمنيت أني لو لم أجدها! لكن»[1].

ووجدت أحاديث كثيرة في حق أهل البيت عليهم السلام كقوله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ العرض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2].

وقوله صلى الله عليه وآله: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»[3].

«آه واآسفاه على ماضٍ كنت فيه مغمضة العينين!». وفي اليوم الذي

---

١. المصدر السابق: ١٧.

٢. سنن الترمذي كتاب المناقب؛ مستدرك الحاكم ج ٣: ١٤٨؛ صحيح مسلم، باب فضائل علي بن أبي طالب.

٣. مستدرك الحاكم ج ٣،: ١٥١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وعدتني به صديقتي بتول أتت وقد بدا عليها الحزن قليلاً!!

فقلت لم يا صديقتي هذا الحزن؟

قالت انه يوم عاشوراء وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: انه علينا ألا نبتسم في هذا اليوم ففيه قتل الحسين عليه السلام وكانت هذه مصيبة على الأمة الإسلامية كلها.

فقلت: لعن الله أعداء الإسلام وعجل فرجك أيها الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، لتملأ هذه الدنيا قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجورا.

فاستغربت صديقتي وقالت: أتهزئين؟!!!

قلت: حاشى وكلا؟!!!

وقبلتها بين عينيها وقلت: أشكرك! أشكرك يا بتول على هذه الهدية، فلقد أنقذتيني من ظلام وجهل كنت أعيشه ونقلتيني إلى النور والعلم والعقائد الصحيحة إلى أئمة الهدى أحفاد رسول الله صلى الله عليه وآله فهل من مزيد من هذه الكتب!

فقالت: إذا كنت قد اكتفيت وصار عندك يقين تام فسأعطيك بعض كتبنا من المؤلفين الشيعة!

فقلت: «أتمنى هذا ودعينا الآن نذهب لحضور عاشوراء!».

رأيت الناس في بكاء وعويل وكان الحسين عليه السلام قد استشهد لتوّه، فبكيت معهم وعشت لحظاتهم المباركة الحزينة، وأحسست بانجلاء الكروب عن

نفسي وتنفست الصعداء.

وهكذا كانت مسيرة حياتي مع التشيع بدأتها بشك بيني وبين نفسي عن اختلاف المذاهب وأنهيتها بإعلان التشيع والتمسك بالمذهب الحق مذهب أهل البيت عليهم السلام.

«فسلام عليكم يوم ولدتم ويوم استشهدتم ويوم تبعثون، وخاسر خاسر من لا يعرفكم ولا يعرف قدركم، لقد وجدت في أحاديثكم وادعيتكم كنزاً لا يفنى»[1]، ان نهضة عاشوراء بكل زخمها الأخلاقي والرسالي تشكل فضحاً لبني أمية الشجرة الملعونة في القرآن وسيبقى الحسين كما قال جدّه الأكرم صلى الله عليه وآله: «مصباح الهدى وسفينة النجاة».

يقول اسعد وحيد القاسم: «هذه الحرب الغير متكافئة بين الحسين والأمويين كانت لها أسباب ودوافع معنوية أخرى لا يمكن فهمها أو تحليلها بالمنظار السياسي المتعارف»[2].

ان ما حصل في صدر الإسلام من خلاف حول خلافة النبي صلى الله عليه وآله وإمامة الأمة بعده «مجرد خلاف سياسي بين أشخاص تنافسوا على الوصول للسلطة والحكم ولم يكن مجرد فتنة وقتية حدثت بين الصحابة وانتهت برحيلهم، وإنّما كان فوق كل ذلك خلافاً حول المسار الذي ينبغي على المسلمين

---

١. المصدر السابق: ٢٠.

٢. أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة،: ١٣٣.

اتباعه في تحصيل معارف الدين من عقائد وسنن وأحكام»[1]، انه صراع الخطط والإرادات.

لقد كان واضحاً أن التخطيط الإلهي ببعثة سيدنا محمد ﷺ كان يهدف إلى تبليغ الرسالة ليس إلّا ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ فقال جل وعلا بعد نجاح المهمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾، وأما التخطيط الإلهي بحصر خلافة النبي ﷺ، فقد كان يهدف إلى إتمام نور الرسالة على يد هؤلاء الأئمة الذين خصتهم العناية الإلهية بالتسديد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

فلم يكن دور الأئمة حسب هذا التخطيط حفظ الرسالة وصيانتها من التحريف والتشويه فحسب ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، بل أيضاً تعليمها وإرشاد الناس إليها على مرّ العصور ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، على أن يكون ذلك بخطوات تدريجية تمهيداً لإتمام النور الإلهي في جميع أركان الأرض في عهد الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف والذي ستكون خلافته تتويجاً لجميع رسالات السماء وتحقيقاً لأهداف الرسل والأنبياء[3].

«ولا يمكننا فهم أبعاد هذا التخطيط عن جريانه الطبيعي كما حصل فعلاً

---

١. المصدر نفسه: ٣٢٣.

٢. الأحزاب: ٣٣.

٣. أزمة الخلافة والإمامة: ٣٢٥.

بتهميش دور الأئمة عليهم السلام إلّا بفهم القوانين والسنن التي جعلها الله سبحانه وتعالى المبدأ الأساس الذي يحكم العلاقة بين الهداية الربانية وحرّية إرادة الإنسان واختياره ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، فالتخطيط الإلهي من إرسال الأنبياء إلى بني إسرائيل على سبيل المثال لم يكن يهدف إلى قتل هؤلاء الأنبياء وإنّما لاهتداء الناس بهم، فأما قتلهم فقد كان ناتجاً عن تخطيط بشري أدى إلى انتصار إرادة الباطل، فكان جواب الأنبياء والدعاة إلى الحق للمعاندين والكارهين للهداية على مرّ العصور: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وهذه القوانين والسنن هي تفسر سياسة الأئمة الاثني عشر»[2].

«فثورة الحسين كانت لإنقاذ الإسلام ولم تكن محصورة الغاية بذلك الزمان.. وهكذا كانت سيرة من تلا الحسين من الأئمة عليهم السلام مرهونة بالظروف والمستجدات، فالأدوار تتنوع والهدف واحد.

ولأن غالبية هؤلاء الأئمة قد لاقوا التعذيب والقتل على أيدي الأنظمة القائمة، فانه وبمجيء آخرهم كان يعني استمرار هذا المسلسل الإجرامي بحقهم فكانت غيبة الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف تجسيداً لانتصار الإرادة البشرية الرافضة للهداية الإلهية من جهة ومؤشراً على تأجيل تنفيذ الخطة الإلهية إلى

---

١. الرعد: ١١.

٢. المصدر نفسه.

الوقت الـذي يغير فيه الناس من نظراتهم ومواقفهم تجـاه إمام زمانهم فيبحثوا عنـه بصـدق ويوالونـه بمعرفـة وإخلاص، عندئـذ يظهـره الله سـبحانه وتعـالى تأييـداً لهم. وبهـذا المعنى يكون الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو الذي ينتظر الناس وليس العكس!»[1].

فجر الضمير

يقول سعيد أيوب:

فـي آخـر الزمان يلتقـي ابن علي بـن أبي طالب مع ابن مريـم أخت هارون، يلتقـي آخـر أهـل البيـت عليهم السلام فـي المسـيرة الإسلامية مـع المسـيح عيسى بن مريـم آخـر نبـي فـي المسـيرة الإسـرائيلية، وكلاهما ظلمته مسـيرة قومـه، ولكن للعـدل رداء عـلى الوجود كله، ومن حكمة الله تعالى أن لا تنهدم الدنيا قبل أن يهيمن العدل على المسيرة البشرية ليعلم الناس وهم تحت سقف الامتحان والابـتلاء، أن الحـق يقف في النهاية لأنه أصيل فـي الوجود، أما الباطل فطارئ لا أصالة فيه، الباطل زبد لا يمكث في الأرض، والباطل يطارده الله على امتداد المسـيرة البشريـة ولإبقاء لشـيء يطارده الله. قـال تعـالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ

---

١. المصدر نفسه: ٣٢٧.

٢. يوسف: ٢١.

كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[1][2].

ابن تيمية وأهل البيت

يقول صائب عبد الحميد:

«إن لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله منزلة عظمى أثبتها القرآن وأثبتها الرسول صلى الله عليه وآله وأيقن بها المسلمون ولم يمار فيها إلّا من كان في قلبه مرض».

«والسؤال كيف كانت عقيدته فيهم وكيف كان موقفه الدائم منهم؟ لقد كشف ابن تيمية عن عقيدته في أهل البيت عليهم السلام وموقفه منهم بكل صراحة وبوضوح لا غبار عليه ويمكن إجمال ذلك بالنقاط التالية:

أ- الميل إلى جانب أعدائهم على الدوام.

لقد كان ابن تيمية صريحاً في ميله إلى جانب أعداء أهل البيت ودفاعه عنهم بكل ما يمتلك من قدرة على الجدل.. يكذّب لأجلهم أحاديث الرسول وأئمة السلف من الصحابة والتابعين، ويكذّب لأجلهم حقائق التاريخ».

صنف كتاباً أسماه (فضائل معاوية وفي يزيد وأنه لا يسب) هذا مع ان الذي ثبت عن السلف إنه لم يصح في فضائل معاوية ولا حديث واحد[3].

وثبت ذلك عن النسائي صاحب السنن الذي طلب منه أهل دمشق أن

---

١. السجدة: ٢٨-٣٠.

٢. ابتلاءات الأمم: ٣٧٢.

٣. سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ١٣٢

يكتب في فضائل معاوية فقال: ما اعرف له فضيلة إلا: «لا أشبع الله بطنه»[1][2].

«أما في يزيد فقد رأينا كيف زور ابن تيمية حديث الإمام أحمد وبتره لأجل أن يمنع من لعنه!».

«ثم زور كل ما ثبت من حقائق التاريخ وكلام السلف فيه وافترى عليهم كثيراً لأجل أن يختلق عذراً ليزيد».

قال ابن تيمية: ويزيد لم يسب للحسين حريماً بل أكرم أهل بيته!![3].

فهل اعتمد في كلامه هذا على نقل من أحد سواء من الثقات أو من غيرهم؟

كلا أبداً، إنّما أطلقها حمية ليزيد[4].

يقول ابن تيمية بالحرف الواحد: ان فكرة تقديم آل الرسول هي من أثر الجاهلية في تقديم أهل البيت الرؤساء!!![5].

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

مع اليزيدية

إن لابن تيمية مع هذه الطائفة من الغلاة كلاماً يثير الكثير من الشكوك ويضع العديد من علامات الاستفهام حول عقيدته.

---

١. سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ١٢٥

٢. ابن تيمية في صورته الحقيقية: ٢٥.

٣. منهاج السنة، ج ٢، ص ٢٢٦

٤. المصدر نفسه: ٢٨.

٥. منهاج السنة: ٣، ٢٦٩.

من هذه الطائفة قوم غلوا بيزيد بن معاوية وبالشيخ عدي بن مسافر الأموي، فانضافوا إلى فرق الغلاة التي اجمع المسلمون على كفرها وخروجها من الإسلام لأنها أضافت إلى البشر صفات الإله جل جلاله وهذه الفرقة التي غلت بيزيد وعدي بن مسافر عرفت بالعدوية نسبة إلى عدي بن مسافر.

لقد عاصر ابن تيمية هذه الطائفة فكتب إليهم كتاباً استهله بكلام لا يشبه شيئاً من كلامه في مخالفيه وخاصة من أصحاب الفرق الأخرى وأهل البدع الظاهرة أو حتى الذين عدهم هو من أهل البدع.

لقد استهل كتابه بقوله:

«من أحمد بن تيمية إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة والمنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة أبي البركات عدي بن مسافر الأموي ومن نحى نحوهم، وفقهم الله لسلوك سبيله..

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته!!![1] هكذا مع علمه بأنهم من الغلاة»[2].

أقوال العلماء فيه

بعدما رأيت عقائده لم يعد غريباً عليك ما تراه من فتاوى علماء المسلمين فيه بناءً على تلك الأقوال والعقائد ولقد صنف الحافظ ابن حجر العسقلاني

١. الوصية الكبرى لابن تيمية، ص ٥

٢. ابن تيمية في صورته الحقيقية: ٤٣.

هذه الفتاوى فقال: افترق الناس فيه شيعاً:

فمنهم من نسبه إلى التجسيم لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك، كقوله: إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية وانه مستوٍ على العرش بذاته.

ومنهم من ينسبه إلى الزندقة لقوله: ان النبي صلى الله عليه وآله لا يستعان به[1].

ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي: انه كان مخذولاً حيثما توجه وانه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، وانه قاتل للرئاسة لا للديانة!

وأجمل القول فيه ابن حجر في الفتاوى الحديثية فقال: ابن تيمية عبد خذله الله وأضله وأعماه واحمه وأذله[2]. هذه هي خلاصة القول في هذا الرجل الذي وجدت فيه البدعة الوهابية قدوة لها، فتمسكت بكل ما شذ وانحرف من أفكاره، ثم زادت فوق ذلك شذوذاً وانحرافاً..

الرجل الذي أخذ يروج له بعض دعاة السلفية فاحتالوا لذلك بأن ستروا قبائح أفكاره وعقائده الضالة وانحرافاته فهم لا يعرجون على شتى منها بذكر رغم إنها تشغل أكثر من ثلاثة أرباع ما كتبه من كتب ورسائل[3].

---

١. واستناداً لهذه العقيدة قال ابن عبد الوهاب ان النبي مجرد طارش أي ساعي بريد أدى رسالته ومات وانتهى وأنا انتفع بعصاي أكثر منه!!!

٢. المصدر نفسه: ٤٨.

٣. المصدر نفسه: ٥٣.

﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

الانحرافات الكبرى

يقول سعيد أيوب:

يخطئ من يظن أن تاريخ المسلمين قد ابتلع تاريخ الإسلام. فللإسلام طائفة تعمل على امتداد التاريخ وهذه الطائفة لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله. ولقد أفاضت الروايات في طائفة منها «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم»[2].

ويخطئ من يظن أن تاريخ المسلمين دُوّن كله في دروب الانحراف، فالمسلمون هم وحدهم الذين يعرفون معنى الطهارة والشرف، وغيرهم لا يقيم لهذه الأمور وزناً ودائرة الاختلاف عند المسلمين منحصرة في القيادة لا غير. فكل طائفة ترى أن قيادتها حق وكل طائفة تدعم أقوالها بما لديها من حجج. ورغم الجدل الدائر حول من الأحق بكرسي الخلافة أو بكرسي الوعظ والإرشاد، إلّا ان المسلمين في العبادات يلتحفون بلحاف واحد، لا يظهر فيه الاختلافات التي من المفروض أن تكون بين المذاهب وعالم المسلمين اليوم بعد انهيار النظم الوضعية تعدى دائرة الخلاف التي تنحصر فيمن الأحق بالقيادة واتجه إلى فقه الشعار الذي يحتضن فقه الشعور ولا يسير إلّا به، وذلك بعد أن تبين المسلمون حقيقة المخاطر التي تحيط بهم على مستوى النظام

١. البقرة: ٩ .

٢. رواه أحمد وقال الهيثمي رواه البزاز والطبراني ورجاله ثقات (الزوائد ٧ / ٢٨٧).

الدولي.

باختصار بدأ المخلصون في العالم الإسلامي في العمل على رقعة واحدة. ونحن نأمل أن تكون هذه البداية مقدمة لوحدة اقتصادية وتربوية وعسكرية تمهد الطريق ليوم الانتصار، يوم يجتمع أصحاب طريق الطمس والقهقري تحت راية المسيح الدجال ذلك الشر المخبوء، الذي من عدل الله جعل أمامه خيراً مخبوءً يحمل رايته المهدي المنتظر، وهو من ولد فاطمة، كما ذكرت الأحاديث والمهدي يأتي سيمثل تاريخ الإسلام الذي يحتوي على مخزون الفطرة النقية، أما الدجال فإنه سيمثل تاريخ الناس في عالم الانحراف والإغواء.

وهناك من ينكر وجود المهدي وفقاً لأطروحة الانحراف وهذا الاعتقاد لا يستند إلّا على تاريخ الناس وتاريخ الناس عندنا يخضع للنقد، لأننا لا نعبد الرجال، أما تاريخ الإسلام، فانتظروا، فغداً سترفع راياته من جديد، وستكون راياته آخر الزمان عنواناً للفطرة النقية في عالم مملوء بالرجس والدنس والعار ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

الخدعة

يقول صالح الورداني:

«كان البحث عن حقيقة الإسلام وسط ركام من الأقوال والفتاوى والأحاديث

١. الانحرافات الكبرى: ٤٩٨-٤٩٩.

وأحداث التاريخ أمراً شاقاً وعسيراً، فمنذ أن توفي رسول الله ﷺ وحتى اليوم علقت بالإسلام الكثير والكثير من الشوائب التي غطت على معالمه وموهت على حقيقته وقضت على ملامحه حتى انه تحول إلى إسلام آخر غير ذاك الإسلام الذي ورثه الرسول للأمة، وبدا وكأن الأمر يحتاج إلى رسول جديد لبعث الإسلام مرّة أخرى!

هذا ما توصلت إليه من خلال بحثي وقراءاتي وتجاربي الطويلة في دائرة الواقع الإسلامي بمصر والتي استمرت أكثر من عشرين عاماً»[1].

«كنت أغوص في التراث وأنا احمل بين جنبي رهبة وقدسية لرموز السلف بداية من الصحابة ونهاية بالفقهاء».

«لكنني عندما تحررت من وهم القداسة بفضل الله وعونه وجدت الطريق مفتوحاً أمامي للوصول إلى حقيقة الإسلام».

اكتشفت الحقيقة وخرجت من دائرة الوهم إلى دائرة الحقيقة عندما تتبعت مسيرة الإسلام من بعد الرسول ﷺ واعدت قراءته من جديد؛ واستراحت نفسي من بعد سنوات طويلة من التيه والحيرة عندما وقع بصري على الطرف المغيب من تاريخ الإسلام وواقع المسلمين واستقرت قدماي على الطريق.

وتبددت الغشاوة فور أن سطع أمامي نور أهل البيت وظهرت لي معالم الصراط المستقيم[2].

---

١. الخدعة، رحلتي من السنة إلى الشيعة: ٤.

٢. المصدر نفسه: ١٢.

«أكثر من خمسة عشر عاماً قضيتها في دائرة الحركة الإسلامية في مصر بداية من فترة السبعينات ونهاية بفترة الثمانينات، ومن خلال هذه الفترة عايشت ظهور تيارات ونهاية تيارات». «كانت هناك محاولات لاستقطابي من قبل تيار الإخوان وتيار التكفير وتيار الجهاد.. وكنت دائم النقد لها».

«لم أكن مستريحاً لأطروحة الماضي التي تتبناها وتقيم على أساسها تصوراتها ومناهجها»[1]. «كان الواقع الإسلامي في مصر أوائل السبعينات تسيطر عليه الجمعيات الأهلية والطرق الصوفية وهما الخطان الباقيان من العهد الناصري».

«من بين الجمعيات التي جذبت القطاع الأكبر من الشباب المسلم آنذاك جماعة أنصار السنة المحمدية والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية إلّا ان جاذبية الأولى اكبر بسبب تبنيها فكرة الحاكمية والتوحيد، بينما كانت الثانية تركز على العبادات ولا تهتم بالسياسة». «وجماعة أنصار السنة هي التي قامت بالدور الرئيسي في نقل الفكر الوهابي إلى صفوف الشباب». «عندما اصدر السادات قراره بتفريغ المعتقلات خرجت منه ثلاث تيارات انتقلت على الفور إلى أرض الواقع.. تيار الإخوان وتيار التكفير والتيار القطبي».

سيطر الإخوان على الجامعة ونافسهم التكفير والتزم القطبي السرّية «برز تيار رابع من خلال الفكر الوهابي الذي كانت تبثه جماعة أنصار السنة.. كان

---

١. المصدر نفسه.

يعتمد على عدد من دور النشر المصرية تقوم بطبع ونشر كتب ابن تيمية وابن عبد الوهاب وتوزيعها مجاناً في جميع أنحاء مصر». وهذا التيار اصطدم بهذه التيارات الثلاثة ونابذها العداء (خرج من تحت عباءة الإخوان أيضاً).

تراجع تيار التكفير بعد اغتيال وزير الأوقاف (الدكتور الذهبي) وحكم على مؤسسه (شكري مصطفى) واثنين من معاونيه بالإعدام.

«في عام ١٩٧٤ برزت أول طليعة جهادية في مصر بقيادة صالح سرية واصطدمت بنظام الحكم فيما عرف بحركة الفنية العسكرية وكانت تلك الحركة هي النبتة التي نما على أساسها تيار الجهاد». كان التيار الإسلامي الحكومي (الأزهر) منبوذاً من الجميع وعجز عن اختراق صفوف الشباب، ممّا دفع بالسادات إلى الاعتماد على الإخوان لمواجهة التيارات الإسلامية المتشددة والتيارات السياسية الأخرى التي تناصبه العداء.

«احتدم الصراع بين هذه التيارات»، أفراد التيار السلفي والتيار الجهادي يعتدون على المخالفين له والمنشقين عنه.

إضافة إلى «الصدامات التي كانت تقع بين عناصر التيار الناصري والتيار الماركسي.. وعناصر التيار الإسلامي». وكانا يتهمانه بالعمالة للحكومة[1].

وهو يتهمهما بالكفر والإلحاد؛ كل التيارات الإسلامية كانت تقدس الماضي ورجاله وترفض العقل «والتيار الوحيد الذي خاض في الماضي ونقد رجاله هو تيار التكفير الذي كان يرفض أية مقولة تصطدم بالنصوص

١. المصدر نفسه: ١٤.

حتى انه تجرأ على عمر وهاجمه بسبب اجتهاده على النصوص»[1]. «كانت التيارات الإسلامية، وباستثناء تيار الإخوان يقودها شباب لا خبرة لهم ولا علم وتكاد تنحصر محصلته العلمية في محيط كتب معدودة محدودة بحدود الفكر الوهابي. والملفت للنظر أن هؤلاء الشباب كما تبنوا الطرح الوهابي تبنوا أيضاً الخلق الوهابي والذي يتمثل في الغلظة واستحلال الخصوم».

الصدامات التي كانت تقع بين هذه التيارات تتجاوز حدود الأخلاق بصورة تجعل المشاهد يحكم على أن هذا الصراع إنّما هو بين فرقتين جاهليتين لا صلة لهما بالإسلام وعندما كنت رهن الاعتقال في الفترة من عام ١٩٨١ ١٩٨٤ م لم استطع تحمل خلافات عناصر هذه التيارات وسلوكياتها المنحطة ومعاركها التي لا تنتهي ممّا دفعني إلى الاستقلال عنهم في حجرة وحدي تارة ومع العناصر الجنائية المحكوم عليها في قضايا إجرامية تارة أخرى. ومع الأسف كنت اجد راحتي وسط هؤلاء ولم اكن أجدها وسط عناصر التيارات الإسلامية ممّا دفع بهم إلى النقمة علي، خاصة أنهم كانوا ينظرون إلى هؤلاء المساجين نظرة ازدراء واحتقار نابعة من عقيدة الاستعلاء على الجماهير.

ولقد كانت عقدة الاستعلاء هذه من اخطر الأمور التي أدت إلى عزل الحركة الإسلامية عن الجماهير وعن الواقع بأكمله[2]. «كنت استيقظ وكذلك السجن بأكمله كل صباح على صوت المعارك الضارية بين أنصار عمر عبد

١. المصدر نفسه.

٢. المصدر نفسه: ١٥.

الرحمـن وأنصـار عبود الزمر؛ الأول يتعصب له أبنـاء الصعيد والثاني يتعصب لـه أبناء الوجه البحـري، تلك المعارك التي كانت تسـتخدم فيها كل الأدوات الممكنة والمتاحة من قطع الأخشاب التي كانوا ينتزعونها من شبابيك الغرف إلى المواسـير التـي كانـوا ينتزعونها مـن دورات المياه بالإضافة إلى اسـتخدام أقبح الألفاظ.

و إذا كان هذا السلوك يحدث بين أبناء التيار الواحد وهو تيار الجهاد فماذا من الممكن أن يحدث بين عناصر التيارات المختلفة».

ان مثل هذه الحوادث كانت تدفع بي إلى التسـاؤل هل مثل هذه المواقف يعود سببها إلى الأخلاق وحدها؟

لقـد تبين لي بعد فترة تأمل أن المسـألة ليسـت مسـألة أخلاق و إنّما هناك دوافـع فكريـة وعقائديـة تقـف مـن وراء هـذا الخلـق السـيء، دوافـع تنبـع من الأطروحة التي تتبناها هذه التيارات وتبرر لهذه العناصر مثل هذه الأخلاق.

وأثنـاء قراءاتي التاريخيـة لفتت نظري ظاهرة الخـوارج ومواقفهم وصفاتهم، وكـم كانـت دهشـتي عندمـا تبيـن لـي أن مواقـف وصفـات هـؤلاء العناصـر وأخلاقهم هي نفس مواقف وصفات وأخلاق الخوارج الذين وردت النصوص بذمهم وتحذير الأمة منهم.

والخـوارج إنّمـا كان تصورهـم وأطروحاتهـم هـي التـي تـبرّر لهم هـذا الخلق والسـلوك السـيئ المعـوج، وكذلك عناصر هـذه التيارات والخـوارج إنّما كانوا يتميزون بالغلظة وقسوة القلوب وهذه صفة عناصر هذه التيارات.

والخوارج إنّما كانت سيوفهم مسلطة على المسلمين يستحلون دماءهم وأموالهم كذلك عناصر هذه التيارات.

وتفسير هذه الظاهرة على هذا النحو إنّما يؤكده التيار الوهابي الذي ارتدت منه هذه التيارات، فالتيار الوهابي قام على أكتاف قوم غلاظ متحجرّين أورثوا الغلظة والتحجر لإتباعهم؛ فكانوا بهذا نموذجاً معاصراً للخوارج الذين انشقوا عن الإمام علي.

والتيار الوهابي يحكم بالشرك والاستحلال على المخالفين له من المسلمين وقد أورث التيارات الإسلامية هذه النزعة.

والتيار الوهابي يعتقد انه رافع راية التوحيد وممثل الإسلام في الأرض وقد أورث التيارات الإسلامية هذا الاعتقاد الذي نبعت منه عقدة الاستعلاء.

وهكذا كانت الأخلاق أحد العوامل التي دفعت بي إلى إعادة النظر في أطروحة التيارات الإسلامية وكانت واحدة من المنبهات التي نبهتني إلى اثني لا أسير في الطريق الصحيح[1].

كانت لي علاقات كثيرة بالطلبة العرب المقيمين في مصر لغرض الدراسة وكان بينهم عدد من الشيعة العراقيين.. سرت الشائعات تقول إنني أقوم بدور الوساطة بينهم مع عائلات مصرية بغرض زواج المتعة!!!

استفدت كثيراً من تلك العلاقات في التعرف على فكر الشيعة عن قرب

---

١. المصدر نفسه: ١٧.

وأمكن لي أن أقوم برحلة إلى العراق بدعوة من صديق لي تعرفت عليه في مصر وكان على درجة كبيرة من الثقافة ويقوم بتحضير دراسات علياً في القاهرة وذلك ١٩٧٧ وهو الدكتور علي القرش.

وفي العراق استضافتني عائلته مدّة طويلة استمرت أكثر من عشرين يوماً؛ وكانت عائلة كريمة تتكون من أب وأم وثلاثة أشقاء غير صديقي، وكان والد صديقي كثيراً ما يؤمنا في الصلاة، في حديقة المنزل حيث كنا نسجد على الحشائش وقد زارني بعض الأخوة من مصر ممن يتحلون بالمرونة وصلوا معنا.

ووالد صديق هذا كان شخصية ظريفة بها دعابة ويقوم بعرض الخلاف بين السنة والشيعة بصورة مبسطة ومضحكة أحياناً. ومن خلال تواجدي قمت بزيارة مراقد أهل البيت عليهم السلام ببغداد والطواف على مساجد الشيعة وسماع الدروس والمحاضرات والحوار مع الشباب الشيعي من أصدقاء صديقي.

ونتيجة لهذا كله تبددت من ذهني الكثير من الأوهام التي كنت احملها عن الشيعة[1]. «انتقلت بعد ذلك إلى الكويت بدعوة من أحد الأصدقاء السنة وهناك قمت بسياحة بين قطاعات الإسلاميين المختلفة وخرجت بنفس الانطباع الذي خرجت به من مصر.. لتوحّد الأصول والمنطلقات الفكرية واتفاق الجميع على خط الماضي».

وقد عاصرت أثناء تواجدي في الكويت أحد أجنحة تيار جهيمان العتبي الذي قامت مجموعته باقتحام الحرم المكي عام ١٩٧٩ م وكانت عناصره غاية

١. المصدر نفسه: ١٧.

مـن السـفاهة والانـغلاق فقد كانـوا يغدون على الـصلاة بالنعال في المسـاجد ويحرمون قراءة الصحف والمجلات وحمل البطاقات وجوازات السفر والنقود لأنها تحوي صوراً.

واذكـر ان مجموعـة منهـم قامت بعـبور الحـدود الكويتية السـعودية بهدف العمـرة دون أن يكـون معهـا مـا يثبـت شـخصيتها وتـم القبـض عـلى أفرادهـا وترحيلهم إلى الكويت.

وكـم كنـت ضائقـاً بهذه الأوضـاع والممارسـات وأحـاول التفلة من الوسـط السـني لأجـل الوصـول إلى الشـيعة فـي الكويـت والتعـرف عليهـم، وقد كنت أجهـل سـبل الوصـول إليهم، إلا إنني اسـتطعت فـي النهاية اكتشـاف جمعية لهـم تحت اسـم «جمعية الثقافـة الاجتماعية» كنت أتـردد عليها وتعرفت من خلالهـا عـلى بعض الشـباب الشـيعي وحصلت عـلى عدد مـن الكتب اذكر منها كتاب السـقيفة وكتاب العقائد الإمامية وكتاب المراجعات. وعلى الرغم من حالة الاندماج مع التيار الشيعي بالكويت كانت لي صلاتي بالتيار السنّي وجماعاتـه المختلفة وخاصـة جماعة الإخوان بقطاعيهـا المصري والكويتي، كمـا كانـت لـي علاقـة بحـزب التحريـر الإسلامـي الـذي كان له نشـاط واسـع بالكويت آنذاك.

«وكان حـزب التحرير دائـم الهجوم على جماعة الإخوان والتشـكيك فيها، وكانـت جماعـة الإخوان تقوم بنفس الـدور في مواجهته.. وكان التيار السـلفي يهاجم الجميع ثم ما لبث أن بدأ ينشـق على نفسـه لتخرج من دائرته جماعة

تميل لخط جهيمان وجماعة تميل للجهاد؛ وهكذا وجدت نفسي في دوامة الخلافات والصراعات من جديد وقررت أن انأي بنفسي عنها وكانت قد بدأت تباشير الثورة الإسلامية (في إيران) وبدأت أحداثها تخطف الأبصار وكان نجاحها قد شكل هزة كبيرة للإسلام السائد وفتح الآفاق أمام خط أهل البيت عليهم السلام ممّا مهد الطريق لي وكثيرين غيري نحو التشيع»[1].

«عندما برز تيار التكفير على الساحة أحدث هزة كبيرة للخط السلفي ولأطروحة الماضي وأسهم بشكل غير مباشر في تعويق مسيرة الخط الوهابي والتيارات المتحالفة معه. فقد قام هذا التيار ينادي برفض فكرة التقليد والتمسك بأقوال الرجال وبهذه الأطروحة الجريئة منح معتنقيه حرية التلقي المباشر من الكتاب والسنة أو بمعنى أدق منحهم حرية أعمال العقل في النصوص بمعزل عن الرجال.

وإن كان تيار التكفير قد اعتبر ان من قلد كفر استناداً إلى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾[2]، ونبذ الصحابة والفقهاء الذين يراهم قد تجاوزوا النصوص واجتهدوا عليها، إلّا انه استسلم استسلاماً مطلقاً لرجال السنة وعلى رأسهم البخاري ومسلم وأصحاب السنن وانطلق يتلقى منهم النصوص النبوية وفق مقاييسهم فصحح ما صححوه وضعّف ما ضعّفوه ونبذ ما نبذوه: وبالتالي وقع في متاهة الرجال من طريق آخر وأوجد في

---

١. المصدر نفسه: ١٨ ١٩.

٢. التوبة: ٣١ .

أطروحته ثغرة وشرخاً أسهم فيما بعد في القضاء عليه وتمزيقه»[1].

«كنت قد عقدت مقارنة بين أطروحة تيار التكفير وأطروحة فرقة الأزراقة وقمت بنشرها وتوزيعها في الوسط الإسلامي وأحدثت أثراً كبيراً وكانت بمثابة مفاجأة للكثيرين بين الذين كانوا يتصورون ان أطروحة التكفير أطروحة اجتهادية جديدة خالية من رواسب الماضي». «ان تيار التكفير قد أسهم في دفعي نحو الإسراع في عملية التحرر من الماضي خاصّة بعدما اكتشفت ان فكر التكفير لا يخرج في محتواه ومضمونه عن فكر الخوارج الذين حاربوا الإمام علياً وانشقوا عن الخط الإسلامي السائد خاصّة فرقة الأزارقة منهم».

«ولعل ابرز صورة للتخبط والحيرة التي سببتها هذه النصوص للحركة الإسلامية تجلت في تيار الجهاد بمصر ذلك التيار الذي عجز عن اتخاذ الموقف الشرعي من نظام السادات والحكم عليه بالكفر البواح وتاه بين مقولات السلف وتفسيراتهم لهذه النصوص حتى اهتدى لفتوى ابن تيمية الخاصّة بوجوب قتال معطلي الشرائع فبني عليها موقفه من السادات وقام بتطبيقها عليه خاصّة بعد أن أعلن علمانية وهاجم الحجاب واظهر عداءه للتيار الإسلامي في أواخر عهده.. ان القاتل الحقيقي للسادات هو ابن تيمية ولم يكن خالد الاسلامبولي سوى أداة حملت البندقية ووجهها إلى صدره؛ ولأجل ذلك فان الحادثة لم تتجاوز حد المنصّة التي كان فيها السادات مع

١. المصدر نفسه: ٢٤.

أنّ الطريق كان مفتوحاً نحو القصر الجمهوري»[1].

إن فكرة الفرقة الناجية لم تكن للتوافق مع اتجاه يوالي بني أمية وبني العباس وغيرهم من الحكام أصحاب التاريخ المسطر بدماء المسلمين.

ولم تكن لتتوافق مع فقهاء يبررون مواقف وممارسات هؤلاء الحكام.

لم تكن لتتوافق مع أناس يهينون الرسول ويفضحونه وكيف يقبل العقل وتستريح النفس إلى ان شخصاً مثل يزيد بن معاوية يمكن أن يكون من الفرقة الناجية؟!

«ولقد شكل مفهوم الفرقة الناجية حالة من التعصب لدى الشباب المسلم الذي تشبع بهذه الفكرة وبنى على أساسها موقفاً عدائياً من الآخرين خاصة من الشيعة»[2].

بدأت اشك ان هناك قوى خفية تستدرج هذا الشباب إلى خط محدد يجعلهم صيداً سهلاً لقيادات مشبوهة وعندما برز أمامي الدور الوهابي المشبوه وجدت الإجابة على هذه التساؤلات جاهزة.

فقد تكشّف لي أن هذا الخط الذي اخترق صفوف الشباب والجماعات هو منبع هذا الموقف وهو الذي يغذي مثل هذه التصورات التي تقوم على الاستخفاف بالمذاهب الإسلامية وتقديس ابن تيمية ورفعه فوق فقهاء

---

١. المصدر نفسه: ٢٨.

٢. المصدر نفسه: ٣١.

المسلمين والتعتيم على المدارس الإسلامية الأخرى.

وفريق التكفير عندما نادي بنبذ التقليد إنّما وقع في نفس المتاهة وانتقل باتباعه من تقليد أهل الفقه المعروفين إلى تقليد شكري مصطفى مؤسس تيار التكفير وصاحب أطروحته. وبالبحث والدراسة فيما يتعلق بالمذاهب والمدارس الإسلامية المختلفة توصلت إلى الحقائق التالية:

ان هناك مدرسة منبوذة بين مدارس السلف وهي مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ان نبذ هذه المدرسة وعزلها كان لأغراض سياسية. ان هذه المدرسة تتلمذ عليها الكثير من الفقهاء، على رأسهم مالك وأبو حنيفة والشافعي.

أن الشيعة هم الطائفة الوحيدة من بين المسلمين الذين يتقيدون بهذه المدرسة ويتلقون منها.

ان مدرسة الحنابلة وخاصة جناح ابن تيمية هم خصوم لهذه المدرسة متربصون بها.

ان ابن تيمية هو ابرز فقهاء السنة وأكثرهم عداءً للشيعة ومحاربة لها.

بعد هذه النتائج بدت المسألة لي أكثر وضوحاً؛ هناك مجموعة من الخطوط التي عبثت بها السياسة وهناك خط معادى من الجميع.

الخطوط هي المذاهب!

والخط الآخر هو خط أهل البيت عليهم السلام.

والسؤال الذي فرض نفسه علي بعد هذا كله: لماذا يعادى خط أهل البيت عليهم السلام؟ وما هي معالم هذا الخط؟ وما هي أطروحته؟

وبالطبع لم أجد الجواب عند القوم، فقد محت السياسة كل شيء يتعلق بأهل البيت عليهم السلام من تراثهم ولم تبق إلّا على القشور وما يخدم مآترب وتوجهات ومصالح الحكام؛ فمنذ أن برز معاوية وساد الخط الأموي وبدأت الأمة تسير في خط آخر معادٍ لأهل البيت عليهم السلام بدأ بسب الإمام علي على المنابر وانتهى بذبح وتصفية أبنائه وأشياعهم ومحو تراثهم وعلومهم.

منذ ذلك الحين برزت عائشة وابن عمر وأبو هريرة لينطقوا بلسان الرسول صلى الله عليه وآله ويكونوا المتحدثين الرسميين باسم الإسلام لتتبعهم الأمة وتسير على هداهم.

من هنا فقد تكشّف لي ان عملية حصر الإتباع في مدرسة محدودة إنّما هي وليده مراحل سابقة لمرحلة ظهور المذاهب!!!

إنها وليدة عصر ما بعد وفاة الرسول.

وبرزت بصورة اكبر على يد الأمويين بقيادة معاوية الذي وجه الأمة نحو صحابة ورموز تدعم شرعيته ولا تتناقض مع خطه وقام بنبذ الصحابة والرموز الذين يوالون خط أهل البيت عليهم السلام بقيادة الإمام علي عليه السلام والتعتيم عليهم..

وأن الأمة سارت على هذا النهج دون أن تدري شيئاً عن حقيقة هذه المؤامرة، ثم وقعت الحركة الإسلامية المعاصرة في هذا الفخ الذي نصبه لها

بعض الحكام[1].

الخطط السياسية

يقول أحمد حسين يعقوب:

«يزيد هذا رعديد وفاجر ومن غير الممكن عقلاً أن يكون خليفة الرسول ولكن معاوية سخر جيشه وكل موارد الدولة لأخذ البيعة ليزيد ونجح!».

ليس أمام الحسين إلّا ان يبايع أو يموت!

إذا كانت الأمة قد ركعت بالتهديد فان ابن رسول الله وسليل الزهراء وشبل علي لم يركع، فخرج من المدينة خائفاً يترقب ومعه أهل بيته الكرام وذراريهم وانتهى مسيرهم إلى كربلاء.. ماء الفرات حلال للطير وللإنسان والحيوان ولكن عمر بن سعد اصدر أمراً بمحاصرة الحسين ومن معه ومنعهم من الشرب من ماء الفرات..

صنع جيش أمير المؤمنين المذبحة وقتل الحسين ومن معه وقطعت رؤوسهم وبعد ذلك اصدر عمر بن سعد بن أبي وقاص أمراً لكوكبة من فرسانه لتطأ جثه الحسين وكل الذين قتلوا معه!

وعاد جيش أمير المؤمنين منتصراً وعاد القتلة ومعهم رؤوس ال ٧٣ رجلاً!

وأقيمت الأفراح ونصبت أقواس الزينة والنصر وأخذت بنات الرسول سبايا واقتيد الركب إلى أمير المؤمنين يزيد على أنهم خوارج خرجوا على الأمير

١. المصدر نفسه: ٣٢ ٣٤.

ونصر الله الأمير عليهم!!! وانتهت الغارة بإبادة من حضر من أهل البيت عليهم السلام!!!

من ينكر هذه الغارة؟ ومن يتنكر لوقائعها المخجلة؟ ومن يعتذر عنها؟

وكيف لو أن الحسين ومن معه اصطدموا بجيش من بني إسرائيل أو بجيش أمريكي أو إنكليزي أو بجيش من همج ما قبل التاريخ فهل تفعل هذه الجيوش بالحسين وأهله الطيبين ما فعله جيش أمير المؤمنين بهم؟!!

لو لم يفعل شيعة الحكام من المخازي غير هذه لكفاهم خجلاً ومبرراً لتبقى رؤوسهم منكسة إلى الأرض[1]!!!

الخلافة المغتصبة

يقول إدريس الحسيني المغربي:

«لو كانت إحداث كربلاء وحدها لكفت في فضح حقيقة الكفر الأموي ولأبانت عن طبيعة النفاق الذي بقي ردحاً من الزمن يتفاعل داخل نفوس بني أمية يترقب لحظة الانتصار، ليعبر عن قسوته وخشونته ضد البيت العلوي..

ولم يعد بعد واقعة كربلاء ما من شأنه أن يضبب الرؤية ويعتم الطريق، فالدماء التي أهرقت في الطف كافية لإعطاء صورة حقيقية لمن شاء أن يعتبر»[2].

السلفية

---

١. الخطط السياسية: ٤٠٣.

٢. الخلافة المغتصبة: ١٨٥.

يقول السيد محمد الكثيري:

«الإمام علي عليه السلام وصف عصر بني أمية بشكل مجمل وواقعي: «فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان»! لقد قتل معاوية الإمام الحسن عليه السلام وقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء واستمر القتل في الشيعة وأئمتهم الواحد بعد الآخر حتى قال قائلهم: ان القتل أصبح لنا عاده وكرامتنا من الله الشهادة وقولهم: ما منا إلّا مقتول أو مسموم، وهكذا كان الحكم الأموي وبالاً على الإسلام والشيعة واكتوى بناره غيرهم؛ ففي وقعة الحرّة بالمدينة المنورة قتل الآلاف من التابعين وهتكت أعراض نساء المسلمين، لأنهم رفضوا بيعة يزيد فكان جزاؤهم ما هو مسطور في كتب التاريخ.

استمر السيف يحصد رقاب الشيعة طوال الحكم الأموي وإن كان قد تنفسوا الصعداء مع بداية الحكم العباسي إلّا ان هذه الهدنة لم تدم طويلاً، فالحكم العباسي الذي قام على تضحيات الشيعة ومعاناتهم ورفع شعار «الحكم للرضا من آل محمّد»، سيتنكر للعلويين لأن بني العباسي قرروا الاستئثار بالملك والخلافة من دونهم وبدأت حرب الاستئصال من جديد»[1].

«شهدت بغداد أطول الصراعات الحنبلية الإمامية فقد انفجرت الفتن المذهبية في النصف الأول من القرن الرابع سنة ٣٤٩ هـ» جرت وقعة هائلة ببغداد بين السنية والشيعية وتعطلت الصلوات في الجوامع سوى جامع براثا

١. السلفية بين أهل السنّة والإمامية: ٦١١.

الذي يأوي إليه الرافضة[1].

ويقول ابن كثير في حوادث سنة ٣٥٤ هـ: «ثم تسلطت أهل السنة (الحنابلة) على الروافض فكبسوا مسجدهم مسجد براثا الذي هو عش الروافض وقتلوا من كان فيه من القومة». والسبب حسب هذا المؤرخ السني هو قيام الشيعة يعمل مأتم يوم عاشوراء بمناسبة مقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام[2].

«ان ما يسترعي الانتباه فعلاً هو ما كان يفعله حشوية الحنابلة أثناء الصراع، لأنه يعتبر أحد المفاتيح لحد لغز هذه الفتن وخلفياتها».

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٣٧٥ هـ: «فيها في عاشوراء عملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض، ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة (الحنابلة) والرافضة وكلا الفريقين قليل عقل أو عديمة، بعيد عن السداد، وذلك ان جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة وسموها عائشة وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير، وقالوا تقاتل أصحاب علي؛ فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير انه الصراع ضد الإمامة الذي انفجر مبكراً كما أسلفنا ما زال يحرك الضغائن ويبعث على الحروب حروب الاستئصال التي بدأها بنو أمية»[3].

«وفي هذا السياق نفسه يقول ابن كثير، حوادث سنة ٣٨٩ هـ: ولما كانت

---

١. المصدر نفسه: ٦١٩، بالاستناد إلى الكامل في التاريخ، ج ٨: ٥٣٣.

٢. المصدر نفسه بالاستناد إلى البداية والنهاية، ج ١١: ٢٥٤.

٣. المصدر نفسه: ٦٢٠ بالاستناد إلى البداية والنهاية ج ١١: ٢٧٥.

الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتماً يظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة السنة فادعوا ان في اليوم الثاني عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير فعملوا له مأتماً كما تعمل الشيعة للحسين وزاروا قبره كما يزار قبر الحسين وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها ولا يرفع البدعة إلّا «السنّة الصحيحة».. هذا المؤرخ الذي يعادي الشيعة يصف إظهارهم الحزن على مقتل الحسين بدعة! ولست ادري ماذا كان على الشيعة أن يفعلوا عند حلول ذكرى هذه المناسبة كل سنة هل يوزعوا الحلوى على الحشوية ويقيمون الحفلات والأفراح (اتخذ بنو أمية وكذلك بنو أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويختضبون فيه ويزورون القبور وينبسطون في المطاعم ولبسوا الجديد وتزيّوا واكتحلوا وتبخروا وأقاموا الولائم والضيافات وأطعموا الحلاوات والطيبات وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله) أم كان عليهم نسيان هذه الحادثة والتغافل عنها وهذا ما كان يرغب فيه اتباع بني أمية وأذنابهم»[1].

«أما موقف ابن تيمية من أهل البيت عليهم السلام فكان غريباً جداً، فعندما ستصادفه عشرات الأحاديث الصحيحة ومن في حكمها وكلها تشهد لأهل البيت عليهم السلام؛ علي وفاطمة والحسن والحسين بالأفضلية وتدعو لاحترامهم ومحبتهم وتقديمهم على غيرهم وهذه الأحاديث تملأ الصحاح وكتب الحديث المختلفة فان شيخ الحنابلة سيقول: «ان فكرة تقديم آل الرسول هي

١. المصدر نفسه: ٦٢٣.

من أثر الجاهلية في تقديم أهل بيت الرؤساء»[1]؟!!

اذن هـذا الاجتبـاء الإلهي لآل الأنبيـاء هو من أثر الجاهليـة، وكل هذا الذي فـي القرآن مـن أثر الجاهلية؟!! وهـذا الصلاة على آل محمّـد وآل إبراهيم التي ترددهـا فـي صلاتك هي من أثـر الجاهلية!!! أتدري لماذا جـدع قصير أنفه؟!! لأنه لا يستريح حين يذكر لآل محمّد صلى الله عليه وآله حق في ذلك الاصطفاء»[2].

يعترف ابن تيمية بأن معاوية قد قتل الحسن بن علي عندما دس عليه من سـمه، لكـن الشـيخ يعتبر قتـل ابن بنت رسـول الله أمراً اعتياديـاً وهو من قبيل «قتال بعضهم بعضاً»[3][4].

ويبـقى السـؤال معلقـاً ويحتـاج إلى جواب؛ ما هـو حكم من قتـل الإمامين الحسـن والحسـين ابني علي بن أبي طالب وقبلهما حجر بن عدي وأصحابه والمئات من الأرواح التي أزهقت بسيف معاوية بن أبي سفيان وبني أمية؟!!

قتـل الحسـين بن علي فـي كربلاء ومن معه مـن أولاده وأصحابه فماذا يقول شيخ الإسلام في ذلك؟!! يقول: ويزيد ليس بأعظم جرماً من بني إسرائيل! كان بنـو إسـرائيل يقتلـون الأنبياء وقتل الحسـين ليـس بأعظم من قتـل الأنبياء![5].

---

١. منهاج السنة، ج ٣، ص ٢٦٩

٢. المصدر نفسه: ٦٤٣.

٣. منهاج السنة، ج ٢، ص ٢٢٥

٤. المصدر نفسه: ٦٤٨.

٥. منهاج السنة، ج ٢، ص ٢٤٧

وإذن أين هو المشكل؟!! يستطيع أي حاكم أن يقتل أي شخص من رعيته، وإذا قيل له لماذا؟!! يجيبهم بأن المقتول ليس أفضل عند الله من الأنبياء الذين قتلتهم بنو إسرائيل!!!

هذا هو الحكم السلفي في الدماء، دماء المظلومين والأبرياء[1].

وابن تيمية عندما يعرض لفاجعة مقتل الإمام الحسين عليه السلام يقول بأن يزيد لم يأمر بقتله ولا رضي بذلك بل ينحو باللوم على الإمام الحسين عليه السلام لأنه خرج على يزيد!!! وأراد أن يفسد عليه ملكه! وعليه فقد لقي حتفه وجزاءه!.. ان شيخ السلفية في «منهاجه السني» قد عقد العزم على تحريف الحقائق التاريخية وتزوير الوقائع دفاعاً عن إيمان بني أمية وفضلهم والحط من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله فهو يرفض الأحاديث الصحيحة في فضل أهل البيت عليهم السلام ويشكك في سندها أو يؤول متنها، بينما يتشبث بأوهى الروايات وأضعفها انتصاراً لمعاوية وأبنه يزيد.

يقول الباحث المصري صالح الوردانى: بقدر ما كنت أجل هذا الرجل المدعو ابن تيمية وأكنّ له احتراماً عظيماً طوال نشأتي الإسلامية، بقدر ما أصبحت ابغضه وأحط من قدره بعد تبين موقفه من يزيد الملعون.. ولقد تمادى ابن تيمية في موقفه المتحالف مع بني أمية حتى أنه خطّأ الحسين

١. المصدر نفسه: ٦٤٩.

وانتقده لخروجه على يزيد ملقياً عليه بتبعة مأساة كربلاء[1][2].

لأستحضر ما وقع لي مع شاب جزائري من تلامذة علي بلحاج المرشد السلفي لجبهة الإنقاذ، فقد تعرفت عليه يوماً وكان يتابع دراسته الشرعية في احد معاهد الشام الإسلامية، ولما توطدت العلاقة بيننا وكنا نجلس ساعات طوال نناقش قضايا التمذهب والخلافات العقائدية والفقهية بين المذاهب الإسلامية، وما كنت ألاحظه هو بساطة المعرفة وقلة الاطلاع على مذاهب أهل السنة الأصولية والفقهية، أما الشيعة الإمامية فمعرفته بهم لا تعدو أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد كفّرهم ولا حاجة بعد ذلك للمزيد أو الاطلاع فهذا موضوع قد فرغ منه؛ وشيخ الإسلام قد فصّل فيه فارتاح وأراح. قلت له يوماً ونحن نناقش موضوع إيمان الشيعة وكفرهم: أنا اعرف أمين المكتبة في إحدى المدارس الدينية الشيعية، فما رأيك لو زرنا هذه المكتبة؟!! فقبل ولم يمانع وكان هذا انفتاح من الشاب وجرأة! لأن دعاة السلفية يحرّمون على أتباعهم قراءة كتب الشيعة أو مناقشتهم فكيف بالدخول إلى مدارسهم!

وقد أعلن أحد كتّابهم أن على السلفي إذا دخل حيّاً يسكنه الشيعة أن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»! وهذا دعاء دخول الكنيف لقضاء الحاجة!

أقول قبل صديقي السلفي زيارة المدرسة الشيعية، وفعلاً وصلنا المدرسة

---

١. الخدعة رحلتي من السنة إلى الشيعة، دار النخيل للطباعة والنشر بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ص ٦٩

٢. المصدر نفسه: ٦٥١.

وطلبنا زيارة المكتبة، فسمح لنا بالدخول، لقد كانت مفاجأة لصديقي أو لنقل صدمة قوية!!!

لقد وجد كتب أهل السنة والسلفية كلها جنباً إلى جنب كتب الشيعة!

وجد صحيح البخاري ومسلم والترمذي وسنن ابن ماجة والنسائي ومستدرك الحاكم ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وجميع التفاسير القرآنية وعلى رأسها تفسير ابن كثير وسيد قطب؛ ومعظم الموسوعات الفقهية الخاصة بالمذاهب الأربعة، بالإضافة إلى مجمل كتب التاريخ ومصادره الأساسية.

قلت لصديقي السلفي: هذه الكتب ليست للعرض وإنّما للاستفادة..

كان الذهول بادياً على صديقي السلفي لأني كنت أعلم أن ذهنه محشو بأفكار وأوصاف للشيعة لا وجود لها إلّا في بطون الكتب السلفية وعقولهم.

لذلك لما فكرت في دعوته لزيارة المكتبة الشيعية كان غرضي إيصاله لهذه الحالة من الذهول والاستغراب! لدرجة انه شك في نفسه وفي وجوده وهل هو حقاً داخل مكتبة شيعية أم أن في الأمر خدعة! لكني كنت أدرك تساؤلاته واستغرابه الواضح.

كنت أقرأ عناوين الكتب التي يعرفها جيداً وأشير إلى مكانها بين الكتب والمصادر الشيعية الخاصّة؛ لكن المفاجأة هذه المرّة كانت مذهلة ولا تصدّق! عندما وقفنا أمام رفوف المكتبة العقائدية، لأن صديقنا ستقع عينه

عـلى مجموعـة الكتـب التـي يصدرها السـلفيون ضد الشـيعة! لقـد وجد كل الكتب التي تسـبّ الشـيعة وتطعن في مذهبهم وعقيدتهم مثل كتب إحسان الهـي ظهيـر والجبهان ومحمـد الغريب وغيرهـا، ممّا تطبعه مطابع السـعودية وتوزعه دور النشر المرتبطة بالسلفية.

أخـذ صديقي السـلفي يتصفـح تلك الكتب ويقـرأ بعـض محتوياتها وكأنه غير متيقن من وجودها هنا!!!

قلت له إنها نفسها الكتب التي قرأت في الجزائر..

قلـت لصديقـي السـلفي أنت مسـتغرب مـن وجود هـذه الكتـب هنا وهي تسب الشيعة وتطعن في عقيدتهم! وهي في نظرك قد تكون خطراً على الطلبة الشـيعة وفيهم شـباب صغار السـن قليلوا الاطلاع على المذهـب!!! لكني لن أجيبـك عـلى ذلك، وسـأترك قيـم المكتبة يجيبك لأني سـألته نفس السـؤال يوماً فأجابني!

ذهبنـا إلى قيـم المكتبـة وصديقي يحمـل الجزء الأول من كتـاب الردّ على «المراجعـات» وسـألناه حـول وجـود هـذه الكتـب «الخطيـرة» عـلى مذهـب التشـيع داخل مكتبة مدرسـة دينية شيعية. تبسـم قيم المكتبة ورد في هدوء وكان الأمر لا يسـتحق السـؤال والجواب قائلاً: إن أحد أئمتنا عليهم السلام قال: «الحمد لله الذي جعل أعداءنا من الحمقى» وهذه الكتب مصداق لهذا القول.

ان هـذه الكتـب مملوءة بالكذب والافتـراءات علينا ونحن نأتي بها لنعرف مـدى قـوّة أعدائنا المذهبيين وحجـم أدلتهم وماذا يقولون عنـا. وهذه الكتب

ألف علماء الشيعة الكثير من الردود عليها وهي في متناول أي طالب شيعي يأخذها أو يستعيرها..

قلت أنا سائلاً قيم المكتبة ألا تخافون من انحراف الطلبة الجدد عن المذهب إذا هم قرأوها واطلعوا على ما فيها؟!! قال لي مبتسماً!

يا أستاذ! نحن نكتب إعلاناً خاصاً داخل المكتبة عندما تصلنا مثل هذه الكتب من السعودية، وليس هناك أي قرار لمنع قراءتها، ولو أردنا ذلك لما وضعناها ضمن الكتب كما شاهدتهم!

والطلبة عندما يقرأون مثل هذه الكتب يزدادون يقينا بما عندهم من الحق.. فهذه الكتب تخدمنا نحن الشيعة من حيث لا يدري أصحابها فحبل الكذب قصير كما تعلم.

صحيح يقول أمين المكتبة: هذه الكتب تضرّ إخواننا من أبناء السنة لأن غالبيتهم قد لا يعرف عن التشيع شيئاً فتأتي هذه الكتب السلفية لتضللهم وتمنع عنهم الحقيقة..

طلب صديقي السلفي من قيم المكتبة أن يعيره كتاب الرد على المراجعات فوافق لأنني تعهدت له بإرجاعه ثم غادرنا المكتبة.

وقبل أن نغادر المدرسة جلسنا مع جمع من الطلبة ودار بيننا حوار حول الاختلافات المذهبية وقد أدلى كل الطلبة بدلوهم في النقاش وشعرت أن صديقي السلفي قد انتابه الخجل وبدأ يتململ من الضيق والحرج لأنه

لا يستطيع أن يجيب عن التساؤلات التاريخية والعقلية التي كان الطلبة يطرحونها، رغم تقدمه في تحصيل لعلوم الشرعية بل إنه من الأوائل المشهود لهم بالتفوق والمعرفة.

ولما غادرنا المدرسة ظل صديقي صامتاً، فبادرته بالسؤال: إن شيخك ابن تيمية يكفّر الشيعة، فهل الطلبة الذين جلست معهم قبل قليل كفار؟!! فلم يرد جواباً!!! لكنه علّق مستغرباً جداً حول تنوع المكتبة الشيعية واحتضانها الكتب السلفية المؤلفة ضد الشيعة، في الوقت الذي يستحيل أن تجد كتاباً شيعياً في مكتبة سلفي أو مؤسسة سلفية!!![1].

«وأرجع لصديقي السلفي الذي اختلطت عليه المعالم فشيخه ابن تيمية يكفّر أناساً رأى بأم عينه أنهم مسلمون يؤمنون بلا اله إلّا الله وأن محمداً رسول الله ويشتركون مع باقي المسلمين في مجمل العقائد والفروع الفقهية.. ولما غادرنا المدرسة سألته ما رأيك هل هؤلاء كفار؟!! كما يزعم السلفيون!!! وما قولك في أدلتهم حول الإمامة؟!! قال صديقي سأرد عليك عندما انتهي من قراءة كتاب الرد على المراجعات»!

ضحكت وافترقنا وأنا على يقين من أن صديقي قد تعرض اليوم لصدمة عنيفة لم يتعرض لها من قبل في حياته. فهو قد استعار من مكتبة شيعية كتاباً سيجد فيه ما سينتصر به على الشيعة!!!

انه ليزداد تخبطاً وتطوحاً لأن هذا الكتاب لو كان يشكل فعلاً خطراً على

١. المصدر نفسه: ٦٨١.

عقائد التشيع أو يستطيع هدم عقائده لما كان هناك في المكتبة وبين الكتب العقائدية! فالتشيع قد يهزمه السيف وقد يسكته القهر والاضطهاد، لكن الحوار المنطقي المستند لحقائق التنزيل ووقائع التاريخ يرفع عقائده ويسمو بها في سماء الحقيقة[1].

السيف والسياسة

يقول المفكر المصري صالح الورداني:

«كانت وقعة كربلاء آخر صورة من صور الصدام المسلح بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي، استتر بعدها الإسلام النبوي بينما أخذ الإسلام الأموي امتداده وانتشاره وسيادته.. منذ ذلك الحين حلت لغة البيان والقلم مكان لغة السيف في خط المواجهة بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي.. حمل أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم لواء البيان والقلم لتبصير الأمة بحقيقة الإسلام النبوي ودعوتها للالتزام به، وتبنى حكام بني أمية خطة الدفاع عن الإسلام الأموي وتشويه الإسلام النبوي.

لقد سطر الإمام الحسين عليه السلام بدمائه نهج الثورة والمواجهة للإسلام الأموي وكل صور الإسلام الزائفة التي نبعت منه ووضع الخطوط العريضة للأمة لتبني على أساسها التصدي ومواجهة الصور الزائفة للإسلام.

ان ثورة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته هزت واقع الأمة وزلزلتها ووجهت ضربة

---

١. المصدر نفسه: ٦٨٢.

قوية إلى معاوية ونهجه وأيقظت الأمة من سباتها وبعثت فيها روح التحدي والمواجهة»[1].

«كثرت غارات الصليبيين على الشام في أواخر العصر الفاطمي ما دفع بالفاطميين إلى الدخول في مواجهات عسكرية معهم وإجلائهم عن القدس وعسقلان في عام ٤٩١ هـ على يد «الأفضل بن أمير الجيوش».

«والأفضل» هذا هو الذي حمل رأس الحسين وكان مدفوناً في عسقلان فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجلّ دار بها وعمّر المشهد. فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره وسعى به ماشياً إلى أن أحله في مقرّه.

وقيل ان المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وكمله ابنه الأفضل.

إلّا ان الفاطميين خشوا على الرأس من الصليبيين فقرروا حمله إلى القاهرة من عسقلان، وقد وصل الرأس إلى مصر في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ وكان الذي وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها والقاضي المؤتمن ابن مسكين شارفها وحصل في القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور.

ويذكر ان الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان وجد دمه لم يجف وله ريح كريح المسك.. دفن عند قبة الديلم.. وكانوا ينخرون يوم عاشوراء عند

١. السيف والسياسة: ١٤٣ ١٤٤.

القبر الإبل والبقر والغنم ويكثرون النوح والبكاء ويسبون من قتل الحسين ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم»[1].

«ولقد كان وجود رأس الحسين بمصر من العوامل الفاعلة التي ربطت المصريين بالتشيع وبأهل البيت عليهم السلام وكان أيضاً من عوامل صمودهم في وجه الحملات المضادة المعادية التي قادها بنو أيوب لدفعهم نحو الكفر بالشيعة وموالاة خصوم أهل البيت عليهم السلام. وإن كانت هذه الحملات قد نجحت إلى حد كبير في نقل المصريين من الشيعة إلى السنة بالحديد والنار وبوسائل أخرى إلّا إنها لم تنجح في انتزاع حب أهل البيت عليهم السلام من قلوبهم، ذلك الحب الذي يجعل من تسننهم تسننا هشاً قابلاً للسقوط»[2].

الطريق إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام

يروي الطبيب المصري الدكتور أحمد راسم نفيس قصة الطريق الذي قاده إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام قائلاً:

«ولدت عام (١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢ م). كان أبي (رحمه الله) من رجال التعليم، أما جدي فكان عالماً من علماء الأزهر الشريف يقوم بالخطابة في مسجد القرية، وكان له (منتدى) يجتمع فيه المثقفون من أبناء هذه القرية، يتعلمون على يديه العلوم الدينية والفقهية والأدبية.

---

١. الشيعة في مصر: ١١١.

٢. المصدر نفسه: ١١٢.

تفتحت عيناي على أسماء الكتب والمؤلفات الحديثة لطه حسين والعقاد، وكم دارت مساجلات في بيتنا حول الشعر والأدب بين أبي (رحمة الله عليه) وبين أصدقاءه من الشعراء والأدباء الذين حفلت بهم آنئذ مدينة المنصورة تلك المدينة الجميلة (سابقاً) التي تقع على شاطئ النيل.

تعلمت من أبي وجدي (رحمة الله عليهما) حب القراءة والاطلاع قرأت كل ما وقع تحت يدي من كتب أثناء طفولتي إلّا كتاباً واحداً عجزت عن مواصلة القراءة فيه، وهو (أبناء الرسول في كربلاء) للكاتب المصري خالد محمد خالد، كنت أجهش بالبكاء في اللحظة التي امسك فيها الكتاب واعجز عن مواصلة قراءته..

في عام (١٣٨٨ / ١٩٦٨ م) افتتح بالقرب من منزلنا مسجد (الجمعية الشرعية)، كانت تلك الجمعية تطرح على الناس حديثاً عن الإسلام والمسلمين منددة بالبدع التي دخلت وكانت ترفع شعاراً مضمونه: أن لا خلاص للمسلمين ممّا هم فيه إلّا بتنقية الإسلام ممّا علق به من البدع والخرافات وأهمها بكل تأكيد ما يفعله الناس من قول سيدنا (محمّد) صلى الله عليه وآله بدلاً من قولهم (محمّد) فقط مجرداً من جميع الألقاب، والمصيبة الكبرى عندهم هي الصلاة على النبي واله عقب الأذان، أما الشرك الأعظم كما يرون فهو بكل تأكيد زيارة قبور الصالحين من أهل البيت أو غيرهم هذا هو الإسلام الصحيح من وجهة نظرهم!!!

اجتذبتنا الدعوة (التصحيحية) آونة من الوقت، وما لبث المسجد أن

تحول إلى مجرد مكان للصلاة، ثم لا شيء!»[1].

وقامت الثورة الإسلامية، بهرني ذلك الرجل (روح الله الخميني رضوان الله عليه)، منذ اللحظة الأولى، وبهرني ذلك الشعب العظيم الذي يتلقى الرصاص بصدره ويستعذب الشهادة وضايقني أن يكون ذلك الشعب (منحرف العقيدة) كما وصفه بعضهم من غير المنصفين، أو أن تكون هذه الثورة العظيمة مجرد مؤامرة أمريكية كما يصورها آخرون من دون وازع من دين أو خوف من الله وعندما حاولنا طباعة كتيب لمناصرة الثورة الإسلامية في إيران رفض ذلك بعض رفاقنا في العمل الثقافي ولم يكن بوسعي يومها إلّا السكوت.

«ثم قتل السادات، كان رأيي في أنور السادات ولا يزال هو ان هذا الرجل يحاول ممارسة السياسة ولكن على طريقه لاعبي السيرك فكان أن وجئت عنقه في إحدى الألعاب الخطرة التي مارسها..

أعطى الصهاينة ما لم يحلموا به طوال عمرهم، وأعطى الأمريكان عام (١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩ م) القاعدة الجوية في مصر ليهاجموا إيران من أجل إطلاق رجال المخابرات الأمريكية المحتجزين فيما كان يطلق عليه السفارة الأمريكية في طهران استقبل شاه إيران مستفزاً مشاعر (شعبين مسلمين): الشعب الإيراني والشعب المصري.

ثم لم يمت حتى وقف في صف نظام صدام حسين في عدوانه على

١. الطريق إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام: ٩.

الجمهورية الإسلامية (١٩٨٠ م) قائلاً: «نعم العراق هو المعتدي ولكننا نساعده»»[١].

«التقيت ذات يوم من أيام الأعوام (١٩٨٣ ١٩٨٥ م) بأحد الأصدقاء المصريين العائدين من بعثة علمية في بريطانيا، وأخبرني انه التقى ببعض الإيرانيين أثناء دراسته ودار بينه وبينهم حوار حول الثورة الإسلامية في إيران، واخبروه أن هناك حديثاً اسمه (حديث الرايات السود) التي تأتي من قبل المشرق تمهد للمهدي قلت له لا علم لي بهذه الرواية فسكت.

والتقيت بأحد الأصدقاء (الأزاهرة) (نسبة للأزهر الشريف) فسألته عن حقيقة الأمر فلم يعطني إجابة نافعة كعادتهم، فكل شيء عندهم فيه قولان وأحيانا ثلاثة وربما أربعة؛ فلم اقتنع بكلامه وقلت أبحث بنفسي، فوجدت الرواية في كتاب (الملاحم والفتن) لابن كثير عن رسول الله ﷺ: «إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً شديداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق يحملون الرايات السود يسألون الحق فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون، فمن أدركهم فليأتهم ولو حبواً على الثلج فان فيهم خليفة الله المهدي»، وغيرها من الروايات المشابهة، واصلت البحث فوجدت روايات أخرى تمدح الشيعة) وهي روايات لا تقبل التأويل أو التدجيل مثل قوله ﷺ؛ في تفسير قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا

١. المصدر نفسه: ١٠.

بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] قال ﷺ: (هذا وقومه وأشار إلى سلمان الفارسي) وهي رواية موجودة في تفسير ابن كثير وتفسير الطبري وغيرهما»[2].

«خرج الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، مدافعاً عن قيم الإسلام الحقيقي، الذي حاول تيار الحقد الأموي أن يجرفه في طريقه. لقد عمل الأمويون ما في وسعهم لسلب الأمة حقها في اختيار من يقودها، فتصبح الخلافة ملكاً وراثياً، وأرادوا أن يسلبوا الأمة عزها وكرامتها وشرفها إلى الأبد ليقودها سكيّر ينادم القرود ويعطل السنن ويشرب الخمر.

وقد تصدى الإمام الحسين عليه السلام لهذا العبء العظيم قائلاً: «مثلي لا يبايع مثله»؛ وهذه كلمات ترسخ مبدأً عظيماً من الناحية الشرعية والدستورية وهو انه لا ينبغي أن يحكم الأمة مثل هؤلاء الفساق. والله ان الدول غير المسلمة إن تسامحت مع سلوكيات الأشخاص العاديين فإنها لا تتسامح إطلاقاً مع سلوكيات قادتها ونحن أولى بالحق منهم. (نحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان)؛ وهذه قاعدة أخرى مكملة لما سبقها ومفادها أنه لا يجوز أن يستمر في حكم الأمة من عرف بالجور والعدوان.

ثم وهو يسند هذه المرّة إلى رسول الله ﷺ: «أيها الناس ان رسول الله ﷺ قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً

---

١. الجمعة: ٣

٢. المصدر نفسه: ١٦.

لسنة رسول ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غير.

لماذا لم يرو البخاري ومسلم هذا الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام هل يشكون في صدقه؟ أليس هذا الحديث أحق بالرواية من قصة بيعة ابن عمر لعبد الملك بن مروان؟ أم أن رواية الحسين عليه السلام وإن صدق لا تتوافق مع مذهبه ورؤيته وليذهب الصدق إلى الجحيم!!!

كما روى ابن جرير الطبري أن الإمام الحسين بن علي عليه السلام خطب فقال: «أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟!! ليرغب المؤمن في لقاء الله!!! فاني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

أليست هذه الأقوال والأعمال مواقف ودروس في السياسة والأخلاق، كان الأولى بمصنفي الأحاديث أن يعتنوا بها ويرووها وألا يضعونها فوق الرفوف كأنهم لا يعلمون!!!

يروي البخاري ويكثر الرواية عن ابن عمرو أبي هريرة ولا يروي شيئاً عن أهل بيت النبوّة أصحاب الكساء الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم

تطهيراً؟! وأنه لحري بالمسلم الواعي أن يكون دقيقاً فيما يقرأ من أحداث التاريخ وأن يميز بوعي وبورع وتقوى بين أئمة الهدى وأئمة الضلال»[1].

القطوف الدانية

يقول الأستاذ عبد المحسن السراوي:

من العجب وإن عشت أراك الدهر عجبا أن اتجاه الفتاوى قد انقلب إلى الترخيص بالسجود على الحرير والصوف والقطن وكل شيء خطأ في الاجتهاد!

ثم ازداد الأمر شدّة حتى انقلب ظهراً وبطناً فعدت السنة بدعة والبدعة سنة، حتى آل الأمر إلى تكفير شيعة أهل البيت عليهم السلام في العمل بالسنة الإلهية ورميهم بالزندقة والشرك (وإلى الله نشكوا وهو المستعان).

«هذا ما نلاقيه من إخواننا في دير الزور والحسكة وفي أماكن أخرى من الاستخفاف والإهانة بدل الالتزام بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله».

«تختص الشيعة الإمامية بالقول باستحباب السجود على التربة الحسينية (وهي تربة الحسين عليه السلام إتباعاً لمنهج رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة أئمة أهل البيت عليهم السلام ومنهج أهل البيت عليهم السلام هو منهج الرسول صلى الله عليه وآله لا يخالفونه قيد شعرة أبداً»[2].

---

١. المصدر نفسه: ٧٨ ٧٩.

٢. القطوف الدانية: ٩٥.

«كان الصادق عليه السلام لا يسجد إلّا على تربة الحسين عليه السلام تذللاً لله واستكانة له»، ولا غرو أن يجعل سبحانه الفضل في السجود على تربة سيد الشهداء عليه السلام وهو سيد شباب أهل الجنة وقرّة عين الرسول صلى الله عليه وآله ومهجة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وابن أمير المؤمنين علي عليه السلام وأحد أصحاب الكساء وإحدى سفن النجاة للأمة وأحد الأئمّة الكرام الهداة وأحد الخلفاء الاثني عشر وهو مصباح الهدى»[1].

المواجهة مع رسول الله وآله صلى الله عليه وآله

يقول المفكر أحمد حسين يعقوب:

«جاءت ثورة الحسين ومسيرته الخالدة التي سمع بها أهل الدنيا وسمع أهل الدنيا بمذبحة كربلاء، وكيف أن الخليفة أرسل جيشاً ضخماً لحرب رجل واحد وهو الحسين ابن الرسول ومعه أهل بيته ومواليه؟!! وكيف قتلهم شرّ قتلة وقطع رؤوسهم وحملها من بلد إلى بلد، ثم أمر أن تداس جثثهم بسنابك الخيل!!! وأخذ بنات النبي سبايا وقادهن حفايا من بلد إلى بلد فمرّغ الخليفة شرف العسكرية الإسلامية بالوحل، وظهر على حقيقته كسفاك وقاتل ومجرم لا أخلاق له.

وظهرت حقيقة أن فرعون الذي ادعى الربوبية هو أكثر نبلاً وأعظم إحساساً بالمسؤولية من أمير المؤمنين يزيد وأمثاله وإن كسرى وقيصر لهما أكثر رشداً من هذا الخليفة وأمثاله!!! لقد فضحت ثورة الحسين الخليفة وأظهرته على

١. المصدر نفسه: ٩٦.

حقيقته البشعة، مثلما فضحت نظام الخلافة وأظهرت هذا النظام بصورته المخالفة للدين والعقل والمنطق!!!

ومن المشكوك فيه أن تتمكن أية ثورة أخرى في فضح الخليفة ونظامه غير ثورة الحسين ونتائجها المأساوية الدامية»[1].

بلون الغار:

يقول الأديب الكبير معروف عبد المجيد المصري:

طغى الحزن سيلاًفغطى الحمىودمع المحبين أمسى دما
يعود المحرم في كل عامفنبكي عليك لحد العمى
فأنت المجدل فوق الرمالوأنت القتيل قتيل الظمأ
وماء الفرات صداق التيتفوق بمن أنجبت مريما
فديتك يا أعظم الأعظمينومن أصعد المرتقى هاشما
تفضلت فخراً على العالمينبأصل وجذع وفرع سما
فأنت الحسين وسبط الرسولبه حزت محتدك الاكرما
أبوك علي وصي النبيوأمك من سميت فاطما
حججت إليك بكرب البلاءوكنت بحزن الدنى مفعما
حثثت إليك الخطى من بعيدوزرتك ابغي بها مغنما

١. المواجهة مع رسول الله وآله: ٦٥٢.

وجثت خلال الرواق الشريف وقد ثار روعي وخوفي نما
ونبضي تعالى يدق ارتهاباً وخطوي يحاول أن يقدما
فلما انتهيت لباب الضريح وقفت بأعتابه واجما
أسائل نفسي أهذا الحسين ومن في البلايا به يحتمي؟!
وحين تأكدت ممّا أراه وأنني لست به حالما
طلبت الدخول فآذنتني وأنت تراقبني باسما
رميت وجودي بحضن الضريح ورحت أعانقه لاثما
ورحت أنوح وأشكو طويلاً لما بي وما بي وما بي وما
ويمناك تمسح قلباً عصياً وتلقي على كربتي بلسما
وثغرك يلثم بالشهد عيني فيطفئ جمراً بها ضارما
ونورك يغشى كيانا أضاء وقد كان من قبلها مظلما
وحبك يزهر بين الضلوع ويهدي الربيع لها موسما
وساد المكان سكون عميق وناطق حالي غدا أعجما
دهشت وقد حزت هذا المقام ونلت الشفاعة والمنسما
فحسبي هذا العطاء العظيم أعود به سالماً غانما [1]

١. بلون الغار، بلون الغدير: ٣٥.

بنور فاطمة

يقول الباحث القدير عبد المنعم حسن:

«في إحدى المرّات التقى بعض الأخوة الشيعة مع مجموعة وهابية صدفة وكنت موجوداً ولم تكن الرواية واضحة لدي وإن كانت ملامح الصواب بدأت تلوح لي.

ويبدو أن هؤلاء الوهابية كان لهم حوار سابق مع الشيعة فبدأوا ومعهم النقاش حول قضية الحسين عليه السلام وكربلاء؛ ورأيت الوهابية وقد احتوشوا الإخوة والشرر يتطاير من أعينهم وكأنهم يريدون القتال، تحدث أحد الشيعة عن عدم أحقية معاوية في تنصيب يزيد خليفة للمسلمين فذكر اسم معاوية مجرداً من الترضي عليه فصرخ أحدهم في وجهه قائلاً:

قل رضي الله عنه! هل هو أخوك حتى تذكره مجرداً؟!

فرد عليه الشيعي: هل أنت وأنا أفضل من علي عليه السلام وأكثر فهماً منه؟ فشمر أحدهم عن ساعديه وكأنه ينوي ضربه وهو يقول: اسمعوا هذا هو دين الشيعة يشككون في كل شيء، وهذا الرجل يسألنا سؤالاً بديهياً والإجابة عنه واضحة فلا أحد يرى أن هنالك أفضل من علي سوى الخلفاء الثلاثة (رضي الله عنهم) جميعاً وأرضاهم. فالتفت إليه الشيعي وقال: أولاً فليتكلم أحدكم، ثانياً إذا أردت الحديث فافهم أولاً ما أقول ثم تحدث، وثالثاً إذا كان علي عليه السلام أفضل منا وهو كذلك بلا شك فهو أدرى منا بالأصول أليس كذلك؟!

قالوا بحذر: نعم؛ فقال لهم: علي حارب معاوية ليس فقط لم يترض عليه كما تطالبونني بل قاتله اشدّ قتال ولو ظفر به لألحقه بأجداده.

قال أحدهم وهو يمضغ سواكاً: نقول كما قال السلف تلك دماء عصم الله منها سيوفنا فلنعصم ألسنتنا، ونحن نرى معاوية صحابياً جليلاً وأنه فعل خيراً عندما نصب يزيد ونرى أن خروج الحسين بن علي كان خطأً منه وقد تاب يزيد.

قال الشيعي: قولك فلنعصم منها ألسنتنا لا ينطبق عليك لأنك الآن تقول أن معاوية صحابي جليل! اذن لقد أخطأ علي في حربه لمعاوية، ثم من قال انك لن تسأل عن تلك الدماء لابد أن يكون لكم موقف تجاه ما جرى، فهما جبهتان؛ إحداهما على حق والأخرى على باطل، ووقوفك الآن في وجهي اشتراك في تلك (الفتنة) كما تدعي.

أما عن الحسين بن علي فهو لم يخطئ كما تقول فهو كما قال عنه رسول الله ﷺ: سيد شباب أهل الجنة وهو من أهل بيت النبوّة وتعلّم من جده كيف ينصر الحق، ويزيد تعلّم من أبيه ما تعلّم كما نقلت إلينا كتب التاريخ.

قاطعة أحد الوهابية: يجب على المسلمين أن يقتلوا هؤلاء الشيعة أينما وجدوهم فانهم فتنة.

قال له أحد الشيعة وهو يبتسم: هكذا دائماً أعداء الشيعة باسم الحق يقتلون الحق وباسم الفتنة يحجبون الحقائق عن الناس، وبالنتيجة أنت لا تفترق عن سلفك كثيراً، إنك تربية ذلك المنهج الذي تبنّاه معاوية ويزيد

وبنو أمية.

عندما وصل الحوار إلى هذا الحد أخذت أحدهم على جانب وأخبرته بأني لست شيعياً ولكني اسمع بهم فمن هم وماذا يقولون ولماذا تهاجمونهم بهذه الطريقة؟

فقال لي: يا أخي أبعدك الله عن أمثال هؤلاء إنهم مشركون زنادقة يسبون الصحابة.. كما إنهم يعبدون الحجارة..؟!

قلت مندهشاً: من الذي قال لك؟!

قال مفتخراً: نحن نعرفهم جيداً..

أحسست بغثيان بسبب كذب هؤلاء القوم..

صرخت في وجهه بلاوعي: ألا يمكنك ان تنصر الحق الذي تدعيه بدون أن تكذب وتفتري؟

فارتبك متعلثماً به كيف تقول لي مثل هذا الكلام؟!

قلت: أنت الذي أجبرتني على ذلك؛ أنا قرأت للشيعة وجلست معهم واعرف جيداً ما يقولون وما ذكرته لي بعيد عنهم كل البعد.. دعنا من كل ذلك فأنا أسألك حول قصة الحسين بن علي كمسألة واضحة ماذا تقولون فيها؟ سكت وكأنه يبحث عن إجابة، ثم قال: لماذا تبحثون عن هذه الأشياء؟!

قلت: أجب على سؤالي ودع عنك السبب؟

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

قال: معاوية صحابي جليل ويزيد كان أميراً للمسلمين والحسين خرج على ولي أمر زمانه ولو كان يزيد قد أخطأ فربما قد تاب فلا داعي أن نتحدث حوله ونشهر به!

قلت مختتماً هذا الحوار الذي لن يثمر عن شيء: أنت بهذا تلغي الآيات القرآنية التي شهرت بقابيل ونمرود وفرعون والسامري.. وغيرهم من الطغاة أعداء الرسالات.. وبهذه العقلية تعطل الدين ويصبح كل التاريخ بلا فائدة»[1].

«استوقفتني قضية الحسين كثيراً كما استوقفتني قضية أمه الزهراء وأنا أبحث عن جهة الحق، قرأت وسمعت عن قصة الحسين عليه السلام وعشت معه تارة أبكي وأخرى العن فيها من ظلمه وتارة أتأمل في واقع أمة كهذه؛ لم اسمع بمثل هذه البشاعة من قبل..

قضية الحسين ستضعنا أمام أسئلة كثيرة وعلامات استفهام الإجابة عليها ستفضي بنا إلى أن الحسين كقضية لم يقتل في كربلاء، بل أن أصل القضية يرجع إلى ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله هنالك كانت البداية والنهاية كانت بجسد الحسين ليظهر يزيد بن معاوية أحقاداً بدرية كما جاء في التاريخ»[2].

«السجود على التربة الحسينية يمثل حالة من حالات السجود على الأرض.. ان أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يؤكدون على مسألة السجود على التربة الحسينية، والإمام علي بن الحسين عليه السلام أول من سجد عليها وكل أئمة أهل

---

١. بنور فاطمة اهتديت: ١٩١.

٢. المصدر نفسه: ١٩٩.

البيت عليهم السلام كانوا يسجدون ويؤكدون على استحباب السجود عليها كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: ان السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبعة»[1].

«التربة الحسينية وثيقة تاريخية حية تحمل شواهد الجريمة التي نفذها الحكم الأموي يوم العاشر من محرم، وإذا كانت الأجهزة الظالمة عبر التاريخ قد مارست أساليب المصادرة لقضية كربلاء وما زال امتدادهم إلى يومنا هذا فان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام رسخوا في وعي الأمة وفي وجدان الأجيال حالة التعاطي والارتباط بقضية الحسين عليه السلام من خلال الأحياء والرثاء والبكاء والزيارة وفي هذا المسار تأتي مسألة التأكيد على التربة الحسينية.

التربة الحسينية إحدى صيغ التجذير للوهج الثوري الجهادي في حس الجماهير المسلمة وهذا ما تحتاج إليه كل الأمة الإسلامية.. والتعامل مع هذه التربة ليس تعاملاً مع كتلة ترابية جامدة وإنّما هو تعامل مع مزيج متحرك من مفاهيم الثورة وخيم الجهاد ومضامين الشهادة، فمع كل ذرة من ذرات هذه التربة صرخة جهادية ونداء ثوري ومفهوم استشهادي، لا يقوى الزمن بكل امتداداته ولا تقوى الأجهزة المتسلطة بكل إمكاناتها ان تطفئ تلك الدلالات فالتربة الحسينية عقيدة وجهاد وثورة وحركة واستشهاد»[2].

ثم اهتديت

---

١. المصدر نفسه: ٢٠٦.

٢. المصدر نفسه.

يقول الدكتور محمد التيجاني السماوي:

«كانت أجوبة السيد محمد باقر الصدر واضحة ومقنعة ولكن أنى لها أن تغوص في أعماق واحد مثلي قضى خمسة وعشرين عاماً من عمره على مبدأ تقديس الصحابة واحترامهم وخصوصا الخلفاء الراشدين الذين أمرنا الله بالتمسك بسنتهم والسير على هديهم وعلى رأس هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق؛ وإني لم اسمع لهما ذكراً منذ قدمت العراق وإنّما سمعت أسماء أخرى غريبة عني أجهلها تماماً وأئمة بعدد اثني عشر إماماً وادعاءً بأن رسول الله ﷺ قد نص على الإمام علي عليه السلام بالخلافة قبل وفاته!!!

كيف لي أن أصدق ذلك؟؟؟ أي أن يتفق المسلمون وهم الصحابة الكرام خير البشر بعد رسول الله ويتصافقوا ضد الإمام علي (كرم الله وجهه)، وقد علمونا منذ نعومة أظافرنا بأن الصحابة (رض) كانوا يحترمون الإمام علياً عليه السلام ويعرفون حقه فهو زوج فاطمة الزهراء وأبو الحسن والحسين، وباب مدينة العلم كما يعرف سيدنا علي حق أبي بكر الصديق الذي اسلم قبل الناس جميعاً وصاحب رسول الله في الغار.. فكيف يجهل إخواننا الشيعة كل هذا أو يتجاهلونه ويجعلون من هؤلاء أشخاصاً عاديين تميل بهم الأهواء والأطماع الدنيوية.. من أجل كل هذا ما كنت لأصدق الشيعة في كل ما يقولون رغم إني اقتنعت بأمور كثيرة وبقيت بين الشك والحيرة الشك الذي ادخله علماء الشيعة في عقلي لأن كلامهم معقول ومنطقي والحيرة التي غمرتني فلم اصدق ان الصحابة (رض) ينزلون إلى هذا المستوى الأخلاقي فيصبحون

بشراً عاديين مثلنا؟

يا إلهي كيف يكون ذلك؟ أيمكن أن يكون الصحابة على هذا المستوى الذي يقول به الشيعة؟

جاء صديق منعم وسافرنا إلى كربلاء، وهناك عشت محنة سيدنا الحسين كما يعيشها شيعته وعلمت وقتئذ بأن سيدنا الحسين لم يمت، فالناس يتزاحمون ويتراصون حول ضريحه كالفراشات ويبكون بحرقة ولهفة لم اشهد لهما مثيلاً، فكأن الحسين استشهد الآن، وسمعت الخطباء هناك يثيرون شعور الناس بسردهم لحادثة كربلاء في نواح ونحيب ولا يكاد السامع لهم أن يمسك نفسه ويتماسك حتى ينهار، فقد بكيت وبكيت وأطلقت لنفسي عنانها وكأنها كانت مكبوتة وأحسست براحة نفسية كبيرة ما كنت اعرفها قبل ذلك اليوم، وكأني كنت في صفوف أعداء الحسين وانقلبت فجأة إلى أصحابه واتباعه الذين يفدونه بأرواحهم؛ وكان الخطيب يستعرض قصة الحر وهو أحد القادة المكلفين بقتال الحسين، ولكنه وقف في المعركة يرتعش كالسعفة ولما سأله بعض أصحابه: أخائف أنت من الموت؟!

أجابه الحر: لا والله ولكنني أخير نفسي بين الجنة والنار! ثم همز جواده وانطلق إلى الحسين قائلاً: هل من توبة يا بن رسول الله؟

ولم أتمالك عند سماع هذا أن سقطت على الأرض باكياً وكأني أمثل دور الحر واطلب من الحسين: هل من توبة يا بن رسول الله؟ سامحني يا بن رسول الله!!!

وكان صوت الخطيب مؤثراً وارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنحيب، عند ذلك سمع صديق صياحي وانكب علي معانقاً باكياً وضمني إلى صدره كما تضم الأم ولدها وهو يردد: يا حسين! يا حسين..

«كانت دقائق ولحظات عرفت فيها البكاء الحقيقي وأحسست أن دموعي غسلت قلبي»[1].

خلاصة المواجهة

يقول المفكر الكبير احمد حسين يعقوب:

«وكادت الأمة أن تصدق أن نظام الخلافة التاريخي هو نظام الإسلام وأن الخليفة التاريخي هو صفوة الأمة وهو أهل للقداسة، فجاءت ثورة الحسين ومذبحة كربلاء لتفضح كل هذا الزيف وتظهر الخليفة على حقيقته البشعة، وتعرّي نظام الخلافة وتكشف عن صورته المخالفة للدين والعقل. وقد صدمت مجزرة كربلاء ضمير الأمة وأيقظته وهزت كيانها من الأعماق فاستفاقت من رقدتها لتجالد عدوها وأحيت فيها روح التضحية والفداء، وتمخضت عن ذلك ثورات متلاحقة على الظالمين»[2].

فقهيات

يقول الأستاذ الباحث عاطف سلام:

---

١. ثم اهتديت: ٧٢-٧٣

٢. خلاصة المواجهة: ١٥٦

«السجود على الأرض مباشرة هو الأصل المعمول به على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان وهو الذي يلتزم به إخواننا الشيعة الإمامية حتى يومنا هذا ولا يحيدون عنه قيد أنملة فهم يسجدون على الأرض شرط التأكد من عدم نجاستها وخلوها من الأقذار، ويستحبون من بين تراب الأرض تربة كربلاء حيث استشهد أبو الأحرار وسيد الشهداء أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام الذي خرج في ثلة من أهل بيت النبوّة الأطهار وصحابته الأبرار من أجل مقارعة الظلم والطغيان والإثم والعدوان المتمثل في طاغية عصره وطاغوت دهره يزيد بن معاوية الذي تسلط على رقاب المسلمين بغير حق وأذاقهم صنوفاً وألواناً من المحن والمصائب من قتل وتشريد وانتهاك للحرمات والمقدسات وإهلاك للحرث والنسل وضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق وإحراقها وتدنيس حرمة المدينة المنورة واقتحامها وإباحتها وقتل الصحابة الأبرار فيها في وقعة الحرّة..

وقد سجل التاريخ أروع ملحمة بطولية على ارض كربلاء التي ارتوت بدماء الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار وصحابته الأبرار تلك الدماء التي أريقت على صعيدها من أجل عزة الإسلام وإعلاء كلمة الله في يوم عاشوراء.. وقد دلت بعض الأحاديث على فضل هذه التربة الطاهرة ومكانتها السامية فترى الواحد منهم يحمل تربة نقية طاهرة منها كما يسجد عليها لله رب العالمين»[1].

المسار الأموي

١. فقهيات بين السنة والشيعة: ٥٠ ـ ٥١.

يقول الباحث والمفكر مروان خلفيات:

«كان المسلمون الأولون يشعرون بأن الوجود الأموي سيعمل على تنظيم صفوفه وإعادة نشاطه من جديد جاء ذلك التشخيص واضحاً في الحوار الذي دار بين أبي بكر والحباب بن المنذر والذي نصه: أمنّا تخاف يا حباب؟!!..

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه بني أمية ينزون على منبره وتلك رؤيا صادقة تكشف عن أن الموقف الأموي المواجه لن ينتهي بهزيمة الفتح، بل سيعود إلى المواجهة بعد تنظيم صفوفه وقد تحقق ذلك»[1].

لنشر آثار كمال السيد

معالم الفتن

يقول الكاتب سعيد أيوب:

«وقف الحسين في ساحة المعركة وحده وكان النبي ﷺ يراقب المعركة من عالم غير العالم الذي يعيش فيه الناس فأم سلمه ستراه بعد قتل الحسين وعلى لحيته التراب ويقول لها: لقد شهدت قتل الحسين آنفاً. لقد وقف الحسين في نهاية عمل أحسن أدائه فأقام الحجة الدائمة التي شاء الله أن يجعلها حجة دامية لتقرع الذاكرة على امتداد التاريخ وتدفع الذهن إلى طريق البحث عن الحقيقة»[2].

---

١. قراء في المسار الأموي: ١٠.

٢. معالم الفتن: ٢٩٩.

من الحوار اكتشفت

يقول الأستاذ والباحث هشام آل قطيط:

«خرجت من مقام السيدة زينب عليها السلام، وأنا في الطريق اسمع سائق (السرفيس) يصيح بصوت عال: (رقية! رقية!) فلفت نظري تساؤل، هل هناك منطقة في دمشق اسمها (رقية)؟

فدفعني الفضول لأسأله أين تقع هذه المنطقة؟ فسألته فقال لي: من أين أنت؟ فأجبته من القامشلي.. فقال: أوه!!! في آخر سوريا.. قال لي: يا أخي الإيرانيون واللبنانيون والخليجيون يقدسون هذه المقامات، فأنا أصيح حتى اشتغل وهذا موسمهم.. لأنه كل صيفية يأتون إلى هنا لزيارة هذه المقامات!!

وفعلاً عزمت على الذهاب مع السائق لأرى هذه المنطقة التي اجهلها وانطلقت السيارة وأنا أتساءل.. وصلت إلى المقام الشريف ولم استطع الدخول لشدّة الزحمة أمة من البشر!!! الله أكبر؟ ما هذه الزحمة؟!

من أين أتت كل هذه الجموع الغفيرة؟! وبعد انتظار ساعة من الوقت، استطعت الدخول ورأيت الناس يلطمون على صدورهم ويصيحون: يا حسين! يا حسين! يا رقية! يا رقية! الظليمة! الظليمة!!!

فدخلت إلى داخل المقام..

ووصلت إلى الضريح وقرأت الفاتحة وصليت قربة إلى الله ركعتين لهذه السيدة دون أن أعرف بنت من؟ لكن عندما رأيت الناس تدخل وتزور وتقبل

هـذا الضريـح فعلت مثلهم فعرفت أن هنا مقاماً لسـيدة فاضلة.. فاقتربت من أحد الشباب الذين يلطمون.. فقلت له: إذ سمحت السيدة رقية بنت من؟؟؟

اسـتغرب وقال لـي: من أين أنت؟؟؟ فأجبته من القامشـلي فقـال: أين تقع القامشـلي؟؟؟ فقلـت: تبعد مـن هنا ما يقـارب الألف كيلومتر. قـال: أنت من سوريا ولا تعرف هذا المقام لمن؟!! أنت سني؟؟؟ قلت: نعم.

فقـال: حقـك لا تعلم! السـيدة رقية بنـت الإمام الحسـين عليه السلام عندما جاءوا بأهـل البيت عليهم السلام سـبايا مـن العراق إلى الشـام ورأس الإمام الحسـين محمول عـلى الرمـح مـن هنـاك إلى هنـا وعندمـا وصلـوا الجامـع الأمـوي وضعـوا رأس الحسـين عليه السلام في المسـجد أمام اللعين يزيد.. قاطعته: الحسـين سيد شباب أهـل الجنة يحملون رأسـه عـلى الرمح؟!! ويأتون به إلى الشـام؟!! مـاذا تقول يا أخي؟!!

أليـس الشـيعة هـم الذين قتلـوه وهـم الآن يبكون ويندبـون ويلطمـون ندماً وحزناً؟!!

قال الشـاب: أنت متعلم؟ قلت: نعم وأنهيت الدراسـة الجامعية ولكن والله العظيـم لم اسـمع بهـذه الأحـداث لأن هذه القضايا ليسـت مـن اختصاصي، فالصدفة هي التي أنت بي إلى هنا!!!

فقـال لـي: يا أخي أعـذرك كل العـذر.. ولكن ابحث أنت بنفسـك عن هذه الحقائق!!!

وقال لي: إذا أردت ان تزور رأس الحسين مقامه في الجامع الأموي..

رقية هي بنت الإمام الحسين كانت طفلة عمرها ثلاث سنوات تقريباً كانت مع عمتها السيدة زينب أتعرف مقام السيدة زينب أخت الإمام الحسين؟؟؟

فأجبته: نعم الآن جئت من هناك.

فقال: عندما وضعوا رأس الحسين في طشت كانت هذه الطفلة تصيح وتبكي.. تريد أباها.. فقال يزيد اللعين: خذوا الرأس وضعوه أمام الطفلة لكي ترى أباها، فعندما شاهدت الطفلة رأس والدها انكبت على وجهه، فلم تطق الطفلة ذلك الموقف وفارقت الحياة فوق رأس والدها!!!

ماذا تحكي يا أخي؟ ماذا تقول؟!! هل هذا صحيح؟!! فاضت دموعي وصرت أصيح بنت الحسين سيد شباب أهل الجنة.. هكذا قتلت؟ هكذا ماتت؟! فصرت أردد كما تردد الشيعة: الظليمة الظليمة! يا رقية! يا رقية!..

ودعتها متجهاً إلى الجامع الأموي.. شاهدت الحشود والجموع تتجه باتجاه الشرق وتصيح وتلطم يا حسين! يا حسين!

لعن الله من ظلمك.. لعن الله من قتلك.. لعن الله يزيد وصلت إلى الباب ودخلت بمشقة من شدّة الازدحام حيث وصلت إلى مكان رأس الحسين.. فقبلته وانهمرت دموعي فصرت أحدث نفسي ما الذي حصل؟ ما الأمر؟ ما القضية؟ ما الذي حدث؟!

صليت ركعتين.. شاهدت شيخاً يبدو انه عراقي من اللهجة والبحة

يخطب بالناس: اليوم قتل أمامكم.. اليوم الظليمة الظليمة!!!

بقي الحسين ملقياً على وجه الأرض.. خرجت الحوراء زينب ووقفت على التل نم نادت بصوت حزين يقرح القلوب: يا بن أمي يا حسين! يا حبيبي يا حسين! إن كنت حياً فأدركنا فهذه الخيل قد هجمت علينا! وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله!

لما سمع الحسين صوت أخته زينب قام ووقع على وجهه ثم قام ووقع.. صاح: يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم!

فأخذني البكاء الشديد وصرت أكفكف دموعي وأنظر من حولي لئلاّ يراني أحد..

أسأل رأس ابن بنت النبي يحمل على الرمح من بلد إلى بلد؟! فصرت العن يزيد ومن عيّن يزيد!!!

يا إلهي! ما الخطب؟ ما الأمر؟ ما الذي جرى على الأمة؟ فخرجت من المسجد ودوامة الصراع لا تتركني.. أين شيخنا في القرية الذي يحذرني من هؤلاء الشيعة؟ ويقول لي: (هم الذين قتلوا الحسين).

ما هذه المأساة التي حلت بالأمة؟ ما هذه الظليمة؟.. يا الهي! متى أتخلص من هذه الدوامة التي حيرتني؟ فدفعتني هذه الكارثة التي حلت بالأمة إلى

أن اشدّ الهمة من جديد دون كلل أو ملل بحثاً عن الحقيقة»[1].

لقد شيعني الحسين

يقول المفكر إدريس الحسيني المغربي:

«إنني أتجنب أن أكون أديباً في قضايا التاريخ إلّا في هذا الموقف إنها الجدبة التي لا أتمالك فيها أحاسيسي مهما كان الأمر، لأن الحدث بلغ من الدراماتيكية ما يفقد الإنسان تقنياته المعرفية. إنه إمام الأمة، وانه جدي، وأنه الإنسان؛ كل هذا لا يسمح لي أن أقوم بمجرد سرد وإحصاءات و(فبركات) في مثل هذا المشهد؛ فلا يلومنني القارئ إذا أخذت بي هذه الجدية التي لا أملك فيها نفسي أمام مذبحة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

لكم التاريخ، ولكم الوثائق، ولكم كل شيء؛ ولي أن ابكي وأحزن و(أشقشق)؛ فمن هنا دخلت حرم أهل البيت عليهم السلام وفيه ولدت من جديد.

«ما زلت اذكر اليوم الذي عشت فيه مأساة كربلاء بتفاصيلها حيث ما تزال ظلالها الحزينة ترافق ظلي إلى اليوم. وتفاصيلها لا يتسع لها هذا الكتاب.. لقد وجدت نفسي فجأة في هيئة أخرى وفي شرياني جرى دم هو مثل تلك الدماء التي أريقت على رمال الطفوف.. ومنذ ذلك اليوم، كان كل يوم عندي عاشوراء وكل ارض كربلاء»[2].

---

١. ومن الحوار اكتشفت الحقيقة: ٤٨ ٥٤.

٢. لقد شيعني الحسين،: ٢٩٧.

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

الملحق

أيها الناس!

خذوها عن خاتم النبيين ﷺ، انه يموت من مات منا وليس بميت! ويبلى من بلي منّا وليس ببال!

الإمام علي بن أبي طالب (نهج البلاغة / الخطبة ٨٧)

الملحق (١): أسرار الحضرة العباسيّة المطهرة.. مرة أخرى

منذ سقوط النظام الدكتاتوري والكثير من الأصدقاء والمعارف والقراء يذكرونني بالموضوع الّذي نشرته في مجلة «ألف باء» في آب ١٩٩٨ بعنوان «أسرار الحضرة العباسية المطهرة» ويطلبون مني إعادة كتابته بحرية لاعتقادهم بأنني أخفيت الكثير من الحقائق والأسرار تحت وطأة الرقابة والخوف وضيق مساحة الحرية.. وآخر ما وصلني بهذا الشأن ما حمله لي مراسلنا في البصرة وهو طلب عدد من القراء في البصرة إعادة نشر الموضوع بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في شهر محرم الحرام.. لا سيما وان الكثير من القراء لم يحصلوا على عدد «ألف باء» الّذي نشر فيه هذا الموضوع، وكما يعرف الزملاء في «ألف باء» بأن هذا العدد نفد حتى من أرشيف المجلة كما اخبرني السيد عبودي «أبو أحمد» مدير مكتب رئيس التحرير الّذي قال ان المسؤولين في ديوان الرئاسة والوزراء كانوا يطلبون نسخاً من هذا العدد حتى بعد أشهر من نشره..

تبدو لي إعادة نشر هذا الموضوع عملية قد لا تكون مسوغة في هذا الوقت خاصة إنني وبعد أكثر من سنة أعدت نشر الموضوع في مجلة السياحة بطلب من المسؤولين فيها، غير ان طلب القراء في البصرة وإزاء أهمية شهر محرم وجدت ان المناسب الإجابة على الكثير من الأسئلة الّتي أثيرت حول الموضوع خاصة تلك لم استطع الإجابة عنها وستكون إجابتي من خلال سرد قصة الموضوع كاملة.. الموضوع الّذي اعتز به كوني أول صحفي ينزل إلى قبر الإمام العبّاس عليه السلام ويكتب عنه.

البداية.. كانت سؤالا

في مثل هذه الأيام من شهر محرم وفي جلسة عائلية، سأُلتني امرأة عن مدى صحة جريان نهر العلقمي تحت ضريح الإمام العبّاس عليه السلام وتطور الحديث عن اعتقاد البعض ان جثة الإمام ما زالت طافية على مياه النهر ولم تتحرك منذ استشهاده وحتى الآن..

بدا لي المشهد في غاية السريالية، لكن الناس صدقته وقد سمعته أكثر من مرة، لا سيما بعد ان نشرت بعض الصحف الأسبوعية الّتي يشرف عليها عدي عدة أخبار عن استخراج مياه من قبر العبّاس عليه السلام للاستشفاء وتباع بأسعار عالية جداً.

المرأة وهي زوجة صديق اقترحت عليّ ان اكتب موضوعاً يجيب عن الكثير من الأسئلة بعد زيارة الضريح فواجب الصحافة كشف الحقائق وتفنيد الإشاعات.. سيكون أجري عند الله كبيراً.. كما قالت. في البداية استصعبت

كتابة موضوع عن القبر الأصلي للإمام العبّاس عليه السلام وكيف يمكنني أن أنزل إلى «العلقمي». لكن ما استفزني ما سمعته من أحد الأشخاص بعد أيام حيث قال: ان احد أقاربه نزل إلى القبر الأصلي بواسطة احد رجال الدين وشاهد النهر ما زال يجري تحت الضريح والأكثر من ذلك انه شاهد ذراع العبّاس عليه السلام ما زالت طرية تنز دما على ضفة النهر؟

بالرغم من تفسيري لهذه المعتقدات والأساطير في زمن الجوع والاضطهاد إلّا أنني جربت أن أحاول، وفعلاً في اليوم التالي دخلت على الأستاذ أمير الحلو رئيس تحرير «ألف باء» وشرحت له الأمر مع طلب بأن يزودني بكتاب إلى محافظ كربلاء للسماح لي بالنزول إلى القبر الأصلي، ضحك أمير الحلو وقال لي:

الموضوع حساس وربما يخلق لنا مشكلة خاصة وإنني من النجف وأنت من الجنوب وهذا ما يسهل على الحكومة اتهامنا بالطائفية..

شرحت له الأسباب التي دفعتني إلى تبني الموضوع وليس بينها أي سبب طائفي أو حتى ديني فالخطورة إننا نتداول الإشاعات والأساطير في زمن الإعلام والفضائيات.. رئيس التحرير كان متفهما جداً. وأضاف لي معلومة، بأن ما موجود هو مياه جوفية وعندما كان مديراً عاماً للسياحة حاولوا سحب المياه من تحت القبر الشريف وتم التعاقد مع شركة هندية لهذا الأمر، وكان رأي المهندسين أن سحب المياه من تحت القبر سوف يؤدي إلى انهيار الضريح، فاستعملت الشركة الهندية تقنية حقن الأرض بالإسمنت

قبل سحب المياه، ومع ذلك لم تنجح الطريقة، بعد ذلك وافق رئيس التحرير على تزويدي بكتاب تسهيل مهمة إلى المحافظة لا يتضمن أية تفاصيل بشأن السماح لي بالنزول إلى القبر الشريف. وقال لي:

أنت وشطارتك.. فكر كيف تقنع محافظ كربلاء بالنزول إلى القبر.. لكن تجنب الحديث عن الكرامات لكيلا تخلق مشكلة فهم حساسون من هذا الأمر..

في كربلاء.. مخاوف وكرامات

من هيبة القبة الذهبية والمئذنتين الشامختين وسطوة الاواوين والأروقة حيث حفيف أجنحة الرحمة والخشوع والإجلال وشواهد التاريخ المعلنة والمخفية إلى ذرات التربة المعجونة بالدم الطاهر الّذي عزز روح الأمة الإسلامية بأقوى «لا» تحفظها ذاكرة البشرية وصارت مناراً لكل الثوار على وجه الأرض.. كانت رحلة شاقة جداً، وأصعب ما فيها إنها رحلة تبحث عن يقينها..

الخطوة الأولى كانت إلى السيد مهدي الغرابي سادن الروضة العباسية في حينها، استقبلنا الرجل بشيء من التحفظ برغم ترحيبه بنا. وعندما طلبنا منه النزول إلى سرداب القبر الشريف، قال: هذا غير ممكن بتاتاً ولا يسمح لأي شخص بالدخول إلّا من خلال ديوان الرئاسة.. لم أتركه أخذت أشرح له الأمور وأقنعه بأن ما نقوم به هو خدمة للإسلام فبدأ يتعاطى معنا وأخبرنا ان البعض يتاجر في هذه المياه «مياه النهر المزعوم» حيث تباع قنينة الماء

إلى الزوار الإيرانيين ما بين ١٠٠-٢٠٠ دولار، إحدى الصحف وجهت التهمة إلى الغرابي بأنه يتاجر بالمياه التي يقال أنها تغسل جثمان العباس عليه السلام .. هنا أمسكت شيئاً ما وقلت للغرابي: نحن نثق بك وجئنا لكي تدافع عن نفسك ضد «افتراءات» الصحف الأسبوعية عليك.. فعرض علينا ان يشرح لنا كل تفاصيل وجغرافية السرداب والقبر، قلت له: أنا لا أكتب عن السماع وإنّما أعتمد على عيني..

بعد أكثر من ساعة على الحديث مع الغرابي، حدث تحول، وقال:

لا استطيع إدخالكم لأن المفتاح عند المحافظ.. خذوا موافقته وأنا لا مانع لديّ..

قلت له: المحافظ هو صابر الدوري.

قال: وما به؟

قلت: كيف أتكلم معه بالموضوع وهو مدير مخابرات ومدير الاستخبارات السابق ومن المقربين جداً للرئيس.. أخاف ان يتهمني بالطائفية فمهما يكن هو رجل عسكري ومخابراتي واستخباراتي.

قال: مع ذلك هو رجل طيب.. جرب ان تزوره.

أخذت بعضي ومعي الزميل المصور سمير هادي وذهبنا إلى مبنى المحافظة وهناك التقينا الشاعر حسن النواب وبعد جهود مضنية تمكنا من مقابلة محافظ كربلاء الفريق الركن صابر عبد العزيز الدوري بمساعدة حسن

النـواب.. وبينمـا كنـت ابحـث عـن مدخـل للحديث اعتـذر مـنى المحافظ بسـبب التأخيـر فـي مقابلتـي، وكانت هـذه أول جملة كسـرت حـدة ملامحه الّتي كنت أجدها قاسـية، ربما لأسـباب نفسـية فأنا أخشى الحديث مع رجل مخابرات، فكيف لي التحدث مع مدير المخابرات كله ومدير الاستخبارات العسـكرية كلهـا فـي زمـن حربنا مع إيـران حيث كنت احسـب ألف حسـاب لجندي حضيرة الاستخبارات في وحدتنا العسكرية.

هـذه المخـاوف والهواجس جعلتنـي اسـتحضر أفضـل ما لدي مـن ثقافة ووسـائل إقناع. وكان الرجل يسـتمع لي بهدوء مع حركة ماهرة من عينية تدلل عـلى النباهـة، وعندمـا كررت عليـه عبارتـي: «إننـي لـن اكتب عـن الكرامات وإنّما أريد ان نكشف الحقائق للناس خدمة للمجتمع والدين والوطن».

سألني بشيء من العصبية:

لماذا لا تكتب عن الكرامات؟.. انك تكتب عن سيدنا العبّاس.

قلـت لـه: أخشى ان اتهم بالطائفية، كما انه لا يسـمح بتنـاول الكرامات في الصحافة والإعلام!!!

سألني مبتسماً: تخاف من الحكومة؟

ابتسمت مرتبكاً وقبل ان أجيبه أضاف:

هـذا شـيء لا علاقة لـه بالطائفية ولا بتعليمات الحكومـة.. ان الله قادر على ان يضع آياته في كل شـيء، فلماذا نسـتكثر ان يضع الله سـبحانه وتعالى آياته

في هذا العبد الصالح سيدنا العبّاس عليه السلام، الّذي حرم نفسه من شرب الماء لعطش ابن بنت رسول الله فكرمه ربنا بأن جعل قبره محاطاً بالماء.. أليس هذا تفسيراً معقولاً.

قلت.. بلى.. لكن يقال ان هذه مياه جوفية.

قال: صحيح.. لكن لماذا لم تظهر هذه المياه في مكتبة ضريح الحسين عليه السلام والّتي هي بنفس العمق ولا تبعد الحضرة الحسينية عن الحضرة العبّاسية كثيراً.. أليست هذه كرامة.. اكتب على مسؤوليتي إذا أردت، أنا شخصياً كنت شاهداً على كرامة هذه المياه.. قبل أسابيع اتصل بي هاتفياً رئيس ديوان الرئاسة احمد حسين خضير وأخبرني بوجود بروفيسور هندي تعاني ابنته من الصرع الدائم وأمراض أخرى وفي الرؤيا نصح الأب البروفيسور بأن يذهب بابنته إلى سرداب قبر العبّاس عليه السلام فبغير هذا لن تشفى، وفعلاً اتصل البروفيسور الهندي بصدام حسين وطلب منه السماح بزيارة سرداب القبر والأخذ من مائة وها هو أمر الرئيس بالسماح بالزيارة.. وفعلاً جاء البروفيسور وابنته ودخلا السرداب واغتسلت ابنته بالماء وشفيت فوراً.. ولدي الكثير من القصص.

قلت له: أنا أصدق وأؤمن بما تقول لكن أنت تعرف ان الإعلام تابع للدولة.. ألف باء مجلة رسمية!

ومن ثم سألني الدوري: هل عندك قدرة على النزول إلى السرداب ومواجهة قبر سيدنا العبّاس؟

طريقة إلقاء السؤال فيها شيء من الخشوع والتحدي والتحذير، لكني أجبته مباشرة:

نعم. استطيع فانا أمام مهمة خطيرة تخص ملايين المسلمين وتخص الكثير منهم الّذين يعتقدون ان جثة الإمام العباس ما زالت طافية على النهر وان النهر ما زال يجرى.

أود أن أخبرك، انه بعد قضية البروفيسور الهندي اتصل بي قاسم سلام عضو القيادة القومية مسؤول الحزب في اليمن وطلب مني الدخول إلى القبر، وقد جاءني فعلاً.. ولكنه ما أن نزل درجتين من سلم السرداب حتى اصطكت ركبتاه وأجهش بالبكاء ثم انهار وأخرجناه قبل ان يصل إلى القبر الشريف.. أُعطيك هذه الصورة لكي تعرف ما معنى زيارة قبر سيدنا العبّاس عليه السلام.

أنا مستعد لذلك وأعرف أشياء أكثر ممّا قلته عن كرامات الإمام العبّاس عليه السلام.. عندها، رفع الفريق صابر الدوري سماعة الهاتف وكلم السيد الغرابي وأمره ان يفتح لي باب السرداب والنزول إلى القبر وان افعل ما أشاء من دون تقيد.. وضع سماعة الهاتف والتفت لي:

ادخل واكتب وصور.. وأرجو ألا تخذلني بالكتابة؟

حكاية النهر

على مدى يومين منحهما لنا من وقته سادن الروضة العباسية مع سادن الروضة الحسينية حاولنا الخروج بإجابات عن عشرات الأسئلة.. بدأنا

البحث عن نهر العلقمي هل هو فعلاً يجرى تحت الحضرة المقدسة.. من خلال اطلاعنا على بعض الكتب في مكتبة الحضرتين وجدنا ان الإمام الحسين عليه السلام اختار مكان معركة الطف على وفق رؤية عسكرية مسبقة، حيث نصب مخيماته بين مجموعة من التلال محاطة بقرى الغاضرية والنواويس ونينوى وكور بابل الّتي ترجع إليها تسمية كربلاء.. وإلى الخلف بعيداً عن «التل الزينبي» هناك هور يشكل حماية طبيعية خلفية لمعسكر الحسين عليه السلام وفي الأمام يقع نهر العلقمي الّذي هو فرع من نهر الفرات القديم وقد اندثر من قرون ويبعد مكانه عن مرقد العبّاس عليه السلام بمسافة «١٥٠-٢٠٠»م قريباً من مقام سقوط الكف الأيسر.. حيث تدل هذه الأمكنة على مسار حركته عليه السلام عندما أخذ الماء من النهر ومن ثم قطعت يده اليمنى وبعد ذلك قطعت يده اليسرى بمسافة قبل ان يسقط صريعاً في مكانه الحالي..

بناظير بوتو تمنع تصوير القبر

زميلي المصور سمير هادي هيأ نفسه لالتقاط صور القبر، إذ إنه سوف ينزل ويكشف الحقائق بالصور.. عند باب الضريح وعندما لاحظ السيد الغرابي استعدادات المصور قال لي:

صحيح ان المحافظ وافق على التصوير لكن لي رجاء فأنتم مسلمون واعتقد ان تصوير القبر يمس حرمة الإمام، أنا لا أمنعكم لكن اعتقد ان في الأمر شيئاً من مس الحرمات، وأسرد لك ما روته لنا بناظير بوتو وزوجها آصف زاده عندما زرناهم في الباكستان قبل سنوات، حيث انعقد المؤتمر

الإسلامي هناك، وقد أقامت بوتو وزوجها دعوة غداء في بيتها للوفد العراقي وأتذكر ضمن ما قاله آصف زاده حيث كان قد خسر الانتخابات مع زوجته بناظير: «لا نستغرب خسارتنا الانتخابات واتهامنا بالفساد اعتدينا على حرمة العباس عليه السلام فعندما زرناه دخلنا على قبره في السرداب، وهذا لا يجوز.. تصور انك تدخل على رئيس جمهورية وهو نائم، وفي ملابس النوم.. هل يجوز هذا؟ فكيف فعلنا ذلك مع العبّاس» علما ان بوتو عندما دخلت السرداب منعت المصورين الّذين يرافقونها من تصوير السرداب والقبر احتراماً للعبّاس عليه السلام.

عندها طلبت من الزميل سمير هادي ان يغض النظر عن التصوير وفعلاً استجاب لطلبي وأعاد كأميرته إلى حقيبته وعاد إلى بغداد.. دخلنا الحضرة العباسية المطهرة.

عند الزاوية الشمالية الغربية من الحضرة في مصلى النساء فتح لنا باباً فضياً عملاقاً حيث دخلنا غرفة مربعة وطلب منا ان نخلع ملابسنا بعد ان أغلق الباب خلفنا الزميل حسن النواب الّذي رافقني. بدأ يثير الأسئلة بعد أن لاحظت الخشية تسيطر عليه وكأنه يتردد في النزول إلى السرداب.. لكن السيد زكي الّذي أوكلت له مهمة مرافقتنا وتأدية طقوس الزيارة نادانا قائلاً:

توكلوا على الله، بعد ان فتح أقفالاً في الأرض ورفع شباكاً حديدياً يغلق مدخل السرداب.

من الخارج شاهدت الماء الّذي كان حكاية الحكايات بالنسبة للكثير من الناس.. هبطنا درجات من المرمر الأبيض المزخرف بخطوط سود، كانت

ثماني درجات، ومع كل درجة اهبطها كان الماء يتسلق ساقي حتى استقر فوق ركبتي، عندها وجدتني في دهليز يبلغ عمقه نحو مترين وعرضه أكثر من متر يمتد أمامي بعمق متساو لكنه ينحني مشكلاً دائرة شبه مضلعة، مضاءة بمصابيح كهربائية اعتيادية.. كانت المياه صافية مثل الزلال بحيث كنت أرى من خلالها تفاصيل خطوط أظافر قدمي، بالرغم من طبقة الغبار الخفيف المتسلل من فتحات جانبية تشكل نهايتي دهليزين جانبيين ينفتحان خارج مبنى الروضة للتهوية ولكن بمسافة بعيدة عن الدهليز الدائري..

أول شيء فعلته هو إنني شربت الماء لا تذوق طعمه، فكان عذباً ونقياً وليس مجاً أو مالحاً كما هو شأن المياه الجوفية، وعلمت انه محافظ على مستواه حتى وان تغيرت مناسيب المياه الجوفية في أراضي كربلاء..

في أثناء تقدمنا لم يتغير صفاء الماء بالرغم من أن السيد زكي قد سبقني مؤدياً طقوس الزيارة والبسملات والحوقلات والصلوات، سقف الدهليز الّذي يشكل أرضية الحضرة المطهرة في الأعلى مبنية من الإسمنت والجانبان من الطابوق، الجانب الخارجي مبني بالطابوق الحديث، أما الداخلي الّذي يشكل غلافاً للكتلة الدائرية الّتي يستدير عليها الدهليز فاغلبها مبني بالطابوق الفرشي القديم يعود إلى عصور ماضية متعددة حسب فترات الترميم، بعضه مبني بالإسمنت، والبعض الآخر بالنورة والرماد حيث لا يوجد إسمنت آنذاك..

الكتلة الدائرية الّتي يستدير عليها الدهليز تكاد تكون بقدر مساحة الحضرة، حيث يقوم في الأعلى الصندوق أو الخاتم المصنوع من الصاج الفاخر ومطعّم بالأصداف والزخارف النادرة وعليه الشباك الفضي المغطى بالذهب الخالص المزين بالآيات القرآنية والزخارف النباتية والفنية.

أما الدهليز الّذي نمشي فيه فيكاد يكون تحت رواق الطواف على الشباك تماماً.

بعد خطوات ينفتح في الكتلة الدائرية دهليز آخر أضيق قليلاً ويشكل قطراً للكتلة الدائرية، وفي منتصف القطر الّذي هو منتصف الكتلة الدائرية ينهمر ضوء ساطع على فراغ حيث يقوم القبر المطهر الشريف مغموراً بالضوء بشكله المربع الذي تقدّر مساحته بحدود «٣*٣»م هنا وجدت رأسي يمتد ويتوقف محشوراً في المنتصف، يتلمى القمر المربع الّذي تقدر مساحته بحدود «٣*٣»م. هنا وجدت رأسي يمتد ويتوقف محشوراً في المنتصف، يتلمى القمر الهاشمي المضمخ بدماء الشهادة والثبات بلا ذراعين تحوم حوله تلك الهالة العظيمة الّتي صنعها شرف النسب والمواقف والموت التراجيدي للبطل. في هذه اللحظة اختلطت علي الوثائق والمخيلة عندها تذكرت كل ما قيل عن العباس عليه السلام ولم استغرب كل ما يتداوله الناس بشأن هذا الولي الصالح، فهو من المنظور الميثيولوجي طبيعي جداً على وفق معطيات «الموت التراجيدي للبطل» فكيف الأمر والروايات التاريخية تشير إلى انه عندما صال العباس على الظالمين الّذين يحولون بين آل رسول الله صلى الله عليه وآله والماء انشقّت أمامه الجيوش وانكشفت المشرعة بعد أن انشغل المارقون

بالتطلع إلى بهاء طلعته وجمال وجهه الّذي منحه لقب «قمر بني هاشم»، إضافة إلى ضخامة جسده، حيث يقال أنه عليه السلام إذا ركب الفرس خطت قدماه في الأرض وقد استشهد وعمره ٣٤ سنة..

إزاء هذا الخاطر وجدت ان الإسمنت يغلف هالات من النور والتقوى وهي بعض إسرار قداسة أرضنا.. سألني حسن النواب: هل تشم هذه الرائحة الطيبة؟ لم أجبه. فأنا واقف الآن تماماً على المكان الذي جلس فيه الحسين عليه السلام يتفقد جراح أخيه، فقد انشغلت بتحديد الاتجاه الّذي ركض به سيد الشهادة الإمام الحسين عليه السلام بعد مصرع أخيه وحامل لوائه.. تنحيت عن مكاني ومن ثم دسست رأسي وكأني أحاول تحديد المكان الّذي جلس فيه الحسين عليه السلام ووضع رأس أخيه المفلوق في حجره.. من كان يشكو لمن؟ العباس الصريع أم الحسين الوحيد؟.. كأني اسمع حوارهما، غير آبهين بقعقعة السيوف وتصرفات الخبثاء.. المكان نفسه لم يتغير وهذا ما أشعل مخيلتي فجثمان العباس عليه السلام الوحيد من بين شهداء الطف لم ينقل من مكانه ودفن في مكان مصرعه.. الدم يتوهج وأرهف السمع لحوارهما.. لكن صوت الحوراء زينب جاء مشروخاً مرعوباً وهي تنادي من على التل الذي سمي فيما بعد «التل الزينبي» فجيوش ابن سعد أضرمت النيران في خيم النسوة والأطفال.. ياه.. ما أشدها من محنة من محن سيد الشهداء في تلك اللحظات وذلك اليوم.. فما بين الحوار الأخير مع حامل لوائه الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وما بين عويل النسوة واليتامى ومن رعب النار التي اشتعلت في أذيال ثيابهم.. وجد سيد الشهداء نفسه حائراً.. لم اسمع ولم اقرأ كلمات الوداع الأخير.. فقد

نهض وحمل سيفه ليذود عن حرم رسول الله ﷺ.

كان ثمة فراغ بين القبر وكتلة الدائرة التي بدا التهري على طابوقها الفرشي لقدمه.. اختلط عليّ الضوء والماء، ثمة رسائل وأوراق تطفو ما بين الماء والضوء، التقطها وأفضها برغم بللها وأحاول ان اقرأها، أنها رسائل شكوى واستجارة بهذا الولي الصالح من ضيم الدنيا، حاولت قراءة الأسماء والكلمات كانت رائحة الفجيعة محسوسة من الحبر المنتشر على الورق بفعل المياه، بعد لحظات أجد صورتين لفتاتين كانت المياه قد شوهت الكثير من ملامحهما، تساءلت كيف وصلت الرسائل والصور إلى هنا؟..

ولماذا استجاروا بوليّ بلا ذراعين مكبّل بالإسمنت، تذكرت ما قاله لي صابر الدوري: «بالرغم من إيماني بالعلم لكني لا استغرب ان يضع الله سبحانه وتعالى آياته في بعض أوليائه الصالحين» اذن انه الإيمان المطلق بالله ومن ثم بالأولياء الصالحين.

استدرت في الدهليز، اجتزت النصف الأيسر من الكتلة الدائرة وتوقفت عند الطرف الآخر من الدهليز الوسطي الذي يشكل قطر الدائرة الوسطي الذي يشكل قطر الدائرة واطل مرة أخرى على القبر.. المياه لا تغمر القبر وإنّما تصل إلى نصف ارتفاعه وثمة فراغ بين القبر والكتلة الدائرية.. يلوح من تحت الماء فيها الكاشي الكربلائي الذي بلطت فيه الأرضية المحيط بالقبر وكأنها وضعت فاصلة بين القبر ومن يريد الاقتراب منه.

ثمة تصدعات في قشرة الإسمنت الّتي تغطي القبر تغريني بالتحديق

وكأنها ستقودني إلى رؤية ما في القبر.. ذراعان مفتولتان مبتورتان من الساعد.. قربة مزقتها السهام.. انكسار شديد يغشي العين التي نبت فيها السهم الطائشى إذ تقل الحيلة وتعز الوسيلة ونداء العطش يطبق على الآفاق.. فأين كانت هذه المياه من تلك اللحظات التي أشعلها العطش؟!!

اسحب رأسي وأستدير على النصف الأيمن من الكتلة الدائرية إذ أجد دهليزاً ثالثاً يقود إلى منتصف الدائرة «القبر» لكنه متعرج وأضيق من ان تمد رأسك فيه فتعلق عند منتصفه بالطين، من الواضح ان يعود إلى عصور تاريخية ليست قريبة.. اتركه لا جد نفسي عند نقطة الانطلاق إذ تنتهي الدائرة فاصعد الدرجات المرمية حاملاً معي إجابات عن الكثير من الأسئلة التي بدت لي غامضة قبل نزولي السرداب ولأجد السيد الغرابي بانتظاري.

خزائن ونفائس

سألني الغرابي: هل وجدت شيئاً من الحكايات والخزائن والنفائس الملقاة على القبر؟

قلت له: كلا لم أجد شيئاً.. لكن أين الخزائن؟

وهنا راح يوصف لي الخزائن بأنها نفيسة ونادرة محفوظة في مكان لا يستطيع الإفصاح عنه وفيها سجلات خاصة لديه ولدى الأوقاف ولدى ديوان الرئاسة وتضم هذه النفائس تيجان من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والدرر مهداة من ملوك وأمراء ورؤساء وشخصيات من شتى الفترات التاريخية ومن مختلف بقاع الأرض، وسجاد ثمين وثريات نادرة، فضلاً عن

مكتبة عامرة تضم نفائس المخطوطات والكتب النادرة وهذه جميعها تشكل احد أسرار الروضة العباسية المطهرة التي لم يخبرني عنها الغرابي بالرغم من إننا أصبحنا أصدقاء فيما بعد وزرت القبر من خلاله مع بعض الأصدقاء أكثر من مرة.. وقد سألت الغرابي وقتها: وهل أضاف صدام شيئاً لهذه الخزائن؟

ضحك وكأنه فهم السؤال: السيد الرئيس باستمرار يرعى المراقد الدينية، وآخر ما تبرع به للروضة العباسية ٤٤ كيلو غراما من الذهب و١٥٠ كيلو غراما من الفضة لتذهيب طارمة الروضة.

من أين جاء بهذه الكمية من الذهب؟

مسك الغرابي يدي وسحبني إليه وهمس لي:

الذهب مال العباس من النذور التي نجمعها ولدينا كميات كبيرة منه لكن صدام «يأمر» بأن نصرف منه كذا كمية فيقال عنها مكرمة لكنه في الحقيقة لم يدفعها من جيبه ولا من أمواله.

للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع او الطباعة

تاريخ الضريح المطهر

دفن الإمام العباس عليه السلام مع أخيه الحسين عليه السلام وشهداء الطف بعد ثلاثة أيام من استشهادهم أي في الثالث عشر من محرم الحرام ولم يكن في هذه الأرض أي معلم أو بناء.. أول بناء أقيم على قبره الشريف هو سقيفة بناها المختار بن عبيد الله الثقفي سنة ٦٧ هجرية، وقبل ذلك عملت القبور من قبل الإمام زين العابدين علي الحسين عليه السلام وكان القبر معموراً في خلافة بني أمية وأول

الخلافة العباسية. وفي سنة ٢٤٧ قام الخليفة العباسي المتوكل بهدم قبري الحسين والعباس ، وزرع فوقهما الزرع وجعل الثيران تحرث فوقهما، بينهما كانت زوجة الخليفة تعمل بالسر على إدامة القبرين لكيلا يضيع اثرهما حتى مات المتوكل وجاء ابنه الذي أعاد القبرين وأعاد لهما هيبتهما. وفي سنة ٣٦٩ هـ أقام الخليفة العباسي الطائع لله بن المطيع بناءً جليلاً عليه ويعد أول بناء ضخم أنشئ على القبر وفي سنة ١٢٢١ هـ بنيت أول قبة عليه ومئذنتين بناها أمين الدولة الصدر الأعظم وغلفها بالكاشي الكربلائي. في سنة ١٣٠٦ هـ أمر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بتسقيف الإيوان القبلي بالخشب الصاج الثمين، وحدث تطور على عمارة الضريح سنة ١٣٣٩ هـ عندما ذهبت الواجهة الإمامية من الإيوان القبلي وهذه أول مرة يدخل فيها الذهب على المرقد كما يقال وفي عام ١٩٥٥م غلفت القبة بالذهب بعد ان كانت مغلفة بالكاشي الكربلائي.

غير مخصص للبيع أو الطباعة

أصداء

بعد نشر الموضوع في مجلة «ألف باء» حدثت أصداء كثيرة سواء في الشارع أم في أعلى مستويات الدولة، إذ نوقش الموضوع في اجتماع مجلس الوزراء وقرر تشكيل لجنة لسحب المياه الجوفية..

في أثناء ذلك اتصل بي الفريق الركن صابر الدوري من خلال الزميل حسين فوزي مدير تحرير «ألف باء» ودعاني لزيارته أنا وعائلتي، وفعلاً ذهبت إلى كربلاء ومعي أحد الأصدقاء. وقال لي: أنت أسعدتني بالموضوع ولم افرح

منذ زمن فكيف تريد ان أفرحك؟

أجبته بأنه فرحني عندما سمح لي بالانفراد بهذا السبق الصحفي، عندها قال لي: أنا وأنت يجب ان نصبح أصدقاء ولأنك تكتب بهذه الطريقة الهادئة الّتي أثارت اهتمام «القيادة».. سأطرح عليك موضوعاً مهماً جداً يعطيك سبقاً آخر، يخص ضريح سيدنا الحسين عليه السلام.

ومن ثم راح يروي لي قصة طويلة عن الصخرة الّتي حز عليها رأس الحسين الشريف الموجودة في مكان ما من المرقد إذ تفوح منها رائحة زكية لم يعرف مثلها يقال أنها أنفاس فاطمة الزهراء عليها السلام التي شهقت عند حز رأس ولدها الشريف وبقيت تفوح منها حتى الآن.. وأكد انه لم يصدق الموضوع إلى ان باغته السادن في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل وبعد تنظيف وغسل الحضرة المقدسة، إذ زار الصخرة وشم الرائحة.. وأكد الدوري ان هذه كرامة أخرى من كرامات آل البيت يجب الكتابة عنها..

قلت له: هل تعتقد ان المسؤولين سيصدقون ما اكتب؟ ومن يحميني منهم؟

قال: هذه حقائق. قلت: هل تتكفل بحمايتي؟ قال: لا أتدخل في الإعلام.

عموماً كانت مبادرة جميلة ورائعة من الرجل، فقد كان محباً لآل البيت ولأهل كربلاء ومخلصاً لهم.. أتمنى ان تتسنى لنا الفرصة أو لغيرنا للكتابة عن هذا الموضوع.

عبدالستار البيضاني

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد
غير مخصص للبيع أو الطباعة

الملحق (٢): قصة نقل جثمان الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه

المعروف أنّ السيد الشهيد قد دفن سراً في خفاء[1] في ليلة خفية وفي مكان خفي سعيا لإطفاء إشعاع شمس الصدر بعد إعدامه، ولم يعلموا أن الله الغالب على أمره تعهّد وأبى إلّا أن يتم نوره ولو كرهوا، وقد سبق في حكمه للشهداء أنّهم الباقون، أحياء عند ربهم يرزقون، ولقد قال وليه عليه السلام، ناطقاً عنه صادقاً: (العلماء باقون ما بقي الدهر).

وإن في قصة ما جرى لجثمان السيد الشهيد خير مصداق حي لتلك الوعود الصادقة. ذلك أن الله سبحانه هيأ من المؤمنين من أظهر على يديه وبسببه كرامة لذلك العالم الشهيد الكبير.

فأظهر الله جسده حيًّا طرياً. من بعد هجوع طال أربع عشرة سنة مغموراً في أحشاء الأرض تحت أكوام التراب. علامة أن لم ينقطع عنه رزقه بكرة ولا عشيّاً.

والقصة ننقلها هنا مختصرة عن لسان ذلك الرجل المؤمن الوفي والمجاهد «السيد كامل العميدي»، الذي سعى بنفسه لمعرفة مكان مدفن الشهيد لحفظ أثره وللقيام بأداء حقه ولو مستقبلاً متى ما تهيأت الظروف. لم يكن السيد كامل يقصد في بداية الأمر إلّا مجرد معرفة المكان لكيلا تمضي السنون وينمحي أثره بزوال شخوص العارفين القلة بذلك المكان. فلم يكن في نيته بدايةً أن ينقل الجثمان لولا الأحداث المتلاحقة.

---

١. في ٩ نيسان / ١٩٨٠.

والسيّد كامل هو أحد المحبين المتفانين في شخصية السيد الشهيد، وهو أيضاً من الملتصقين بكبار العلماء في النجف الأشرف ويعمل في عدة مكاتب لمراجع التقليد والفتيا. وقد انضم للعمل إلى جانب مجموعة الدفّانين العاملين رسميا في مقابر وادي السلام في النجف الأشرف، وذلك تمهيداً للوصول إلى هدفه المذكور. فبقي هناك فترة يحاول التغلغل والولوج إلى عالم أسرار وخبايا الدفانين، وعمليات الدفن التي تجري وطبيعة إجراءات الدفن، وعلاقة الدولة بذلك وغيرها من أمور.

وأثمرت محاولاته بعد تلك الفترة في أن يتعرف على الرجل الذي كان معتمداً عند رجال السلطة المحلية لدفن الجثامين المحوّلة من قبل أجهزة أمن الحزب. وقد عرف أنه دفّان رسمي هناك واسمه عباس بلاش، وكان يمارس ذلك سراً، بعيدا عن أعين الناس بحسب تأكيد السلطة. فتقرّب إليه ووثّق علاقته به وكسب ودّه واستحكمت الصداقة بينهما. وبعد طول صحبة بينهما عرف السيد كامل أنه هو بنفسه حقاً من باشر دفن السيد الشهيد الصدر. وعرف أين دفنه وحدد له موضع القبر.

وعندها قام السيد كامل بزيارة الشهيد في رمسه الذي عيّن مكانه وجهته. وهناك حفر حفرة صغيرة في أعلى القبر ودس فيها لبنة (بلوك) أسمنتية حمراء. كعلامة على القبر لو تغيرت المعالم الخارجية، ثم أهال التراب وسوّى القبر وأعاده كما كان.

بعد انتفاضة الشعب العراقي «الشعبانية» في ١٩٩١م، وبعد تدخل القوات

الأجنبية دعماً لصالح نظام صدام في ذلك الحين ممّا ساعده ومكّنه من سحق الانتفاضة، بعد ذلك بفترة بدأ النظام ينفذ خطة مدمّرة بتطبيق سياسة الأرض المحروقة في المناطق الجنوبية والوسطى ثم القيام بإحداث تغييرات ديموغرافية وجغرافية واسعة في عموم العراق، للإخلال بميزان نقاط ومواضع القوة لدى الشعب. وأما في عاصمة الانتفاضة النجف الأشرف، فإن أكثر ما آذى النظام وأقلقه هو أن الثوار قد استفادوا من مقابر وادي السلام بأبنيتها وأزقتها في التحصن والتمترس. ذلك أنها كانت تشتمل على كثير من السراديب والأقبية والممرات المتشعبة والمتاهات المعقدة، ممّا يتيح لأهالي المنطقة العارفين بها قدرة كبيرة على المناورة والكر والفر، بينما قوات النظام كانت محرومةً من ذلك لأنها تتكون عادة من أفراد غرباء عن المنطقة وعن الشعب الجائع والمظلوم.

ولهذا فإن النظام الجائر بعد ما استتب له الأمر بمساعدة الاستكبار، عمد إلى تخريب الطبيعة الجغرافية الأصلية لوادي السلام، وقام بجرف مساحات واسعة من تلك المدافن، ودفن كثيراً من الأقبية، وأحدث شبكة طرق وشوارع داخلية واسعة في قلب وأطراف وادي السلام، ممّا ضيّع كثيراً من معالم تلك المنطقة بما فيها من قبور وأضرحة للعلماء والصالحين. ومن ذلك أن، قبر الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) صار في وسط طريق واسع نسبيا في داخل تلك المنطقة.

هنا رأى السيد كامل أن القبر الذي صرف جزءاً من عمره للتعرف على موقعه وحفظ أثره، وكان يرجو أن تسنح الفرصة للعناية به و إشهاره للمؤمنين

ولو بعد حين، صار الآن مهدداً بالضياع تماماً تهديداً حقيقياً. ففكر في خيار نقل الجثمان الطاهر إلى مكان آخر من دون علم سلطة البغي الحاقدة والتي حرصت على إبقاء مكان دفن الشهيد سرياً، وها هي الآن نفذت إجراء يكون معه ظهور القبر والتعرف عليه مستقبلاً في نظرها أمراً مستحيلاً. ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]، كما قال سبحانه.

فتحرك السيد كامل لتنفيذ مشروعه الجريء. وقام بأول خطوة في ذلك الاتجاه وهي استفتاء عدد من كبار العلماء ومراجع الدين الذين يعرفونه ويثقون فيه بحكم علاقته بهم وخدمته القديمة لهم. فأفتى له بجواز ذلك بل استحبابه، عدد منهم كالمرجع آية الله السيد محمد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ إسحاق الفياض والسيد البهشتي وغيرهم، باعتبار أن ذلك حفظ لهيبة علماء الدين وتعظيم للعلم وللحق وأهله.

هكذا أخذ شُحنة معنوية وشرعية للقيام بذلك العمل وصار يعدُّ له العدة. فاتفق مع مجموعة من المؤمنين وحددوا يوماً للتنفيذ. ولم يكن بحمد الله في طريقهم أي عقبة. فحتى عيون الأمن الصدامي لم يكن لها لترصد تلك الحركة متى ما تمت. لأنّ الله سبحانه وهب لهذه المجموعة المؤمنة غطاءً أمنياً تلقائياً.. فقد سهل الأمر عندما هبَّ كثير من الناس لنقل رفات موتاهم من تلك القبور المجرّفة إلى أماكن أخرى استحدثت لهم. وصار من المألوف أن تجد بين يوم وآخر جماعة يحفرون في هذه البقعة أو تلك لإخراج رمة أو

١. الأنفال: ٣٠.

مجموعة عظام لنقلها إلى مكان آخر.

تهيأت الظروف وسهل الله كل عسير وجهّز السيد كامل كل ما يحتاج إليه لنقل الجثمان الطاهر. وكان قد أخبر ثلة من المؤمنين: تتكون من خمسة أو ستة أشخاص من الذين يحفظون سره، وكان دليلهم إلى موقع القبر رغم تغيّر المعالم الأولى، نفس ذلك الدفان الذي دفنه أولاً: عباس بلاش الخبير بجميع تضاريس المنطقة ومعالمها وجهاتها. فإن الأقدار سخّرت عباسا هذا لإظهار ذلك الجسد الطاهر والقبر المندرس مع أنه كان ممن شارك ولو من غير إرادة في الإخفاء والتكتّم ومحاولة دفن الحقيقة إلى الأبد، وذلك أن الطاغوت إذا تكبر وتجبر لا يحدّ ظلمه وتجبره أحد، فإن أزلام النظام امتدت أيديهم المجرمة التي تطاولت على الجميع بلا استثناء سجنا وقهراً وتقتيلاً وتشريداً، إلى أخي عباس نفسه وكان دفاناً أيضاً فأعدم فيمن أعدم، إن بتهمة وإن بدونها. فتحول عباس عن اللاأبالية التي كان سادراً فيها إلى رجل يكره النظام ورجاله وصار يهمل أوامرهم ويستهتر بهم وترك التعاون معهم. بل وجد فرصة لنوع من الانتقام لدم أخيه بالمشاركة في هذا العمل الصالح.

في ذلك اليوم من عام ١٩٩٤، توجهت تلك الثلة إلى موقع لحد الشهيد في غفلة عن أعين الحاقدين وفي أجواء عادية تماماً. وعندما وصلوا، تحلقوا حول القبر الواقع في وسط الطريق المستحدث. وشرعوا في الحفر. وأول ما ظهر لهم تلك اللبنة الحمراء التي كان السيد كامل قد دفنها منذ سنوات. ممّا اطمأن الجميع معه إلى صوابيه تحديدهم للموقع.

كان عباس بلاش الدفّان قد أخبر السيد كامل سابقاً أنه دفن الشهيد في قبر يشتمل على لحدين متقابلين في أسفله كما هي عليه كثير من القبور الأخرى هناك. فدفن الشهيد في أحدهما، وفي اليوم الآخر جاء له رجال أمن البعث بجنازة أخرى وأمروه بأن يدفنها في نفس قبر الشهيد، وكان الجثمان الآخر ملفوفاً بغطاء بلاستيكي أصفر، فدفنه عباس في اللحد المقابل من نفس القبر.

ويذكر السيد كامل هنا: أننا عندما توغلنا في الحفر، وصلنا بالفعل إلى لحدين متقابلين وفي أحدهما سجي جثمان ملفوف بغطاء أصفر ويظهر من الغطاء أنه ما زال مكتنزاً بالجسم في داخله، ولم نحركه بالطبع. وعندما التفتنا إلى جثمان الشهيد صرت أنا وبعض الموجودين نرتجف ونحن نكبر ونهلل وجاشت مشاعرنا بالحزن والإجلال والتقديس، ولقلوبنا وجيف يكاد يُسمع لشدة خفقانها. كان الجثمان ملفوفاً بكفن لم يتغير نسيجه تقريباً وإن تغير لونه بسبب انطماره داخل التراب مدة ١٤ سنة ولكن كان من الواضح أن الجسد الطاهر في داخله لم يطرأ عليه أيّ تغيير، وقد تجلّت لنا جميع تفاصيل البدن من الرأس والأطراف والقدمين كلها كانت ناطقة من خلف الكفن.

عندما عزمت على سحب الجثمان أخذتني رعدة ورهبة في داخلي، فلم استطع التحمل، وخرجت سريعاً إلى الأعلى، فسألني الآخرون: ما بك؟ قلت: أردت فقط أن آخذ نفسا جديداً من الهواء. ثم سميت بسم الله ونزلت القبر متوكلا على الله، وقد نزل معي شخص من المجموعة يساعدني. ثم مددت

يدي إلى الجثمان الذي كان مستقبلاً للقبلة وظهره إلينا، وعندما دققت النظر، وجدت أن الكفن من جهة الرأس مصطبغاً ببقع كثيرة من الدماء الجافة، فسحبت الجثمان برفق إلى جهتنا وانقلب الجسم الذي كان ممدداً على جانبه الأيمن باتجاه القبلة، وصار كله كقالب واحد، وبكل بساطة في حجرنا أنا وزميلي. وإذا به يتثنى غضا طرياً كأنهُ وضع في محله قبل سويعة. ذلك على الرغم من أننا وجدنا الجسم مغموراً بالتراب بشكل مباشر، دون أن يغطوا أعلى اللحد من فوق الجسد بقطع إسمنتية صلبة كما يفعل الدفانون في العادة. وعندما سألنا عباساً، الذي كان حاضرا معنا عن سبب إهالة التراب مباشرة على الجسد؟ أجاب: إن ذلك كان بسبب استعجالهم لإنهاء الأمر سريعاً بأي صورة!

ولما نفضت التراب والغبار، عن الرأس بان لي ذلك الوجه النيِّر الشاحب في الوقت نفسه، وهالنا ما رأينا!.

لقد رأينا اللحية الشريفة قد أحرقت ولم يبق إلّا شعيرات متفاوتة قصراً وطولاً، موزعة على جانبي الوجه وأسفل الذقن، ووجدنا شيئاً آخر انصدعت له قلوبنا، كان ذلك رصاصة لئيمة اخترقت جبهته الكريمة فوق إحدى عينيه فأحدثت ثقبا غائراً وصدعا من حوله واضحا في الجمجمة، وقد حشي الثقب بالقطن الذي تحول إلى قطعة من الدم المتخثر. ولقد كان البدن هزيلاً شاحباً، لأنه & كذلك كان قد دفن قبل أربعة عشر عاماً[1]، ولكن تفاصيل

١. كان الشهيد في أواخر أيام الحجز، قد أصيب بالهزال الشديد والضعف، وتغيّر جسمه. حتى لم يعد يقو على المشي أو صعود الدرج دون أن يرفده أحد. وهكذا أُخذ واستشهد ودفن.

البـدن أبـداً لم يتغير منها شـيء. فأخـذت القطن المـدمى وحفظته في كيس ملائـم. ورفعـت الكفن القديم لأغيّره بكفن جديد، فبان لي بطن الشـهيد وإذا به قد طُعن عدة طعنات. والدم متجمد حولها وفوقها. فاكتفينا بتغيير الكفن، وقد ارتفع منّا النشـيج والاسـترجاع والحوقلة مع التكبيـر والتهليل. ثم أخرجنا الجثمـان الذي كان يتعطف ويتثنى، يطاوعنا في كل اتجاه نوجهه. ووضعناه فـي تابـوت أحضرنـاه معنا ورفعناه فوق السـيارة التـي هيأناها لذلـك الغرض. وبعـد ذلـك توجهنا به إلى حرم أميـر المؤمنين عليه السلام. فأدخلنـا الجثمان الكريم وزرنـا بـه حضرة الإمـام عليه السلام، ومن هناك تحركنـا إلى المدفن الجديـد الذي كنا قد أعددناه سـلفاً في منطقة خالية حجزنا منها قطعة كبيرة لمرقد الشـهيد في وادي السلام.

ومـن الجديـر بالذكـر هنـا أنه عـلى الرغم مـن أن النّعـش الذي هيّأنـاه لرفع جثمان الشـهيد لم يكن ثقيلاً. والجسـد بنفسـه كان نحيفاً جداً وهزيلاً، إلّا أن العجيـب أننا فوجئنا بثقل الجنازة ثقلا غريباً أوقر ظهورنا عند رفعنا إيّاه دخولاً إلى حضـرة أميـر المؤمنيـن وخروجاً منها. حـتى لقد كان بعضنـا أثناء الحمل يعـض عـلى شـفتيه أو يصـر عـلى أسـنانه لشـحذ قـواه وزيـادة طاقـة التحمل عنده.. مع أنه من أشدّاء الرجال!!!

عند القبر الجديد أنزلنا الجثمان ودفنّاه هناك. ثم وضعنا علامة تؤكّد وجود القبـر الـذي لـم يكـن بجانبه غيره. ثـم كتبت اسـم والدي على لوحـة نصبتها بجانب القبر إمعاناً في التحرّز والتمويه.

منذ ذلك اليوم، صرت والمجموعة التي تشرّفت معي بذلك العمل الصالح، نزور القبر في تكتم، ولم نعلن عن نقل جثمان الشهيد إلّا للأشخاص الذين نثق أنهم يحرصون كما نحن على سرية الموضوع ومنهم بعض كبار العلماء الذين صاروا يزورون القبر أيضاً بين فينة وأخرى.

بقي الأمر على ذلك طيّ الكتمان فترة.. كنا نزور ذلك الرمس الشريف كلّما أحببنا دون أي قلق. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات تقريباً، جئت يوماً لزيارة الشهيد. وهناك تفاجأت بوجود رجل شرطة (ضابط) واقفاً بالقرب من القبر الذي لا يجاوره قبر آخر، وكان يتمتم بشفتيه على ما يظهر. فاقتربت منه وعرّفته بنفسي قائلاً إنّ هذا قبر والدي. من حضرتكم؟ قال: أنا وقفت هنا لقراءة الفاتحة المباركة للمرحوم خالي المدفون قريباً من هنا. ثم أعطاني ظهره وابتعد وهو في حالة ارتباك ظاهر. عندئذ وقعت في اضطراب شديد. فهذا ضابط شرطة يقف على هذا القبر الوحيد في هذه البقعة.. فمن يدري بمن وصل إلى علمه من وراء هذا الشخص خبر النقل وأسماء من قاموا به. إن السرّ إذا تعدى اثنين فقد شاع وذاع.. ولعل هذا سيعرض المسألة برمتها للخطر، وتضيع كل تلك الجهود والسنوات الطويلة من الإعداد لما تم إنجازه. وقد يجرفون القبر الجديد بما فيه الجثمان المبارك ليخفوا أثره إلى الأبد.. هذه الخواطر باتت تقض مضجعي، فعزمت على نقل الجثمان مرة أخرى إلى نقطة من تلك البقعة نفسها غير بعيدة عن الأولى، ثم تخريب المدفن الذين قدّرتُ أنه اكتشف، وذلك لاحتمال نبشهم القبر ذاك وحينها إذا لم يجدوا شيئاً فسيقع اليأس في قلوبهم.

وباشرت التحرك من جديد، فاتفقت أيضاً مع مجموعة أخرى، لأنني خفت أن يكون واحد من المجموعة السابقة وتحديداً: (الدفّان الأول عباس) هو الذي سرب الخبر. وإن كان تبين فيما بعد أن لم يحدث شيء من ذلك.

وحددنا يوماً لتنفيذ العملية. وفي الموعد المضروب أتينا سراً وجهزنا قبراً قريباً من السابق (أي المدفن الثاني) ولكنا حرصنا على جعله أعمق من سابقه، ومن جميع القبور المعتادة عموما، إمعاناً في إخفاء الجثمان. ثم فتحنا القبر (الثاني) لرفع الجثمان الطاهر. فلما حفرنا وتعمقنا بان لنا اللحد الذي يضم جسم الشهيد، رفعنا القوالب الإسمنتية من فوقه، وظهر لنا الجسم بكامله، وهناك شعرنا كأنّ غمامة غشّتنا من داخل القبر فيها رَوح وشيء من برودة، ممّا روَّعنا وجعلنا نرتدّ إلى الوراء قليلاً. ثم إننا عندما رفعنا الجسم الكريم، وجدنا بقعة ذات عمق قليل من الماء تحت موضع الرأس.. فتعجبنا لأن المنطقة هناك جافة تماماً. حتى أنه إذا أراد شخص أن يحفر بئراً هناك فعليه أن يتعمق في الحفر إلى عشرين متراً وأكثر إلى أن يجد الماء. وقد رأينا فوق تلك البقعة من الماء والرأس المصاب أجساماً صغيرة تطير وتحوم حول الرأس أشبه بالفراش اللطيف.

حين وضعنا الجسد المبارك على أذرعنا، حانت مني التفاتة إلى يده الكريمة أو هي ظهرت لي من الكفن فرأيت خاتمه (محبس فضة له حَجَر من العقيق اليماني الأحمر)، وهو الذي كان يختم به أجوبة الاستفتاءات أو مراسلاته ومكاتباته غالباً. وكان الخاتم في إصبع يده اليمنى. وقد اصطبغ بالدم الزكي، وعَلِق به التراب. فأمست فضته وكأنها قد تلبَّد عليها الرماد.

فقلت: وهذه كرامة أخرى تثبت للآخرين أن الشهيد حيٌّ لا يبلى حتى جسده، وإلّا لتفككت العظام وانحل من الكف ذلك الخاتم. فسحبت الخاتم من إصبعه. وقد سللته منه بسهولة، رغم كونه ملتصقاً باللحم وبنى عليه التراب المتصلب بالدّم. وقد احتفظت بهذا الخاتم المبارك، وها هو معروض بين أيديكم وأيدي الأجيال بدمه وترابه.. شهادةً للتاريخ على عظمة الشهيد وعلى ما حلّ به، وليبقى يصبُّ اللعنات ما دام الدهر على رؤوس الطغاة والجلادين.

ثم رفعنا الجثمان الكريم ونقلناه إلى رمسه ما قبل الأخير، حيث قدّر للجثمان في شهر رمضان المبارك / ١٤٢٧ هـ أن ينقل للمرّة الأخيرة إلى مدخل النجف من جهة كربلاء، حيث سيشيّد عليه صرح علمي ثقافي ضخم[1].

والحمد لله ربّ العالمين

غير مخصص للبيع أو الطباعة

١. وجع الصدر... ومن وراء الصدر أم جعفر؛ أمل البقشي: ٢٧٤-٢٨٤.

أطول يوم في التاريخ

يوم عاشوراء هو أطول يوم في التاريخ، وفي ذلك اليوم ولد الضمير الإسلامي الذي سيوجد الأمة الإسلامية من «طنجة» إلى «جاكارتا»، وربّما إلى ما هو أبعد من ذلك.

في هذا اليوم الطويل يوم عاشوراء – أطول يوم في التاريخ – استحال الحسين قضية ومبدأً وعقيدة. لهذا انعتق يوم عاشوراء من أسر التاريخ، أصبح فوق الجغرافيا والتاريخ، ودمّر كلّ الاعتبارات القومية والقبلية والفئوية الزائفة، ليتألق الاعتبار الإنساني والأخلاقي فقط.

من أجل ذلك استبسل أنصار الحسين في القتال، وسطّروا ملحمة بطولية خالدة، أثارت دهشة العدو.

ميعاد للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination
كلمات